العدد (٥٩٩) رجب ١٤٣٦ هـ - ابريل - مايو ٢٠١٥ م

الوعي الإسلامي

AlsWaei Alislami

مجلة كويتية شهرية جامعة

صيانة التراث.. ضرورة إنسانية (ملف العدد)

- منهج الإسلام في إخماد الفتن
- إدارة الأزمات التعليمية.. الفريضة الغائبة
- ماذا تقدم وسائل التكنولوجيا الترفيهية لأطفالنا؟
- مؤتمر حاجي خليفة الدولي.. رؤية تاريخية وأسئلة عصرية

مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

هدية العدد: «خاتم الوعي الإسلامي(٧)»

info@alwaei.com

www.alwaei.gov.kw

مجلة الوعي الإسلامي

الافتتاحية

صيانة التراث

إن الإبداع الفكري والعلمي للتراث الإسلامي، هو حصيلة قرون طويلة في عدة مجالات، تكمن في التراث المسطور الذي لا غنى للعالم عنه، وما ترك لنا الأوائل في خزاناتها من تراث خالد، وعلم نافع، أفادت منه الحضارة الغربية.

ولايزال هذا التراث الهائل متناثرا في مدونات نادرة، سطرت باليد، اشتملت على معارف القدماء.. هذا التراث الثمين الذي ينبغي جمعه وصيانته من الهلاك.

ومن المعلوم أن التراث الإسلامي ابتلي خلال القرون بمحن عديدة في مشارق الأرض ومغاربها، وضاع منه الكثير.

فالإنسان منذ القدم يعتمد على غيره، ويحاول الإتيان بشيء جديد. فالاعتماد والابتكار هما من عوامل التقدم والارتقاء. وقد أخذ العرب والمسلمون عمن تقدمهم، واقتبس الغرب من العرب، وكان مما امتازت به القرون الأولى من الإسلام أن علوم الأوائل، التي بدئ بترجمتها، قد زادت العناية بها، وقد أدخلت هذه العلوم والصناعات في العربية روحا جديدا، فترجم إليها من عدة لغات، فاغتنت اللغة، ورأت من الأساليب والأفكار ما لا عهد لها به، وهذا أول تأثير من آداب الأمم الأخرى أصاب اللغة العربية، فأصبحت لغة علم وصناعة، بعد أن كانت لغة شعر وحكمة فقط.

وما أضافه العرب من الثقافة الإنسانية إلى تراث من سبقهم من المفكرين، وما خلفته الحضارة الإسلامية لا حصر له.

ونظرة إلى الأمم الناهضة القوية ذات التراث الضخم، نجد أنها تصرف عنايتها إلى القديم وإحيائه، وأن المقصد الأسمى والغاية النبيلة هما جعل تلك الأمة تؤمن بأن لها كيانا معتبرا في عالم الاكتشاف والاختراع، وأنه بإمكانها المساهمة في خدمة الإنسانية.

إن الأمة العربية والإسلامية من الأمم التي خلفت تراثا في ميادين المعرفة، عاد على الحضارة بالتقدم والارتقاء، وقد وضعوا له الأصول والقواعد؛ درسا وتدقيقا لا تزال في أسسها وجوهرها. وإذا ضاعت الأصول، ضاع التاريخ معها، وذلك أن التاريخ لا يقوم إلا على الآثار التي خلفها الأسلاف، فإذا سطت محن الدهر أو عوادي الزمن على بعض هذه الآثار والتراث وأزالت معالمها، فقدها التاريخ، وكانت كأنها لم توجد، وبفقدها يجهل عصرها ورجالها.

فلزاما على أهل الحل والعقد أن يتفرغوا للبحث والتفتيش عن التراث وجمعه وصيانته حتى يكون متاحا للدارسين والباحثين في شتى فروع المعرفة البشرية.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٩ | رجب ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
ابريل - مايو ٢٠١٥م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

مدير التحرير
فهد محمد الخزي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هدايت الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع
دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية
- المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

٨ دسائس السوء.. وسوء الخاتمة

١٤ قصف التراث الإسلامي

٦٨ أطفالنا والتكنولوجيا الترفيهية

٧٦ معاقل العلماء.. مرو

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

- الكويت : ٥٠٠ فلس - السعودية: ٥ ريالات - البحرين : ٥٠٠ فلس - قطر : ٥ ريالات - الإمارات : ٥ درهم - سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة
- الأردن:دينار واحد - مصر : ٢ جنيه - اليمن : ١٠٠ ريال - لبنان: ٢٠٠٠ ليرة - سوريا: ٣٠ ليرة - المغرب : ١٠دراهم - الجزائر: ٤ دينار جزائري - تونس: دينار واحد تونسي - المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني - باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

٣	**الافتتاحية**/صيانة التراث	فيصل يوسف العلي
٦	**مؤتمرات**/ مؤتمر حاجي خليفة الدولي.. رؤية تاريخية وأسئلة عصرية	تركي النصر
٨	**أخلاق**/ دسائس السوء.. وسوء الخاتمة	د. خالد راتب
١٠	**مقاصد**/ الإنسان بين العبودية والحرية	محمد الدش
١٢	**سير**/ ابن رشد الحفيد مفسرا	إسماعيل برو
١٤	**ملف العدد**/ قصف التراث الإسلامي	محمد شعبان
١٧	تدمير الكنز	د. خالد فهمي
٢٠	د. أيمن فؤاد: أكثر إنتاجنا التراثي منهوب ومفقود	عبدالله شريف
٢٤	التراث عند المستشرقين	د. مسعود صبري
٢٨	التراث.. إشكالية المصطلح والقراءة	السنوسي محمد
٣٢	التراث في أتون الحروب	علاء عبدالفتاح
٣٥	كنوز تاريخية مهددة بالضياع	سالو الحسن
٣٨	**دراسات**/ منهج الإسلام في إخماد الفتن	عبدالعلي الوالي
٤٢	إدارة الأزمات التعليمية	د. فرغلي هارون
٤٦	إزالة الاشتباه عند بعض الآيات المتشابهات	د. أحمد شرشال
٥١	**تاريخ**/ جذور الأميركيين السود الإسلامية	السيد عبدالمحكم
٥٤	**لغة وأدب**/ القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٣٢)	عبدالله أيت الأعشير
٥٦	وقت مستقطع	مياسة النخلاني
٥٨	عم جابر الخياط	أيمن عبدالسميع
٥٩	ألق الضياء	محمد نور العلي
٦٠	عثرات الأقلام (١)	التحرير
٦٢	**مقدمة الكتب**/ جامع الأصول لابن الأثير	عبادة نوح
٦٦	**استطلاع**/ أرسيكا.. منارة فكرية جديدة	تركي النصر
٦٨	**أسرة**/ أطفالنا والتكنولوجيا الترفيهية	د. آندي حجازي
٧٢	مؤسسات الإرشاد الزواجي	منى الشريف
٧٤	اللعب في حياة الطفل عبث.. أم استكشاف؟!	صبحة بغورة
٧٦	**تاريخ**/ معاقل العلماء.. مرو	د. محمدي النورستاني
٧٩	**رثاء**/ الشيخ الحمصي في ذمة الله	د. محمد حسان الطيان
٨٠	**تحقيق**/ المسلمون في أروبا .. اضطهاد متزايد	دار الإعلام العربية
٨٤	**الوعي الحضاري**	د. عمرو عبدالكريم
٨٨	**كنوز الذاكرة**	التحرير
٩٠	**النوازل**	د. محمود الكبش
٩٢	**ينابيع المعرفة**	التحرير
٩٤	**بريد القراء**	التحرير
٩٨	**مسك الختام**/ في إحياء المراجعات الفقهية	الحنفي المراد

كلمة العدد

التراث.. عز الأمة

التراث هو الوجه المشرق للأمة، ومن دون هذا الإشراق؛ يسقط قدر الأمة، وينسى تاريخها، وتهون على أبنائها قبل أن يحتقرها أعداؤها. والداهية الكبيرة التي تصيب الأمة في حال تضييعها لتراثها؛ أنها قد ترتبط شعوريا بثقافة غيرها، بما تحمله الثقافة الدخيلة من معاول هدم لبنية أخلاقها وتقاليدها.

وحتى تبني الأمة نهضتها التراثية بناء جادا خاليا من أسباب السقوط والتعثر، ينبغي أن تكون عملية إحياء التراث ونقله إلى الأجيال المعاصرة مدروسة بعناية واقتدار، وعلى أيدي المتخصصين الأكفاء، ذلك أن احتمال الغلط أو التحريف المتعمد للقيم التراثية، يسيء إساءة بالغة إلى النص التراثي، ويضيف تشويها جديدا إلى حلقة من حلقات العلم في تاريخنا المجيد، كما أنه يعتبر أجل خدمة يمكن تقديمها إلى الغزو الثقافي الذي يزحف نحو أمتنا وديننا.

من اللازم الواجب أن يكون القائم على أمر التراث - دينيا كان التراث أو علميا أو أدبيا - ثقة، مأمون الجانب، حريصا على الارتكاز في عمله العظيم على جذوره العقدية الصحيحة، ومن دون ذلك لن يكون الدوران حول التراث إلا تشويها منظما، وتخريبا مقصودا، ولن يثمر أبدا في دفع عجلة الأمة نحو عزها ومجدها ورفع راية تقدمها.

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

«الوعي الإسلامي» شهدت فعالياته المختصة بالببليوغرافيا وتصنيف العلوم:

مؤتمر حاجي خليفة الدولي.. رؤية تاريخية وأسئلة عصرية

تركي محمد النصر
تصوير: هدايت الله نثار

سلط مؤتمر حاجي خليفة الدولي - الببليوغرافيا وتصنيف العلوم في الحضارة الإسلامية (الرؤية التاريخية وأسئلة العصر)، الذي انعقد في العاصمة التركية إسطنبول على مدى ثلاثة أيام (٦ - ٨ مارس ٢٠١٥)، الضوء على علم الببليوغرافيا الإسلامية، وفلسفة تصنيف العلوم وتطبيقاتها، والجدل القائم بينهما، علما بأن هذين النشاطين العقليين الرفيعي المستوى ميزا الحضارة الإسلامية باكرا، وحققت بواسطتهما أغراضا علمية غالية دفعت البحث العلمي إلى الأمام؛ فكان التوثيق الذي يحفظ، والتراكم المعرفي الذي يبني، والحفز الذي يضيف ويفتح آفاقا جديدة أمام العقل الإنساني والجماعة البشرية.

ويسمى المؤتمر باسم المؤرخ والعالم الموسوعي حاجي خليفة، النموذج اللافت للعقلية الإسلامية في تعاملها مع المعرفة، وبكتابه الشامل «كشف الظنون» الذي يمثل ذروة نضجها في التأليف الببليوغرافي. وقد شاركت مجلة «الوعي الإسلامي» في المؤتمر بدعوة كريمة من معهد المخطوطات العربية، ومركز البحوث الإسلامية (isam)، ومركز إسطنبول للبحث والتعليم (isar).

وقد اشتملت الجلسة الافتتاحية على ثلاث كلمات للمؤسسات الثلاث، وقد أكد د. فيصل الحفيان مدير معهد المخطوطات العربية، في كلمة ألقاها، اهتمام «الألكسو» وجهازها المتخصص (معهد المخطوطات العربية) بالقضايا الحضارية التي لابد أن يتقاطع فيها الماضي مع الحاضر.

أهداف المؤتمر

ناقش المؤتمر ثلاث قضايا، اثنتان منها تاريخيتان، الأولى: الببليوغرافيا الإسلامية في تطورها وعلاقتها العضوية بمبحثي: تصنيف العلم، وتاريخ العلم ثلاثية في غاية الأهمية، سواء للتأصيل، أو للتحديث. والثانية: حاجي خليفة في تمثيله للثلاثية المشار إليها، وأيضا في ما يمكن أن نقوم به تجاه تراثه، وبخاصة الببليوغرافي منه.

أما الثالثة: ففيها نلتحم بالمشهد المعرفي الذي نعيش تعقيداته وثوراته، مستعينين بالرصيد التاريخي للببليوغرافيا الإسلامية وتاريخ العلم الإسلامي، لننظر في جدوى تطبيقات هذا الرصيد وحدوده وأبعاده المختلفة.

ثمرة الشراكة العلمية

أتى مؤتمر حاجي خليفة الدولي - الببليوغرافيا وتصنيف العلوم في الحضارة الإسلامية، ثمرة لشراكة علمية بين معهد المخطوطات العربية و«isar» و«isam» اللذين يعدان من أهم مراكز البحوث التركية. وكان المعهد قد وقع اتفاق تعاون معهما على هامش إحدى الدورات التدريبية التي أقامها المعهد بالتعاون مع «isam».

وقال مدير الخزانة الملكية أحمد شوقي، إن نشأة علم الببليوغرافيا في أوروبا ترجع إلى بدايات العصر الحديث، وإذا كان العلم حديث العهد، فإن المصطلح قديم. فقد كانت الببليوغرافيا في العصر القديم تعني كتابة الكتب، وأصبحت، بعد التطور الذي عرفته العلوم في الغرب في القرن التاسع عشر، تعني الكتابة عن الكتب. ومنذ القرن السادس عشر للميلاد بدأت تظهر مؤلفات في الموضوع باستعمال اللفظ أو من دونه، ككتاب المكتبة الدولية Bibliothéca Universalis الذي وضعه العالم والطبيب السويسري C. Gessner، المتوفى عام ١٥٦٥م، الذي نشأ على يديه، والذي أطلق عليه الببليوغرافيا الدولية العامة، وتعني

رئيس التحرير مع مجموعة من المشاركين بالمؤتمر

باختصار: سرد الكتب الخاصة بكل فن من الفنون في عدد من اللغات وفي كل أنواع المعرفة.

في المقابل، أوضح أيمن فؤاد سيد أن التدوين في الحضارة الإسلامية بدأ مع نهاية القرن الهجري الأول في شكل صحف مشتملة على بعض أحاديث رسول الله ﷺ. لكن التدوين الحقيقي للحديث وتصنيفه، وكذلك المدونات الأولى في المغازي والسير، لم يبدأ إلا في العقود الأولى للقرن الثاني الهجري عند نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي. وتشير المصادر إلى عدد من علماء الحديث وصفوا بأنهم «أول من صنف الكتب» أو «أول من صنف الحديث». ومن أوائل هؤلاء المصنفين: ابن جريج في مكة، ومعمر بن راشد في اليمن، وهشام بن حسان وسعيد بن أبي عروبة في البصرة، وسفيان بن عيينة في الكوفة.

بدوره، قال د. عبدالحكيم الأنيس إن الحاج خليفة علم من أعلام الثقافة الإسلامية، يتردد اسمه في مراكز البحوث، وأروقة الجامعات، وقاعات الدرس، ومكاتب الباحثين.. ترك ثروة علمية مقدرة في مجالات علمية متعددة، دلت على نبوغ كبير، على الرغم من قصر عمره.

حاجي خليفة.. العلامة المؤرخ

يعد العلامة المؤرخ مصطفى بن عبدالله القسطنطيني، المعروف بـ «حاجي خليفة»، المولود سنة ١٠١٧هـ، عالما موسوعيا، ونموذجا لافتا للعقلية الإسلامية في تعاملها مع المعرفة، وكتابه «كشف الظنون» يمثل ذروة نضجها في التأليف الببليوغرافي.

أرخ للبلدان وجغرافيتها، وللدول ورجالاتها، وللمؤلفين ومؤلفاتهم، ولايزال إنتاجه العلمي في التاريخ والتراجم مصدرا في غاية الأهمية، لا يستغني عنه باحث إلى اليوم.

ولد في عصر كانت فيه الدولة العثمانية في أوج عظمتها، وعلى الرغم من وفاته في سن مبكرة (سنة ١٠٦٨هـ)، فإن تراثه العلمي يضعه في سدة الببليوغرافيين وكتاب التاريخ والتراجم. وتبين مقدمة الكشف الرائعة عن سعة إدراكه لحقائق العلم، وتدل على ثقافته الواسعة، وعلى ما بذله من جهد في إنجاز كتاب صرم من أجله عشرين عاما من حياته. وليس (الكشف) وحده، فله – كما يعرف الباحثون – عشرون كتابا، منها:

(سلم الوصول إلى طبقات الفحول).

(فذلكة) في تاريخ الإسلام العام.

(جهان نما) في مظهر العالم في الجغرافيا، وهي لا تقل أهمية عن (الكشف). ومما يؤسف له أن هذا التراث لم يلق العناية التي يستحقها حتى الآن.

محاور المؤتمر

ضم المؤتمر ٦ محاور هي:

١- الببليوغرافيا وتصنيف العلم.

٢- تاريخ الببليوغرافيا الإسلامية وأسئلتها.

٣- حاجي خليفة: الرجل والعالم.

٤- تراث حاجي خليفة.

٥- كشف الظنون.

٦- إحياء تراث حاجي خليفة.

المشاركون في المؤتمر

دعي إلى المشاركة في المؤتمر نخبة من العلماء والباحثين من مختلف الدول الإسلامية، شاركوا بـ ٣٣ بحثا، ومنهم: أحمد شوقي بنبين (المغرب)، فيصل الحفيان (سوريا)، محمد عبدالوهاب جلال (مصر)، أيمن فؤاد سيد (مصر)، هاشم فرحات (السعودية)، صاحب عالم الأعظمي الندوي (الهند)، عبدالقادر بوشيبة (الجزائر)، بن علوي هواري (الجزائر)، يوسف الصديقي (قطر)، عبدالله الرشدي (المغرب)، مراد تدعوت (مصر)، محمد آيدن (قطر)، أسامة غريب عبدالمعطي (مصر)، بالإضافة إلى مشاركات من كندا وجنوب إفريقيا وأميركا وإسبانيا.

التوصيات

واختتم المؤتمر بجلسة استشرافية، خلص خلالها المجتمعون إلى مجموعة من النتائج والتوصيات، ومنها:

- إحياء تراث حاجي خليفة المخطوط.
- إعادة نشر كتاب «كشف الظنون» نشرة علمية محكمة.
- إنشاء موقع إلكتروني متخصص تشرف عليه المؤسسات الثلاث.
- عقد مؤتمر حول تصنيف العلوم بين الحضارة العربية الإسلامية والغربية، يكون محوره طاشكبري زادة، باعتبار مؤلفه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» ذروة تصنيف العلوم عند المسلمين.

دسائس السوء وسوء الخاتمة

د. خالد راتب
دكتواره في الشريعة

من حسنت بدايته حسنت نهايته، ومن طهرت سريرته حسنت خاتمته، وإن صلاح الظاهر نتيجة حتمية لصلاح الباطن، وصلاح العلانية نابع في أغلب أحيانه من صلاح السر، والقلب إما أن يكون كالصفا، ناصع البياض، مملوءا بالتقوى والإيمان، وصفات الخير، وإما أن يكون أسود، مملوءا بالكفر والنفاق وصفات الشر.. وإما أن يختلط فيه المادتان، مادة إيمان ومادة كفر أو عصيان.. وما يغلب على القلب يحكم له به، وقد يرى الإنسان طائعا مخبتا، وقلبه فاجر فاسد، قد دست فيه دسائس السوء الخفية من النفاق.

يقول ابن رجب: (ودسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة، وقد كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، فقيل له: يا نبي الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ فقال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله - عزوجل - يقلبها كيف يشاء») (١).

ودسائس السوء موطنها القلب المريض أو الميت، وتظهر فضائح هذه الدسائس الخفية عند سكرات الموت، عندما يعجز صاحب الدسيسة السيئة أن يتلفظ بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، عندما تخرج روحه، وكأنها تخرج من سم الخياط، لا تفتح لها أبواب السماء، وما لها من شفيع ولا نصير، ويوم القيامة يبدو له من الله ما لم يحتسب، يقول صاحب مفاتيح الغيب: «ويوم القيامة تظهر الفضائح، ويظهر لمن خالف ظاهره باطنه، ما لم يكن يحتسب، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الزمر: ٤٧)... أي ظهرت لهم أنواع من العقاب، لم تكن في حسابهم». وكما أنه ﷺ قال في صفة الثواب في الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، فكذلك في العقاب حصل مثله، وهو قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الزمر:٤٧). (٢)

وهذه الدسائس كالسرطان تدمر وتخرب

ومن أخطر هذه الدسائس:

١- النفاق: كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من السلف يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم منه؛ لأن المؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب عليه عند الخاتمة، فيخرجه إلى النفاق الأكبر، لأن النفاق الأكبر من أسباب سوء الخاتمة (٣).

وقد ذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لحذيفة رضي الله عنه: «نشدتك بالله هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم؟» - يعني من المنافقين - قال: «لا، ولا أبرئ بعدك أحدا» (٤). وقال عبد الله بن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ وسلم، كلهم يخاف النفاق على نفسه، وما منهم من أحد يقول: إن إيمانه على إيمان جبريل وميكائيل (٥).

فإذا كان الصحابة الذين حققوا الإيمان قولا وعملا، وشهد لهم الله ورسوله بذلك يخافون على أنفسهم من دسيسة النفاق، فكيف بغيرهم؟

٢- المكر والخديعة: ومن دسائس السوء التي تؤذن بخاتمة السوء: المكر والخديعة، كما أن المكر والخديعة يسببان العقاب الدنيوي قبل الأخروي، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (النحل:٤٥)، وقد قال ﷺ: «والمكر والخديعة في النار» (٦). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «المؤمن غر كريم (٧)، والفاجر خب (٨) لئيم» (٩).

٣- الكبر والعجب: الكبر والعجب مرضان خطيران، وهما سبب في البعد عن الله وتدبر آياته، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ (الأعراف:١٤٦). ويفهم من مفهوم المخالفة في الآية: أن المتواضع لله جل وعلا يرفعه الله. وقد أشار تعالى إلى مكانة المتواضعين له عنده في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ (الفرقان:٦٣)، وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص:٨٣).

وقد قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهه
على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه
إلى صفحات الجو وهو وضيع

٤- الحسد والحقد: الحاسد والحاقد يطعنان في الإيمان بالقضاء والقدر، والإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان، وإن مات الحاقد والحاسد على ذلك، فقد يختم لهما بسوء الخاتمة؛ لذا عد ابن القيم الحسد من أركان الكفر، حيث قال: «أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة... فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فإنه يكره نعمة الله على عبده، وقد أحبها الله، وأحب زوالها عنه، والله يكره ذلك، فهو مضاد لله في قضائه وقدره،

ومحبته وكراهته، ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة؛ لأن ذنبه كان عن كبر وحسد، فقلعُ هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده، والرضا به وعنه، والإنابة إليه...». (١٠)

الطريق الناجع لعلاج دسائس القلوب

١- معرفة الله - عزوجل - حق المعرفة واللجوء إليه، والاستعانة به في تحقيق العبودية الكاملة لله، قلبا وقالبا؛ لتكون حياتك كلها دائرة في فلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة:٥).

٢- الإلحاح في الدعاء: كما يستعان على تطهير القلب من دسائسه بكثرة الإلحاح في الدعاء، بأن يثبت الله قلبك على الإيمان، وألا يزيغه عن طريق الهداية، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء، فإذا أراد أن يقيم قلبا أقامه، وإذا أراد أن يزيغ قلبا أزاغه، وإن من زيغ القلب طلب الدنيا بالآخرة، وحب الرياسة والظهور، والتعالي على خلق الله.

٣- عدم الاكتراث بالدنيا الفانية، فإنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فمهما أخذته من حطامها، وما حصلت عليه من مناصب ووجاهات، فما قدر كل ذلك من جناح البعوضة، ولو دامت الشهرة والمناصب لغيرك ما وصلت إليك، وأهل الكرامة والعزة من رفعه الله، لا الذي رفعته المناصب والدنيا.

٤- الاهتمام بأعمال القلوب، فهي محل نظر الله، فإذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ (الشعراء ٨٨- ٨٩)، وقال ﷺ: «... ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (١١).

٥- مجاهدة النفس، حتى تهذب من دسائس القلب، والتي من جملتها الرغبة في الصدارة أو المنصب، وكذلك الطمع فيما في أيدي الناس، وحب الثناء أو المحمدة، وكذلك محاسبة النفس للوقوف على عيوبها، ثم التخلص من هذه العيوب.

٦- معرفة أخبار أصحاب القلوب المريضة التي لم تخلص وجهتها إلى الله، ومعرفة سوء عاقبتهم. فإن ذلك مما يساعد على تجنب هذا الداء، أو هذه الآفة، لئلا تكون العاقبة كعاقبة هؤلاء.

٧- الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الخلق مهما كانت قوتهم، ومهما كان سلطانهم، فإنهم عاجزون عن أن يجلبوا لأنفسهم نفعا، أو يدفعوا عنها ضرا، فضلا عن أن يملكوا هذا لغيرهم (١٢).

٨- إخلاص السريرة والعمل على نقائها، يقول وهب بن منبه: «يا بني أخلص طاعة الله بسريرة ناصحة، يصدق الله فيها فعلك في العلانية... ولا تظنن أن العلانية هي أنجح من السريرة، فإن مثل العلانية مع السريرة كمثل ورق الشجر مع عرقها: العلانية ورقها، والسريرة عرقها. إن نخر العرق هلكت الشجرة كلها، ورقها وعودها، وإن صلحت صلحت الشجرة كلها، ثمرها وورقها، فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير، ما كان عرقها مستخفيا، لا يرى منه شيء. كذلك الدين لايزال صالحا ما كان له سريرة صالحة، يصدق الله بها علانيته، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة، كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها، وإن كان حياتها من قبل عرقها، فإن فرعها زينتها وجمالها، وإن كانت السريرة هي ملاك الدين، فإن العلانية معها تزين الدين وتجمله، إذا عملها مؤمن، لا يريد بها إلا رضاء ربه عز وجل» (١٣).

الهوامش

١- انظر جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص ٣٢، والحديث أخرجه أحمد، ١١٢/٣ و٢٥٧، والترمذي (٢١٤٠).

٢- مفاتيح الغيب، ٢٤٩/٢٦.

٣- جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ١/ ١٧٤، و١٧٢.

٤- ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، ١٩/٥.

٥- البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، معلقا مجزوما به، ١/ ٢١.

٦- أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١١٠٧)، والطبراني في «الصغير»، (ص ١٥٣) و«الكبير» أيضا كما في «المجمع» (٧٩/٤)، وأبونعيم في «الحلية» (١٨٨/٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (ق ١٥/ ٢)، وقال الهيثمي: «ورجاله ثقات وفي عاصم بن بهدلة كلام لسوء حفظه». قلت: والمتقرر فيه عند أهل العلم أنه حسن الحديث، يحتج به. لا سيما إذا وافق الثقات. ولهذا قال المنذري في «الترغيب» (٣/ ٢٢): «إسناده جيد».

٧- غر كريم، أي: ليس بذي مكر، فهو ينخدع لانقياده ولينه (وهو ضد الخب)، يريد أن المؤمن المحمود من طبعه الغرارة، وقلة الفطنة للشر، وترك البحث عنه، وليس ذلك منه جهلا، ولكنه كرم وحسن خلق.

٨- «خب»: بفتح الخاء. وقد يكسر، وهو الساعي بين الناس بالفساد، مظاهره خلاف باطنه، وباطنه ما ينفر الناس عنه. كذا في «الشرح». «لئيم»: خلاف الكريم.

٩- أخرجه الترمذي، وقال الشيخ الألباني: حسن. انظر حديث رقم: ٦٦٥٣ في صحيح الجامع.

١٠- الفوائد، ١٥٨/١.

١١- أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات.

١٢- آفات على الطريق الدكتور: السيد محمد نوح، ١٤/٢.

١٣- حلية الأولياء، ٧٠/٤.

الإنسان بين العبودية والحرية

محمد الدش
كاتب دراسات إسلامية

من عظيم المنح الإلهية والعطايا الربانية أن يصير الكون، بما فيه ومن فيه، خاضعا منقادا لله تعالى، فسبحانه له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، فهو الخالق بقدرته وإرادته، المتصرف بحكمته ومشيئته، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. ولقد كان للإنسان في هذا الكون المنزلة العالية بما خص به من شرف العبودية لله عزوجل، بما تحمله هذه الكلمة من شرف الخضوع لله تعالى من ناحية، وشرف الغاية التي خلق الإنسان لأجلها من ناحية أخرى. والناظر في القرآن الكريم يلحظ - بجلاء تام - أن هذا الشرف الممنوح من الله لجميع خلقه لا يقف عند إنسان دون آخر، بل الكل في نوال هذه العطية سواء. لقد وصف الله عزوجل أنبياءه ورسله، عليهم السلام، إجمالا بالعبودية له تعالى، فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ (الصافات:١٧١-١٧٢)، وذكر بعضهم تفصيلا بتشريفهم بالعبودية له، فوصف سيدنا نوحا بقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإسراء:٣)، ويقول في سيدنا إبراهيم وبنيه: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ (ص:٤٥)، ويخبر القرآن الكريم في ثلاث آيات بمزيد من البيان والدلالة على عبودية المسيح، عليه السلام، لربه تعالى وأنه ليس إلها، وقد أنطقه الله بذلك ليكون مثلا وحجة على قومه، وبرهانا على قدرته تبارك وتعالى.

ووصف الله خاتم الأنبياء والمرسلين بالعبودية تكريما وتشريفا في كثير من آي الذكر الحكيم منها قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ (الفرقان:١). إنها أعظم صفة، فلو كان لرسول الله ﷺ صفة أشرف من ذلك لخصه الله بها في هذا المقام الشريف.. مقام الإخبار بإنزال القرآن الكريم والدعوة إليه.

ولما كان الإنسان مخلوقا مكرما، فضله الله تعالى على كثير ممن خلق تفضيلا، ومنحه من الحقوق التي تناسب ذلك التفضيل والتكريم، فقد وهبه حق الحرية، به يختار من المباحات ما يشاء.. من المأكل والملبس والمشرب. يحصل المال من حله بأي طريق شاء، يعمل في الخير ما يريد.. إلى غير ذلك من أموره الحياتية. وفي طليعة تلك الأمور، ترك لك أمر اختيار دينك

ابتداء، فلا يكرهك على الدخول في دين ما، ولكنه أقام الحجة على البشر، فأرسل الرسل، مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعدهم. وقد يحسب الإنسان أن حريته تأتي من التصرف على أي نحو يريده طالما أن عقله يقبل ذلك، أو أن نفسه موافقة له، أو أن طبعه يهواه.. كلا، فهذا تصور مغلوط لمفهوم الحرية التي أرادها الله لعباده، فالإنسان يفعل كثيرا من الأمور ظاهرها الحرية الشخصية وباطنها العبودية المقيتة، ثم يرفض العبودية الحقة لله تعالى، التي تمنحه حريته، وتفك عنه أغلاله، وتكسر قيوده.. العبودية لله تعالى هي التي تخلص الإنسان من عبادة الفكرة، وأسر الشهوة. وانظر، أخي القارئ الكريم، إلى واقعنا الذي نحياه، تجد أننا نعيش في زمن العبودية لا الحرية التي يتغنى بها الصغير قبل الكبير، نعيش في عالم؛ العبيد يصنفون فيه وفق ما يذلون له ويخضعون، فليس العبد هو من يذل لإنسان مثله يأمره وينهاه فحسب، بل يتعدى هذا المفهوم، ليوضح أن كل ما يسيطر على الإنسان ويجعله يدور حوله كما تدور الرحى فقد صار له عبدا يطيعه، وينقاد له، ويحركه يمنة ويسرة. ومن هذه الأصناف عبيد هذا الزمان.. عبيد الفكرة الباطلة، من لعب الشيطان برؤوسهم، وزينت لهم عقولهم القاصرة وأفئدتهم الخربة أنهم على الحق، وسمحوا لأنفسهم بالإعلان عن هذا الباطل بكل جرأة ووقاحة تحت اسم حرية الفكر والرأي، وقد وجدوا لأنفسهم منابر إعلامية تنشر أباطيلهم وافتراءاتهم، فأمثال هؤلاء ليسوا عبادا لله الذي منحهم حرية منضبطة بشرعه تعالى يمتازون بها عن السائمة.. وإنما هم عباد للشيطان الذي أمرهم بالفوضى والعشوائية حتى صاروا كالأنعام بل أضل، ثم يأتي عبيد الشهرة، الذين ضحوا في سبيلها بأغلى المبادئ وأنفس القيم ومعالي الخلق، ونسوا أنهم حين يعلنون أنهم أحرار فقد أخطأوا وأساءوا.. أخطأوا في فهمهم للحرية على أنها تعني الابتذال والإسفاف.. وأساءوا حين تعدت تصرفاتهم إلى الإضرار بالآخرين، فأذهبت بعض حيائهم وبدلت بعض أخلاقهم وآدابهم. وعلى الجانب الآخر، تجد عبيد اللذات والشهوات، يدورون في فلكها، تقيدهم حبائلها.. جامع للمال من حله وحرامه.. حريص عليه، بخيل به، دائما في خدمة الدينار والدرهم، يبذل في طلبه نفسه.. فهذا هو عبد المال، ثم يأتي صنف آخر من عبيد هذا الزمان وهم عبيد العادات السيئة التي لا يستطيعون لها فكاكا، وما أكثر هؤلاء! يعيشون عبيدا لعادات مرذولة وأخلاق مذمومة، ويحسبون أنهم أحرار. إن الحرية الحقيقية لا تكون إلا في العبودية الكاملة لله تعالى.. هي الطريق المستقيم والسبيل المنير، الذي يخلص الإنسان من رق الشبهات وأسر الشهوات.

ابن رشد الحفيد مفسرا

إسماعيل برو
كاتب وباحث

لا يختلف اثنان على أن ابن رشد من علماء الكلام والفلاسفة الكبار، الذين حازوا السبق في ميدان العلوم، ووضعوا بصمتهم في تاريخ الفكر الإسلامي. لكن الغريب في الأمر أننا لم نجد من العلماء أو المفكرين المسلمين من قرن ابن رشد بالقرآن والوحي! وكأن الرجل لم يتطرق إلى القرآن والسنة مطلقا، رغم أن كتبه طافحة بالاستشهادات القرآنية التي تنطق بذلك، خصوصا كتابه القيم «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة».

ترى كيف كانت علاقة ابن رشد بالوحي؟ وما هو المنهج الذي اتبعه في التعامل مع الآيات التي أتت في معرض الاستدلال خصوصا الأصول العقدية؟ أسئلة حاولنا الإجابة عنها في متن هذا المقال.

١- تفسير ابن رشد

من خلال استقرائنا لكتب ابن رشد نلحظ أن الرجل قد رشف من بحر التفسير، وإن لم يكن لابن رشد كتاب في التفسير كما هو معلوم، وقد ظهر ذلك جليا، خصوصا في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» الذي هو العمدة في هذا الباب من التفسير.

وقد تميز ابن رشد في تفسيره للآيات القرآنية، محاولا انتزاع المعاني الدقيقة والإشارات اللطيفة في نوع من الاختصار وعدم التفصيل الطويل، وقد تفوق في ذلك غاية التفوق، وهذا ما سنبينه بحول الله من خلال سوقنا لبعض الأمثلة من دون إطالة.

٢- نماذج من تفسيره للآيات

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب:٧٢)، فقد فسر ابن رشد الأمانة بالتأويل الصحيح «والتأويل الصحيح هي الأمانة التي حملها الإنسان فحملها، فأبى وأشفق منها جميع الموجودات، أعني المذكورة في قوله تعالى (الآية)» (١).

تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ (آل عمران:٧)، يقول ابن رشد عنهم وهؤلاء أهل الجدل والكلام.

وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيرا مما ظنوه ليس على ظاهره. وقالوا إن هذا التأويل هو المقصود به وإنما أتى الله به في صورة المتشابه ابتلاء لعباده واختبارا لهم. ونعوذ بالله من هذا الظن بالله (٢).

يرى ابن رشد في هذه الآية أنها أمر لأهل الراسخين في العلم لتأويل القرآن «وكأنه اعتبر الله والراسخين في العلم فقط يعلمون تأويل الكتاب. واعتبر ابن رشد الجزء الأخير من الآية ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ (آل عمران:٧) بداية كلام، بمعنى أن الراسخين في العلم هم الذين يعلمون تأويل الكتاب، على حسب رأيه، قالوا آمنا، وعلى هذه الحال يكون ابن رشد قد حصر حق التأويل في العلم. أما إذا وقفنا عند لفظ الجلالة الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (آل عمران:٧)، ثم اعتبرنا بداية كلام ما يأتي بعد ذلك، وهذا ما قرره أكثر علماء الفقه والقراءات المشهورة، يبقى الكلام أن ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ (آل عمران:٧)... فالشرط المميز لهذا الرسوخ قولهم آمنا به، دون أن يحاولوا التأويل خوفا من أن يكونوا ممن يبتغون الفتنة والتأويل ويكونوا من الذين في قلوبهم زيغ» (٣).

تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ (النبأ:٦)، يقول ابن رشد في تفسير هذه الآية «وذلك أن المهاد يجمع الموافقة في الشكل والسكون والوضع، وزائدا إلى هذا معنى الوراثة واللين. فما أعجب هذا الإعجاز! وأفضل هذه الاستعارة! وأغرب هذا الجمع! وذلك أنه جمع في لفظ «مهاد» جميع ما في الأرض من موافقتها لكون الإنسان عليها» (٤).

من خلال تفسير ابن رشد لهذه الآية يظهر جليا تعلق ابن رشد بكتاب الله وإعجابه بجمالية وأسلوب النص القرآني إلى حد الانبهار، مما يدل على أن الرجل يمتلك نفسا لغويا كما امتلكه اللغويون والمفسرون، كيف لا ومعرفة اللسان العربي هي المدخل الأساسي لفهم النص القرآني وإظهار معانيه.

يرى ابن رشد أن الناس ينقسمون إلى نوعين: النوع الأول مؤهل لمعرفة حقيقة الأشياء، ويتكون من أهل التأويل أو الفلاسفة الراسخين في العلم. أما النوع الثاني فهو جميع الناس، بمن فيهم أهل الجدل؛ لأنهم ليسوا علماء، ومعرفتهم للأشياء تبقى معرفة ظنية.

هذه النماذج من الآيات التي فسرها ابن

رشد، والتي تتناول في معظمها المسائل العقدية والكلامية لأن المقام يقتضي ذلك، فقد لاحظنا كيف يسوقها ابن رشد للدلالة على صفات الله وأفعاله، ورغم اعتقاده بأن الطريق إلى معرفة البارئ عزوجل هو طريق القرآن، إلا أنه يتجاوز الدليل القرآني ليغوص في معاني الصفات والأفعال، بنفس عقلي حجاجي عقدي.

وهو بذلك لم يشذ عن مناهج المتكلمين في تعاملهم مع الآيات القرآنية، رغم أن مشروعه هو نقد منهجي لأدلة المتكلمين في عقائد الدين، هذا النقد استمده من القرآن نفسه.

ورغم أن ابن رشد نهج منهج التأويل في تفسير الألفاظ التي لا يمكن حملها على ظاهرها فإنه كان يتبع قواعد التفسير المعروفة ولا يتعسف باستخدام التأويل بإدخال تأويلات بعيدة عن الجو البياني للآيات القرآنية وإنه يفسر تلك الآيات كما هو المتبادر في فهمها في أول نظرة. وهو يرى أن تلك الطريقة هي الطريقة المثلى في فهم معاني الآيات القرآنية، لذلك فهو يطلق على هذه الطريقة اسم «الطريقة النظرية»، وهي التي أمر الله تعالى بها الناس في كتابه الكريم، لأنهم يدركونها بنظرهم وهي طريقة الجمهور والخواص معا، فالجمهور يفهمون ظاهرها والخاصة من العلماء والحكماء يتعمقون في معانيها.

٣- منهج ابن رشد في تفسير القرآن

تفسير القرآن بالقرآن

من المعلوم أن القرآن يفسر بعضه بعضا، والأمثلة على ذلك من القرآن كثيرة ومتعددة، فما أجمل في آية فصل في آية أخرى...

ولقد نهج ابن رشد في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» هذا النهج، واعتمد طريقة تفسير القرآن بالقرآن غير مرة في معرض الاستدلال بالآيات القرآنية.

- ففي معرض القول بالتنزيه يسوق الآية من كتاب الله العزيز: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى:١١) وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ (النحل:١٧)، قال ابن رشد: «هي برهان قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾، وذلك أنه من المغروز في فطر الجميع أن الخالق يجب أن يكون إما على غير صفة الذي لا يخلق شيئا...» (٦).

- وقد يعرض أحيانا الآيات التي تشترك مع الآية المفسرة (أي التي استدل بها) لبيان أوجه الاشتراك في المعنى مثاله ما صرح الشرع به من نفي صفات المخلوق عنه، ومن صفات النقائص الموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ (الفرقان:٥٨)، يقول ابن رشد: «ومنها النوم وما دونهما يقتضي الغفلة والسهو عن الإدراكات، والحفظ للموجودات وذلك مصرح به في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة:٢٥٥) ومنها النسيان والخطأ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ (طه:٥٢)» (٧).

- ولا يقتصر في معرض استشهاده بآية واحدة وإنما يعضدها بآيات أخرى، مثاله في آية القدر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (القمر:٤٩)، وقوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ (الرعد:٨)، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ (الحديد:٢٢) (٨).

- ثم يأتي بالآيات التي يعارض بعضها بعضا فيقول: «وربما يظهر في الآية الواحدة التعارض في هذا المعنى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ (آل عمران:١٦٦)، ثم قال في هذه النازلة بعينها: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران:١٦٦)، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء:٧٩) وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ (النساء:٧٨)» (٩).

هذه الآيات اختلف المسلمون فيها وافترقوا إلى فرقتين: «فرقة اعتقدت أن اكتساب الإنسان هو سبب المعصية والحسنة، وأنه لما كان هذا ترتب عليه العقاب والثواب، وهم المعتزلة. وفرقة اعتقدت نقيض هذا، وهو أن الإنسان مجبور على أفعاله ومقهور، وهم الجبرية» (١٠).

ختاما يتبين أن ابن رشد الحفيد انطلق في مشروعه الفكري من الوحي، وقد توسل به لتحقيق ما يصبو إليه محاولا الرد على المخالفين عموما، وإبطال مزاعمهم وأقوالهم المخالفة للحكمة.

الهوامش

(١) ابن رشد، فصل المقال وتقرير بين الشريعة والحكمة من الاتصال، تحقيق: عبدالمجيد همو، دار معد، دمشق، ط: الأولى، ص:١٢٦.

(٢) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تعليق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط: الأولى، س:٢٠٠٢م ص: ٦٩+٧٠.

(٣) عبدالمجيد همو، تعليق في فصل المقال لابن رشد، ص:٣١،٣٢.

(٤) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:٨٧.

(٥) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:١١٦.

(٦) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:٥٨.

(٧) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:٥٩.

(٨) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:١٠٧.

(٩) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:١٠٨.

(١٠) نفسه، ص:١٠٩.

قصف التراث الإسلامي!

محمد شعبان أيوب
باحث متخصص في التاريخ

إن التراث هو تلك الآثار المكتوبة الموروثة التي حفظها لنا التاريخ كاملة أو مبتورة، فوصلت إلينا في صورة كتب مخطوطة أو لفائف أو كراسات، وليس هنا حدود معينة لتاريخ أي تراث كان؛ فكل ما خلفه المؤلف بعد حياته من نتاج يعد تراثا فكريا (١).

لكن التراث الإسلامي تعرض لنكبات حقيقية ومفصلية في تاريخه الطويل. إننا يمكن أن نرجع لأول مصادر القوائم «الببليوجرافيا» التي كتبت باللغة العربية، وهو كتاب «الفهرست» (٢) لمحمد بن إسحاق النديم الذي ألفه سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م، جامعا فيه أسماء معظم الدراسات التي كتبت في عصره في مركز العاصمة العباسية بغداد في مجالات الدراسات الشرعية واللغوية والنحوية والأدبية والصوفية، والمصنفات العامة والفرق والمذاهب والعلوم البحتة، لنرى أنه أحصى ٨٣٦٠ كتابا لـ ٢٢٣٨ مؤلفا حتى الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري، لم يصلنا منها سوى من ١٠ إلى ٢٠ في المئة، على الأكثر، طبقا لما ذكره محقق الفهرست العلامة الدكتور أيمن فؤاد سيد في سلسلة محاضرات عن «المخطوطات العربية» سمعتها عنه في «معهد المخطوطات العربية» بالقاهرة، في نوفمبر ٢٠١٣م.

وقد قاس على ذلك أساتذة المناهج التراثية والمخطوطات أن تراثنا الإسلامي في المجالات المختلفة لم يصلنا منه إلا الخمس تقديرا، مما يعني أن أكثر من ٨٠ في المئة من تراثنا لا يزال مفقودا!

وعلى الرغم من ذلك فإن ثمة بعض الإضاءات والمجهودات الجبارة التي حاولت - ولا تزال - إحياء التراث الإسلامي المخطوط من خلال فهرسة المخطوطات وترميمها وحفظها في كل المكتبات والمعاهد العلمية المتخصصة في هذا المجال، ولعل أشهر مؤلفين قاما بجمع مظان التراث العربي المخطوط في مكتبات العالم تمثلا

في «تاريخ الأدب العربي» للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، الذي حظي كتابه - ولا يزال - باهتمام الباحثين في الدراسات التراثية، وكتاب العلامة التركي فؤاد سزجين، الذي استدرك ما فات بروكلمان في كتابه «تاريخ التراث العربي»، وقد جاء في عشرة أجزاء نال صاحبها جائزة الملك فيصل العالمية لمجهوده الجبار في هذا الكتاب، حيث توقف - للأسف الشديد - عند سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م.

نعود فنقول إن المأساة التي نكبت بالتراث الإسلامي ترجع لعدة أسباب سياسية واقتصادية وعسكرية وفكرية في مجملها، وقد اتخذت أشكالا متنوعة في التاريخ الإسلامي وفي العصر الحديث.

يمكن من خلال التأمل في حادثتين مهمتين في تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق والأندلس أن نكشف الأسباب التي دفعت إلى القضاء على شطر كبير من التراث الإسلامي، وهما:

١- الصدام العسكري الذي قام به المغول في بلاد المشرق الإسلامي، مثل: مرو وخوارزم. قال المؤرخ الأميركي ول ديورانت: «كان المغول يضعون الأسرى في مقدمة جيوشهم ويخيرونهم بين قتال مواطنيهم من أمامهم أو قتلهم من خلفهم. وفتحت مرو خيانة، وأحرقت عن آخرها، ودمرت في اللهب مكتبتها التي كانت مفخرة الإسلام (٣)، فضلا عن إشراف وزيرهم نصير الدين الطوسي في بغداد على عملية نهب منظمة لمكتبات بغداد، قال الصفدي (ت٧٦٤هـ): «فابتنى بمدينة مراغة قبة ورصدا عظيما، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء، وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، حتى تجمع فيها زيادة على أربع مئة ألف مجلد» (٤).

٢- الصدام الحضاري والديني الذي قام به الإسبان مع التراث الأندلسي؛ فقد «أبدت السياسة الإسبانية اهتماما خاصا بالقضاء على تراث الأندلس الفكري، وبدأت بارتكاب فعلتها الشائنة في سنة ١٤٩٩م أعني لأعوام قلائل من سقوط غرناطة، فجمعت الكتب العربية، وأحرقت بأمر الكردينال خمنيس حسبما فصلنا من قبل، ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية صغيرة من الكتب العربية، جمعت فيما بعد من مختلف الأنحاء، وأودعت أيام فيليب الثاني في قصر الإسكوريال على مقربة من مدريد، وحجبت عن كل باحث ومتطلع. وفي أوائل القرن السابع عشر، وقع حادث كان سببا في مضاعفة المجموعة العربية الإسبانية. ذلك أن السفن الإسبانية استطاعت أن تأسر مركبا مغربية لمولاي زيدان ملك المغرب كانت مشحونة بالكتب ومختلف التحف، ومن جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك» (٥). وتضع الرواية الإسبانية تاريخ هذا الحادث في سنة ١٦١٢م في عصر فيليب الثالث، وذلك حينما اشتد اضطراب العلائق بين إسبانيا والمملكة المغربية. وقد حملت هذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية إلى إسبانيا، وأودعت قصر الإسكوريال، إلى جانب بقية التراث الأندلسي التي كانت مودعة فيه منذ أيام فيليب الثاني. وكانت مجموعة مولاي زيدان المغربية تحتوى على عدد كبير من الكتب الأندلسية التي كثر استنساخها، «اقتنائها بالمغرب، بعد سقوط غرناطة. ولبثت هذه المجموعة من المخطوطات العربية الأندلسية مودعة بمكتبة الإسكوريال الملكية حتى أواسط القرن السابع عشر، وكانت تبلغ يومئذ عدة آلاف، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها بإسبانيا. ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس. ففي سنة ١٦٧١م شبت النار في الإسكوريال، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد، ولم ينقذ منه سوى ألفين، هي التي مازالت تثوى حتى اليوم في أقبية مكتبة الإسكوريال التي يشرف عليها الآباء الأوغسطنيون. وكانت الحكومة الإسبانية أثناء هذه العصور تحرص على إخفاء الآثار العربية عن كل قارئ» (٦).

الغارة على التراث حديثا

أما الغارة على التراث الإسلامي حديثا، فاتخذت منحى آخر، لم

يكن بالاستيلاء على المخطوطات الإسلامية بالسرقة فقط، كما فعل المستشرقون ولصوص المخطوطات الإسلامية من قراصنة الغرب الثقافي، وإنما بأداة أشد نكاية، تمثلت في لي عنق هذا التراث والهجوم عليه بلا هوادة من المدرسة العلمانية بفرعيها الليبرالي واليساري.

وفي كتابه «شهادة العصر والتاريخ» يقرر الأستاذ أنور الجندي ذلك، بعد رحلة عطاء في مجال الفكر الإسلامي بلغت خمسين عاما، بقوله: «تكشفت لي أبعاد هذه المؤامرة الخطيرة، التي بدأها مخطط عنوانه «حرب الكلمة»، وذلك بعد هزيمة الغرب في الحروب الصليبية، في دعوة عريضة للعمل على إعلان حرب تقوم على تزييف مفاهيم الإسلام وتدمير قيمه؛ وذلك عن طريق التأويل والتمويه في محاولة لإخراج الإسلام من ذاتيته الخاصة، وتميزه المتفرد» (٧).

لقد حمل لواء الهجوم على التراث الإسلامي زمرة من المستشرقين - لا نقول جل المستشرقين - الذين عكفوا بجد يحسدون عليه على التراث الإسلامي؛ قراءة واستيعابا وفهما وسفرا مضنيا، ليكتشفوا ما فيه، ويقدموه لأقوامهم. على أنهم قدموا لهم «أن هؤلاء العرب المسلمين هم في الأصل قوم بداة، جهال، لا علم لهم كان، جياع في صحراء مجدبة، جاءهم رجل من أنفسهم فادعى أنه نبي مرسل، ولفق لهم دينا من اليهودية والنصرانية، فصدقوه بجهلهم واتبعوه، ولم يلبث هؤلاء الجياع أن عاثوا بدينهم هذا في الأرض يفتحونها بسيوفهم، حتى كان ما كان، ودان لهم من غوغاء الأمم من دان، وقامت لهم في الأرض بعد قليل ثقافة وحضارة جلها مسلوب من ثقافات الأمم السالفة كالفرس والهند واليونان وغيرهم، حتى لغتهم كلها مسلوبة وعالة على العبرية والسريانية والآرامية والفارسية...» (٨). ويستطرد العلامة محمود شاكر رحمه الله في كشف طرائق هجوم هؤلاء المستشرقين على التراث الإسلامي، والإسلام ذاته، بخبرته المعهودة في المجال التراثي والاستشراقي على السواء.

لكن هؤلاء المستشرقين الكبار فرخوا لنا من أبناء جلدتنا مجموعات سارت على دربهم في النيل من التراث بلا هوادة، وساعدهم في هجومهم ذاك تملكهم لزمام وسائل الإعلام، ومنابر الثقافة في البلدان العربية والإسلامية، فصار ضجيجهم أقوى، وطنينهم يشوش على الناس فهمهم، ويخلخل لديهم الثقة في تراثهم.

إننا يمكن أن نلخص مظاهر الهجوم على التراث الإسلامي في العصر الحديث من خلال ثلاثة مظاهر جلية، وهي:

١- سرقة الاحتلال الغربي وأذرعه من المبشرين والمستشرقين للتراث الإسلامي من مخطوطات وتحف وذخائر (٩).

٢- الجهل بالتراث الإسلامي، روحا وفكرا ومصطلحات، بل وتحريفه من قبل كثير من المستشرقين (١٠).

٣- العداء للتراث الإسلامي من العلمانيين بكل أطيافهم: إما بالتأويل الحداثي المناقض لبنية التراث وأهدافه، أو بالهجوم المباشر والنيل منه بالسخرية والاستهزاء (١١).

لقد كان للعوامل السياسية والمذهبية والعسكرية والطبيعية، والصدام الحضاري بين المسلمين والمغول والمسلمين والصليبيين والمسلمين والبيزنطيين، فضلا عن سرقة المخطوطات الإسلامية في عصر الغفلة الذي انتاب الأمة المسلمة في القرون الأربعة الأخيرة، دوره في عملية قصف التراث الإسلامي، ولم يخرج الاحتلال من بلادنا إلا وقد زرع مجموعات «وظيفية» استكملت مهمة القصف والنيل من التراث الإسلامي: إما جهلا بالتراث أو عداء له. لكن على الرغم من هذه المحاولات العاتية المستمرة منذ قرنين على الأقل، فإن أجيالا جديدة من الباحثين المسلمين وطلبة العلم المجدين، صار لهم الفضل في الحد من هذا العدوان، بل وتفكيكه، على أن هؤلاء المدافعين في حاجة إلى الدعم المادي والمعنوي من الحكومات والأفراد.

الهوامش

(١) عبدالمجيد دياب، تحقيق التراث العربي؛ منهجه وتطوره، ص١٢، دار المعارف - القاهرة.

(٢) النديم، الفهرست، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن، ٢٠٠٩م.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، ٣٧٨/١٣، دار الجيل - بيروت، ١٩٨٨م.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ١٤٧/١، دار إحياء التراث - بيروت، ٢٠٠٠م.

(٥) السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ٧٠/٦، دار الكتاب - الدار البيضاء.

(٦) محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٠٤/٥، مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة - القاهرة، ١٩٩٧م.

(٧) أنور الجندي، شهادة العصر والتاريخ ص٣، دار المنارة، الطبعة الأولى - جدة، ١٩٩٣م.

(٨) محمود محمد شاكر، المتنبي «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، ص٥٩، ٦٠، دار المدني - جدة، ١٩٨٧م.

(٩) مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون.. ما لهم وما عليهم، ص١٩، دار الوراق للنشر والتوزيع.

(١٠) عبدالعظيم الديب، المستشرقون والتراث، ص٢٦ وما بعدها، دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الثانية - المنصورة، ١٩٩٢م.

(١١) إبراهيم بن عمر السكران، مآلات الخطاب المدني، ص١٢٩ وما بعدها، دار الوعي للنشر والتوزيع - الرياض، ١٤٣٥م. وللمؤلف نفسه: التأويل الحداثي للتراث.. التقنيات والاستمدادات، ص١٣٣ وما بعدها، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى - الرياض، ٢٠١٤م.

التراث العربي الإسلامي
من التهميش إلى السطو
تدمير الكنز

أ.د. خالد فهمي
أكاديمي بكلية الآداب - جامعة المنوفية

تراث الأمة هو عقلها، ودمها الذي به تحيا بين الأمم، وجماع خصائصها الحضارية والنفسية. إن هذا الصوت الذي أعلنه هنا صحيح من أي زاوية نظرت منها إلى تصور التراث، هو صوت صحيح إن رأيت التراث: منجزا فكريا تمثل في «الآثار المكتوبة الموروثة التي حفظها التاريخ كاملة أو مبتورة» على حد تعبير عبد السلام هارون في «التراث العربي، سنة ١٩٧٨م» لأنه يمثل مادة بناء العقل وتكوينه.

وهو صوت صحيح إن رأيت التراث: «حقيقة أكثر تعقيدا من أن نتصور أنها تبدأ عند مجموعة من أمهات الفكر». «إن التراث يجب أن يحمل على أنه كل ما تركه السلف للخلف... لابد وأن يتسع ليشمل الفكر والنظم والمؤلفات» على حد تعبير حامد ربيع في (مقدمة سلوك المالك (١٩/١)، لابن أبي الربيع)؛ لأنه جوهر الهوية، ومجمع العناصر الوراثية المنسربة في نفوسنا وتقاليدنا جميعا.

ولذلك فإن النظر إلى التراث من بوابة أنه أغلى الكنوز نظر مستقيم جدا، وصحيح ولازم.

البيئة البائسة

وهل البداية التي شهدت الميلاد المشؤوم لعمليات ما يمكن تسميته بتدمير الكنز، يمكن أن نؤرخ لها بتوزيعها على مراحل متعددة، وإن كانت متفاوتة الخطر، بطبيعة الحال.

أولا- لقد كانت البداية البائسة لتدمير الكنز مع هجوم المعتزلة الدموي على فهم السلف، أهل السنة، ميراث الصحابة والتابعين.

لقد نما كثير من الحشائش السامة بفضل البذور الكلامية التي تنكرت للفهم النقي الذي تركه النبي ﷺ في الأمة.

وكانت قمة المرحلة متجسدة في سياق المحنة التي خرج منها أهل السنة ظافرين حقيقة، لكن جسم الأمة بدا مثخنا ببقايا السم الذي اخترق جسمها مع سهام الأفكار المنحرفة.

ولعل أجلّ من ناقش هذه الآثار من المعاصرين هو إبراهيم بن عمر السكران في: (التأويل الحداثي للتراث: التقنيات والاستمدادات)، دار الحضارة، الرياض، سنة ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

ثانيا- مراحل الاجتياح المسلح الذي تعرضت له الأمة على مدار تاريخها الطويل، مع التتار، والصليبيين، والاحتلال الأوروبي الغربي، ثم الأميركي.

ثالثا- مرحلة سقوط الخلافة التي كانت أقسى المراحل التاريخية، والتي توحشت فيها صور تدمير الكنز، واتسعت آثاره المرعبة، وتنوعت لتطال مناطق تهميشه، وإسقاطه، وتشويهه، وسرقته، والإزراء به، وفقدان الثقة فيه، ومحاربته، ومحاصرته.

تجليات المحنة

لقد كانت هذه المراحل الممتدة التي صبت في نهر العصر الحديث محنة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وبكل ما يعلق بها من هوامش دلالية مادية ومعنوية معا.

ويمكن رصد تجليات هذه المحنة في رؤوس الأقلام التالية:

أولا- الاستهانة بالتراث، وما نتج عن ذلك من تهميش، وازدراء، وتجاوز وإهانة.

ويعد الأستاذ محمود شاكر رحمه الله أهم صوت صرخ بمخاطر هذه الاستهانة في العصر الحديث، حيث يقول في مقدمة تحقيقه لأسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني (ص:٢١): «والاستهانة داء وبيل، يطمس الطرق المؤدية إلى العلم والفهم»، ويقول (ص:٢١): «إن ذم التراث والاستهانة به كان أول صدع في تراث الأمة العربية الإسلامية، وأول دعوة لإسقاط تاريخ طويل». وظلت الاستهانة باقية الأثر في الناس إلى اليوم، حتى وصلت في بعض المناطق إلى اغتياله ماديا ومعنويا.

إن الهزيمة النفسية أمام الغرب هي التي ولدت في النفوس إهانة التراث.

ثانيا- انقراض غالب الأساتذة الكبار من المحققين، والمنظرين في ميدان تحقيق التراث، ونقد نشراته نقدا علميا دقيقا.

ثالثا- تحريم كثير من الجامعات في بعض البلدان العربية دراسة النصوص التراثية بغرض تحقيقها، ونشرها، والإزراء بهذا العمل العلمي.

رابعا- عدم الاعتداد بأعمال تحقيق التراث في عدد من أنظمة الترقية الأكاديمية في عدد من البلدان العربية.

خامسا- تقلص إسهام المؤسسات الرسمية في بعض البلدان العربية، وتراجعه في ميادين خدمة المخطوطات، وفهرستها، وتحقيقها، وما يستتبع ذلك من إهمال كثير من المخطوطات.

سادسا- عدم تدريس (تحقيق النصوص التراثية) في الأكاديميات العربية في الغالب.

سابعا- عدم العناية بقواعد علم تحقيق النصوص التراثية، وعدم العمل على إحيائها بعد أن فقدت الأدبيات الرائدة قيمتها، وأبدت عجزا عن مواجهة الأسئلة العميقة والكثيرة التي يطلقها البحث المعاصر حول عدد كبير من التفاصيل الدقيقة، لكثير من قضايا هذا العلم.

ثامنا- سرقة المخطوطات، وتهريبها للخارج، وهي الظاهرة التي يسميها الدكتور محمد عيسى صالحية باسم: «تغريب التراث العربي» في كتابه: (تغريب التراث العربي بين الدبلوماسية والتجارة: الحقبة اليمانية)، دار الحداثة، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٥م.

لقد كان مؤلما جدا أن يغيب عن الوعي الثقافي العربي أن كثيرا من الدوائر الدبلوماسية الغربية عرفت قيمة تراثنا، في الوقت الذي تتنامى فيه في بلادنا صور توحش الاستهانة به، وتأخير رتبته وقيمته، يقول محمد عيسى صالحية (ص:٥): «هان التراث، فضاعت الأرض، ورخص الإنسان، بكلمات بسيطة هذه هي مأساتنا في عصرنا، جاءوا مستعمرين مبشرين بنهضة بدعوى النهوض والارتقاء، فمارسوا على أمتنا سادية (تعذيبا مؤلما) تربو على إذلال عبيد روما، فأعملوا في تراثنا نهبا وسرقة».

تاسعا- التشويه

ومن جانب آخر فقد مارس نفر من المعاصرين لأغراض تجارية صورا من تشويه التراث، فأهانوه عند نشره، ولم يراعوا القواعد العلمية التي ترعاه، وترعى أداء نصوصه صحيحة، مخدومة، مكشفة.

واستعلن عمل عدد من دور النشر في هذا الميدان، تتحرك وقد فقدت ضميرها، وشوهت منجزا أفنى علماء الأمة أعمارهم مجاهدين في سبيل القيام به، وهو تشويه عرض هذا التراث، للظهور مملوءا بالأخطاء والفساد، والتحريف، والتصحيف.

وهو تشويه لا يقل عن التشويه الذي مارسه المحققون المستشرقون، عندما حرفوا عددا من نصوصه، وأسقطوا عددا آخر من هذه النصوص لأغراض دينية، واستعمارية، وحضارية.

إن هذه التجليات تمثل رؤوس أقلام كلية موجزة جدا، لكنها يمكن أن تتخذ مثالا على حجم المأساة، والمحنة التي يتعرض لها تراث الأمة منذ نحو قرنين على الأقل، وهي الحقبة الأشد مرارة، والأكثر ضراوة، والأعنف توحشا.

الخروج من بيت المحنة

هل ثمة آفاق للأمل؟

إن البكاء يحسنه كل أحد، وليس المقام مقام بكائيات تقام، ثم نذهب وقد تقرحت منا العيون، بغير عائد من عمل.

إنه إذا كان ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٧/٤) يقرر: أن فضيلة العلم في جواب السؤال، فإن فضيلة العمل والإيجابية والإيمان بهذا التراث تكمن في البحث عن آفاق تعين على كسر هذه البكائية، والخروج من بيت المحنة.

والحق أن ثمة أصواتا مهمة جدا يمكن أن تمثل بدايات جيدة للسير في اتجاه الانتصار للتراث، يمكن أن نجملها فيما يلي:

أولا- الدعوة إلى إحياء علم تحقيق النصوص التراثية، تجمع أدبياته المعاصرة، وتحللها وتنظم قواعدها، وتفصل القول فيما جاء سريعا مختزلا، قاصرا.

ثانيا- التوسع في المعاهد العلمية، ومساندة الجمعيات والمراكز الأهلية المعنية بدراسات التراث، والمخطوطات.

ثالثا- التوسع في دراسة منجز العلماء المعاصرين المتعاطفين مع المنجز التراثي لأعلام الأمة، وتقييم ما أنتجوه، والتركيز

في فحص المتبقي من بحوثهم.
وثمة أسماء مهمة جدا في هذا السياق من أمثال: يحيى العلمي، وعبدالسلام هارون، ومحمود شاكر، والألوسي، والكوثري، وإحسان عباس، وحامد ربيع وغيرهم، وهي أسماء جديرة بأن تكون بداية جيدة لفحص مفاهيم تحقيق التراث ودراسته، والإيمان به، وإحيائه، ونقده... إلخ.
رابعا- إعادة الاعتبار لدراسات التراث، وتحقيقه في البحوث الجامعية العليا، وبحوث الترقيات لأعضاء هيئات التدريس في الجامعات العربية، بعد توفير الضمانات العلمية اللازمة.
خامسا- إنجاز الاعتراف بما يمنحه معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية من شهادات علمية (دبلوم/ وماجستير) في مجال التراث وفهرسته، وتحقيقه.
سادسا- الدعوة إلى إنشاء أقسام علمية مستقلة لدراسات التراث العربي الإسلامي في الجامعات المختلفة.
رابعا- ضرورة التوقف عن اتهام التراث في الإعلام، والتصدي لصور الإزراء به.
ثامنا- الدعوة إلى عقد مؤتمرات دورية لمناقشة مشكلات التراث، ومجالات خدمته المعاصرة، واستراتيجيات استثماره، وتوطينه في الثقافة المعاصرة.
إن كثيرا من الأصوات المعاصرة استيقظت على التعاطف مع التراث، بعد أن وجدت الهجوم العنيف المتنوع على أوعيته، وأفكاره، وأعلامه، وبدا التوجه نحو مواجهة أشكال الاستهانة بالتراث، وفضح الممارسات القاتلة ضده تتكاثر، وهو أهم ملمح للأمل في المشهد الحالي.
وينضم إلى هذا الملمح المهم ملمح آخر مهم جدا، وهو عمل عدد من المؤسسات وإن كانت قليلة، على نشر الوعي العام بالتراث بما تنشره من نصوصه، توزعها على نطاق واسع جدا، مما سيسهم بالضرورة في خلق أجيال مؤمنة به.

استراتيجية المواجهة

ومن أكثر الأشكال الإيجابية على طريق استراتيجية مواجهة صنوف تدمير الكنز الموزعة على خريطة التهميش والسطوة وهو شكل مهم جدا له تأثيره الجيد في تكوين وعي قوي بقيمة التراث، وتعيد له وجاهة الارتباط به، نفسيا وعقليا وماديا.
وهذا الشكل يتمثل في استثمار بعض العناصر التراثية الواردة من علم المخطوط في عدد من الأجناس الأدبية المعاصرة ذات الحضور الثقافي، من مثل الرواية.
لقد لجأ عدد من الروائيين المعاصرين في الشرق والغرب إلى الاستمداد من علم المخطوط والتراث بعضا من العناصر، لدعم عدد من الوظائف الفنية والجمالية، والاقتصادية، والحضارية، والسياسية المتحققة، بما يبدعونه من روايات.
ومن مظاهر هذا الاستثمار للعناصر التراثية المستمدة من علم المخطوط في الرواية المعاصرة ما يلي:
أولا- استثمار مصطلح المخطوط في عناوين عدد من الروايات، بدافع جمالي وفني ونفسي وتسويقي معا، على ما نرى في عناوين الروايات التالية:
أ- مخطوطة ابن إسحاق، لحسن الجندي.
ب- مخطوطة وجدت في عكرا، لباولو كويلو.
ج- المخطوط القرمزي: يوميات أبي عبدالله الصغير آخر ملوك الأندلس، لأنطونيو جالا.
ثانيا- تصميم الرواية وفق تقنية الإيهام، أي: التلبيس على القارئ أن الرواية نص قديم ليس رواية، وإنما هو مخطوط عثر عليه محققه المعاصر، وأنه لم يفعل سوى نشره، وهي تقنية لجأ إليها عدد من الروائيين المعاصرين، لأغراض سياسية ودينية تتعلق بمحاولة كسر حدة المواجهة للروائي الذي يريد أن يدخل إلى نقد المؤسسة الدينية، ونقد عدد من أفكارها المنتشرة، بالإضافة إلى عدد من الوظائف الجمالية والإمتاعية، وممن لجأ إلى هذه التقنية فصمم عمله الروائي، زاعما أنه عثر على مخطوطة، يعيد نشرها:
أ-باولو كويلو في مخطوطة وجدت في عكرا.
ب- يوسف زيدان في: عزازيل.
ج- حسن الجندي. في: مخطوطة ابن إسحاق.
ثالثا- استثمار بعض المعلومات المتعلقة بدراسات التراث والمخطوطات لتطوير بعض الشخصيات، ودعم حبكة العمل الروائي، وتصعيد الأحداث.
وممن فعل ذلك فأجرى على لسان عدد من الشخصيات بعض المعلومات المستمدة من دراسات التراث، وعلم المخطوط:
أ- إليف شافاك في روايتها: قواعد العشق الأربعون، على لسان «كيرا» زوج جلال الدين الرومي الثانية.
ب- يوسف زيدان في روايته: النبطي.
ج- محمد المنسي قنديل في روايته: قمر على سمرقند.
إن الكنز الذي يسعى إلى تدميره الكثيرون مازال بإمكاننا أن نستنقذه، وفي استنقاذه استنقاذ للأمة.
ولعل أهم نقطة في سبيل استعادة حضور التراث في العقل المسلم المعاصر أن يفهم ارتباطه العضوي، ودورانه حول مركز «الوحي»، لقد ظهر شارحا، وخادما، وكاشفا تصورا جديدا جاء به الوحي العزيز، فدار حول مركزيته.
إدراك هذه الحقيقة كفيل بتعديل كثير من المسارات في التعامل مع التراث في الواقع المعاصر، لأنه سيصير لزاما على المسلم المعاصر أن يرتبط بالتراث من جانبي الإيمان والأخلاق معا.

القاهرة - عبدالله شريف
تصوير: رمضان إبراهيم
دار الإعلام العربية

أكثر من ٤ ملايين مخطوطة عربية في متاحف الغرب

مدير مركز تحقيق النصوص د. أيمن فؤاد:

أكثر إنتاجنا التراثي منهوب ومفقود!

- **تراث الحضارة الإسلامية تعرض لمذابح عديدة أبرزها حرق مكتبتي بغداد وقرطبة**
- **أكثر مخطوطات العالم في تركيا ثم إيران ومصر.. وأقدم مصحف موجود في اليمن**
- **السرقة والإهمال أبرز أعداء التراث.. ولا يمكن استعادة ما تم تهريبه قبل ١٩٧٢م**

ليس أدل على عظمة وغزارة التراث العربي والإسلامي المخطوط من تعرضه، على مدار ١٤ قرنا وحتى الآن، للاستنزاف والهدر والنهب! فكثيرة هي النوائب التي حلت بهذا التراث، لم تكن البداية بالمذبحة التي ارتكبها التتار بحق مكتبة بغداد، ولم ينته الأمر بعدها بالسلب والنهب والإهمال، فتكفي الإشارة إلى أن مكتبات الغرب يتوافر فيها أكثر من ٤ ملايين مخطوطة من أندر ما أبدعته عقول المسلمين. وفي حواره مع «الوعي الإسلامي»، يؤكد أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الأزهر مدير مركز تحقيق النصوص، د. أيمن فؤاد السيد، أن تراث الأمة العربية الإسلامية غزير وعظيم، لكن غالبيته تعرض للنهب والتلف.. وإلى التفاصيل:

● معروف عنكم الاهتمام بشأن التراث المخطوط والذود عما يتعرض له من إهمال أو إتلاف.. كيف جاءت مسيرتك العلمية في هذا الشأن؟ ومن أبرز الرواد الذين أناروا دربك في تلك المسيرة؟

- التعامل مع التراث في العموم شيء مكتسب، ولا توجد كليات أو معاهد تدرس تخصص المخطوطات، لكني درست التاريخ، وأحببت الغوص في التراث القديم وما حمله من معان وأفكار ورؤى مستقبلية عظيمة. ومن أبرز من شجعني على الدخول في هذا المجال، والدي، أمين مخطوطات دار الكتب المصرية. فكنت أتردد كثيرا على الدار القريبة من المنزل، ورأيت قاعة المخطوطات ومخزنها والأشخاص الذين يترددون على أبي وعلى الدار، فضلا عن النقاشات التي كانت تتم بينهم.

أربعة ملايين مخطوطة عربية منهوبة!

يقدر عدد المخطوطات العربية والإسلامية الأصيلة المنتشرة في مكتبات العالم بأربعة ملايين مخطوطة. وهذا العدد الهائل من المخطوطات، يمثل، إذا كان مجتمعا، ربع عدد الكتب الموجودة في المكتبة البريطانية مثلا، مما حدا بأحد العلماء المسلمين إلى القول إنه لو جمعت الكتب التي صنفها العرب والمسلمون لاستطعنا تغطية الكرة الأرضية بأوراقها.

فعلى سبيل المثال، يزخر المتحف الوطني البريطاني بأنفس الآثار العربية وأثمنها من اليمن ومصر والعراق وغيرها، فهو يحتكم على أكثر من ١٥ ألف مخطوطة عربية، هي أكبر المجاميع الإسلامية وأكبر ما يعرف من نوعها من المجاميع النفيسة في أوروبا وشمال أميركا، كما أنها جزء من بين أكثر من عشرين مليون مادة تحويها المكتبة البريطانية في خزائنها في المبنى الجديد في سانت بانكرس في لندن.

هذه المجموعة من المخطوطات العربية تسميها المكتبة بدار خزانة كنوز التراث العربي والإسلامي، وتشتمل على: حوالي ٧ آلاف مخطوطة فارسية، وألفي مخطوطة أوردية، و٤٠٠ مخطوطة من ماليزيا الإسلامية، و١٢٠ مخطوطة تركية، إلى جانب مجموعات أصغر من الصين الإسلامية ومن المغرب العربي ومن إسبانيا.

ومن أبرز من كانوا يحضرون: الرئيس السابق لمجمع اللغة العربية المصري د. شوقي ضيف، وقد نشر وحقق كتابه «الرد على النحاة» لابن مضاء، وأخرجه من بين المخطوطات القديمة. ود. خليل يحيى نامي، والمفكر عبدالرحمن بدوي، ود. محمود شاكر، ود. حمد الجاسر، والمستشرق الفرنسي شارل كوينز.

كان أبي يشركني في تجارب الطباعة للكتب التي يتم تحقيقها، فبدأت أرى الخطوط وأنواعها، وطريقة فهرسة المخطوطات، وكنت أذهب معه إلى «معهد المخطوطات»، لاسيما أن والدي هو من أنشأ فهارس المخطوطات في المعهد، منذ ١٩٤٥م إلى وفاته ١٩٦٧م.

● لا يعرف كثيرون ماهية علم المخطوطات.. فما مراحل تطوره في التاريخ الإسلامي؟

– المخطوطات هي ذاكرة الأمة، حيث إن الطباعة دخلت متأخرة إلى البلدان العربية، ونجد أن الكتاب المخطوط أخذ وقتا طويلا منذ بدايات التدوين حتى منتصف القرن التاسع عشر، عندما دخلت الطباعة في عصر والي مصر محمد علي، وإنشاء مطبعة بولاق، وقبل ذلك كانت الكتابة قائمة على المخطوطات فقط. والمخطوطات هي طريقة التدوين التي كانت متبعة في التاريخ من قدماء المصريين مرورا بالآشوريين واليونانيين والرومان والفرس وكل الحضارات التي تلتها.

وقد استخدم القدماء أنواعا مختلفة لكتابة المخطوطات، منها «البردي» الذي يصنع من ساق نبتة تسمى «البردي»، ظهرت في مصر القديمة وانتقلت بعدها في العصور القديمة إلى فلسطين وصقلية والعراق، وكذلك ورق «الرق» و«البرشمان» الذي يصنع من جلود الحيوانات، حيث تغسل وتوضع عليها مواد لإزالة الشعر، ثم تشد الجلود حتى تصبح جاهزة للكتابة.

والمخطوطة هي وسيلة لحفظ الإنتاج الفكري والعلمي، وكانت قديما على البردي والرق والبرشمان، ولم يعرف الورق إلا عندما انتصر المسلمون عام ١٣٣هـ على الصينيين قرب سمرقند، وأسروا بعضهم ونقلوا منهم تقنيات صناعة الورق، التي انتقلت إلى العراق في عهد البرامكة، وتم إنشاء مطابخ الورق، وحل الورق تدريجيا حتى القرن الرابع محل «الرق» و«البردي».

● يقول البعض إن من الأفضل خروج المخطوطات إلى دول أوروبا حتى لا يمسها إهمال العرب.. بماذا ترد؟

– وجود الآثار في الخارج سفير مهم للحضارة العربية والإسلامية، لكن علينا بدلا من الفخر بخروجها الإبقاء عليها، والاستفادة من العلوم التي تحتويها، وعدم الانشغال بوضع قوانين تقيدها كقانون تداول المخطوطات.

والمخطوطة ليست تحفة للمشاهدة، لكن هي أصل ومرجع لمن يريد البحث عن التاريخ والأدب والعقيدة، ومن يريد أي معلومة لابد أن يعود إلى المصادر، وهي الكتب الخطية، ولا بد من نشرها نشرا علميا للتأكد من أنها أصلية، وليس الاحتفاظ بها متحفيا. والمخطوطة هي الأصل الذي تبنى عليه كل الدراسات والعلوم.

ومن أبرز مظاهر الإهمال ما حدث في مصر مع مخطوطة «الرسالة» للإمام الشافعي، في دار الكتب ٢٠٠٤م، حيث كانت هناك فعالية تسمى يوم المخطوط ويوم الوثيقة، وتم عرضها في مدخل المؤتمر، ثم فقدت أو سرقت، ولم يجدوها حتى الآن.

● هذا يدفعنا للحديث عن أبرز مذابح التراث والمخطوطات في التاريخ.

– أنشئ بيت الحكمة في العصر العباسي، وازدهر في عهد الخليفة العباسي المأمون، محدثا نقلة نوعية في الترجمة تمهيدا للعصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية في بداية القرن التاسع الميلادي، سنة ٨٤٠ م. لكن في عام ١٢٥٨م، اجتاح «التتار»، العنصر غير الحضري، الأخضر واليابس، ووصلوا إلى مقر الخلافة في بغداد بتآمر من أحد الوزراء، واستطاعوا حرق وتدمير الإنتاج الفكري الإسلامي الذي شمل مئات السنوات، وألقوه في نهر دجلة، وكان يضم ما يقرب من نصف مليون كتاب.

وقبل مذبحة بغداد، توجد مذبحة مكتبة الدولة الفاطمية، التي أضاعت علوما كثيرة على المسلمين. وأيضا هناك العديد من مظاهر الإهمال تحدث يوميا، منها على سبيل المثال: نقل وتخزين عدد كبير من الوثائق والمخطوطات النادرة ومحتويات «الكتبخانة» الملحقة بمسجد الرفاعي بالخليفة، إلى سرداب عمارة ملك لوزارة الأوقاف تقع خلف المسجد، مما يهدد بتلف تلك الوثائق النادرة، التي تعاملت معها مديرية الآثار على أنها ورق دشت، حيث إن سوء تخزين

التتار والإسبان.. وإحراق تراث بغداد وقرطبة

أقدم التتار سنة ٦٥٦هـ على عمل إجرامي بشع، وهو تدمير وإحراق مكتبة بغداد العظيمة، وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمن، وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين طوال أكثر من ستمئة عام. جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون، من علوم شرعية كتفسير القرآن والحديث والفقه والعقيدة والأخلاق، ومن علوم حياتية كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة وغير ذلك. هذا كله بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر.

وهو الأمر نفسه الذي تعرضت له مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس، فعندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة ٦٣٦ هـ (قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط) قاموا بحرق مكتبة قرطبة تماما التي بذلت فيها آلاف الأعمار وآلاف الأوقات، وأنفق في سبيل كتابتها ما لا يحصى من مال وعرق وجهد.

الوثائق وتعرضها للرطوبة ودرجات الحرارة المنخفضة والمرتفعة أيضا، يساعدان على تآكل خام الورق ذاته، بالإضافة إلى الحشرات والقوارض التي تكون في الغالب ساكنة رئيسية في أماكن التخزين السيئة (السرداب)، مما يعجل بسرعة تعرضها للتلف في زمن قياسي.

أيضا المذبحة التي تعرض لها المجمع العلمي بالقاهرة قبل ٣ أعوام، حيث أتت النيران عمدا على محتويات المجمع، الذي يعد إحدى أقدم المؤسسات العلمية في القاهرة، والذي أنشأته الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م، وكان به وقت الحريق عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات والوثائق النادرة، تعرض كثير منها للحرق والتلف، ومن بينها كتاب وصف مصر.

● كان للغرب دور في العناية بالتراث العربي المخطوط.. كيف تقارن دور الغرب مع دور مؤسسات التراث وترميم المخطوطات في العالم العربي؟

– معهد المخطوطات العربية أنشئ عام ١٩٤٥م، ويتبع جامعة الدول العربية، ويهدف إلى تصوير المخطوطات من المكتبات العالمية وإتاحتها في مقره في القاهرة، بعد فهرستها وتسجيلها وعنونتها.

اعتمد المعهد في بدايته على أعمال كارل بروكلمان، خصوصا «تاريخ آداب اللغة العربية» في اختياراتها، وأرسلت بعثات لعدة أقطار لجمع أندر ما تحتويه المخطوطات التي خرجت من بلاد المسلمين. ويقدم المعهد دورات مهمة في تحقيق المخطوط وفي الخطوط وأنواعها وغيرها من الدورات المتعلقة بالتراث.

أما عن الترميم الذي يعد علما كبيرا ذا أصول وقواعد، فهناك مهارات وأدوات يجب أن يتقنها من يقوم بهذه المهمة الخطيرة التي ربما تخرج عملا تستفيد منه أجيال وأمم، وربما يفسد قيمة كبيرة لا تقدر بثمن، وهو يعني تجميل المواد الأثرية وإعادة حالتها إلى شكل أقرب إلى أصلها بغير إضافات تتلفها.

ويوجد في مصر مركزان للترميم: واحد في دار الكتب، والآخر في مكتبة الإسكندرية، وعملهما فني فيزيائي وكيميائي، يختص بإعادة الجلود إلى طبيعتها وترميم المخطوطة وإزالة البكتيريا والثقوب منها.

ويوجد معهد المخطوطات، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، اللذان يعملان على إرساء قواعد متفق عليها وأولويات النشر وحصر التراث المطبوع بالتنسيق مع الدول العربية، وتوحيد القواعد التي يلتزم بها المكتبيون وقواعد النشر العلمي، والتنسيق بين إصدار الكتب، حتى لا تحصل ازدواجية في النشر أو في مشاريع التحقيق.

وأطالب بإنشاء أقسام للمخطوطات وترميمها في قسم المكتبات في كليات الآداب لتطوير هذا العلم، حتى لا يصبح حفظ التراث مجرد اجتهادات.

● هل هناك قوانين تكفل استعادة المخطوطات المنهوبة؟

– لا نستطيع إعادة أي مخطوطة، لأنها خرجت في ظروف ومناسبات مختلفة، كان تداول هذه الكتب والممتلكات الثقافية غير مسيطر عليه، وكل المتاحف الغربية تحوي قطعا أثرية ترجع إلى العرب والشرق عموما.

وبعد اتفاقية اليونسكو في ١٩٧٢م، أصبح لا يستطع أحد استعادة القطع الأثرية إلا ما خرج بعد توقيع الاتفاقية، بشرط أن يكون مسجلا في متحف أو مكتبة، أما غير المسجل وما خرج قبل عام ١٩٧٢م، فلا نستطيع استعادته.

● وهل هناك فهرس موحد للمخطوطات في عالمنا العربي؟

– نعم، لدينا فهرس، وكل مجموعات المخطوطات المهمة في العالم لها مجلدات وكتيبات. والغرب هو أول من بدأ هذه العملية في المكتبة الوطنية بباريس والمتحف البريطاني ومكتبة الدولة في برلين ومكتبة جامعة لايدن. وبدأت دار الكتب المصرية، منذ تأسيسها عام ١٨٧٠م، في إعداد فهرس قديم، ثم في عشرينيات القرن الماضي قامت بإعداد فهرس حديث، وتشرع الآن في إعداد قاعدة بيانات على الحاسب الآلي، كما في أغلب مكتبات العالم. وتوجد مخطوطات كثيرة في بلادنا لا توجد لها تقنيات أو كتالوجات.

● متى بدأ التدوين عند المسلمين؟ ومن أبرز المدونين؟

– بدايات التدوين عند العرب كانت بدائية، فكان كتاب الوحي يسجلون

د. أيمن فؤاد السيد

د. أيمن فؤاد السيد: هو أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الأزهر، ومدير مركز تحقيق النصوص، عالم تخصص في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية، عاش منذ نعومة أظافره بين التراث العتيق في مكتبة والده الذي أنشأ فهارس معهد المخطوطات، نال الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة السوربون ١٩٨٦م، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٨٣م، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٥م، وجائزة عبدالحميد شومان للعلماء العرب الشبان في العلوم الإنسانية لعام ١٩٨٨م، وجائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ٢٠٠٧م.

له العديد من المؤلفات، منها: تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، وتاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري، والدولة الفاطمية في مصر.. تفسير جديد، ودار الكتب المصرية.. تاريخها وتطورها، والتطور العمراني لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن، والكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات.

على الحجارة وسعف النخيل. وفي القرن الثاني، انتشر التدوين بكثرة على يد علماء مثل ابن ماجه وأبي داود، والترمذي، والنسائي، والإمام مالك ابن أنس، والبخاري، مرورا بالعصور المتتابعة.

وفي العصر العباسي، تم إنشاء بيت الحكمة في بغداد، وضم علوما كثيرة عن طريق الترجمة في عصر المأمون عن اللغات اليونانية والفارسية، فبدأ الاحتكاك بحضارات أخرى، ونقلوا العلوم المختلفة، وأضافوا إليها وأصبح هناك علم عربي متنوع.

● يعد التوثيق أمرا مهما لأي حضارة.. فما أبرز الموضوعات التي تناولتها المخطوطات؟ وماذا تعني مهنة «الوراقة»؟

– المخطوطات العربية تناولت موضوعات في الجغرافيا والرياضيات والفلك والجبر والحديث واللغة والنحو والتاريخ.

وكان يتولى التدوين أشخاص يعرفون باسم «الوراقة»، يعملون على كل ما يخص عملية الكتابة وتصحيحها وتشكيل الأحرف وتلوينها، ومن ثم تغليفها بالجلد ونحوه، وإذاعتها ونشرها. وقد تطور الخط العربي بظهور مهنة الوراقة ومر بمراحل طويلة، بداية من الخط الحجازي (المكي والمدني)، ثم الكوفي (قائم الزاوية)، حتى ابتدعوا خط الوراقي الأصلح للكتابة من خلال ابن مقلة وابن البواب، وظهر في القرن السابع على شكله النهائي «الياقوتي المستعصمي».. كل ذلك واكب عملية الإنتاج الفكري العربي، حتى القرن التاسع عشر.

● ما أقدم الكتب المؤرخة وأبرز الدول التي تحتفظ بالكتب والمخطوطات؟

– أقدم كتب تعود إلى القرن الثاني الهجري، وأقدم كتب إسلامية موجودة تعود إلى القرن الثالث، حيث يوجد ٤٠ مصحفا وكتابات مسيحية بالحرف العربي، وعدد من المصادر العربية التي ترجع إلى القرن الثالث، وأكثر ما كتب في القرن الثاني «مفقود».

أما عن أبرز الدول التي تحتفظ بالكتب والمخطوطات فتأتي تركيا في البداية، حيث تضم أكثر من ١٢٠ ألف كتاب ومخطوط قديم، تتبعها إيران، ومن ثم مصر. وتعتبر هذه الدول من المراكز الرئيسية للمخطوطات، حجما وكيفا، من ناحية الموضوع والشكل والإخراج.

● هل اندثرت مهنة تحقيق المخطوطات؟ وما أهم أخلاقياتها؟

– تحقيق المخطوط هو مصطلح ابتدعه أحمد زكي باشا، ويعني النشر النقدي للنصوص. وهذا اللفظ يستخدمه الغرب، ويتضمن جمع النسخ للكتاب، وتشجيرها، واستبقاء الأصول، واستبعاد الفروع من العائلة الواحدة، ومن ثم مقارنة النسخ حتى تصل إلى النص الأصلي الذي أراده المؤلف.

بدأت مع المؤلفات الكلاسيكية اليونانية والكتاب المقدس، وطبقت على المؤلفات العربية، عندما بدأ المستشرقون عملية إحياء التراث العربي في القرن التاسع عشر على طريقة إليخمان، الذي أسس تقعيد النشرة النقدية للنص بالنصوص الكلاسيكية، وطبقت على المخطوطات العربية.

المهنة لم تندثر كليا، لكنها منقرضة منذ فترة طويلة. فعلى سبيل المثال، الجامعات والمعاهد غير معترفة بالمهنة كأساس للترقية، والأزهر مهتم بالتحقيق لكنه غير ممارس.

والكتب الدينية، التي تشمل التفاسير والأحاديث، لا يوجد بها جديد لتحقيقه، وما يحتاج إلى تحقيق فعلي هو كتب التاريخ واللغة والأصول وعلم الكلام والكتب الطبية، ولابد من معرفة القواعد التي نقلت في عصر النهضة، لأن العلم مسألة تراكمية.

والمخطوطات عموما تعتمد في ألوان كتابتها على الأبيض والأسود، وبعض النسخ فيها منمنمات، كمقامات الحريري، وكليلة ودمنة، ودعوة الأطباء، والحيوان للجاحظ، وكتب الفنون الحربية، وافتتاحيات المصاحف، والفاتحة والبقرة وخاتمة المصحف، وتشتمل على زخارف نباتية هندسية.

وصنع العرب الألوان من مواد مختلفة، منها ما هو مصنوع من مصادر نباتية كالحناء والبن والأرز والورد والأزهار، ومنها ما هو مصنوع من الأحجار الكريمة. ومن أهم الألوان التي كانت تستخرج من مساحيق الأحجار، الأخضر والأزرق اللذان كانا يستخرجان من أحجار الفيروز النفيسة.

أما المصدر الثالث لصناعة الألوان، فهو الأتربة، بعد أن تنخل وتصفى وتسحق لتصبح كالكحل، ثم تخلط بالصمغ والماء حتى تصبح جاهزة لتحلية صفحات المخطوطات. ومن الألوان أيضا التذهيب. وهناك نوعان رئيسيان في تذهيب المخطوطات، هما المطفي واللماع: أولهما يتم بلصق الأوراق الذهبية الرقيقة في مواضع التحلية، والثاني عن طريق التلوين المباشر بماء الذهب.

● هل توجد في الدول العربية نسخ مكتوبة من المصحف الشريف؟

– توجد في مصر أوراق في دار الكتب بالخط الحجازي لم تصل إلى حد مصحف كامل، وهناك نسخ قديمة جدا اكتشفت في اليمن وترجع إلى القرن الأول الهجري، تم اكتشافها فوق قبة مسجد انهار بفعل السيول، ونسخ موجودة في المكتبة الوطنية في باريس وتشمل أوراقا غير كاملة بالخط الحجازي المائل، أما الخط الكوفي فموجود منه نسخ كاملة في العالم.

ويوجد في اليمن آلاف الكتب والمخطوطات القديمة بحوزة القبائل والعائلات، وكلها مكتبات شخصية، وأغلبها تشمل فكر المعتزلة وفقههم.

التراث عند المستشرقين

د. مسعود صبري
باحث في الموسوعة الفقهية - الكويت

يعد التراث واحدا من أهم دعائم الحضارة لكل شعب من الشعوب، أو أمة من الأمم، ولذا نلاحظ أن كثيرا من الحروب يشن فيها العدو هجوما عنيفا على تراث الأمة التي يحاربها، إما بالإحراق، أو الإتلاف، أو الإلقاء في البحور والأنهار، كما حصل في تاريخ دخول التتار عاصمة الخلافة بغداد، رغم أن الكتب لم تكن تحاربهم، أو تقف ضدهم في شيء، وكما حصل في العصر الحديث في حرب الصرب على البوسنة والهرسك، حيث أحرقوا مكتبتها المركزية بما فيها من كتب ومخطوطات، ولم ينج منها إلا عشرة آلاف مخطوط، لإدراك بعض العقلاء لأهميتها، ولما رأوا من الهجوم عليها، وكما يحصل من بعض الجماعات المتطرفة في هجومها واستيلائها على بعض المدن العربية الآن.

إن التراث لا يمثل شيئا صامتا في حياة الشعوب، بل هو قلبها النابض، ولسانها الناطق، وسلاحها الحامي، وغذاؤها الذي به تقوم عليه حياتها. ولذا كان للمحتلين دائما عناية فائقة بتراث الدول التي تعاديها، كما هو حال الحركة الاستشراقية منذ نشأتها إلى اليوم، وإن تغيرت بعض ملامحها، لكن يبقى معرفة الأعداء من خلال تراثهم وتاريخهم هو المدخل الأصعب في حالة الحرب والعداء؛ لأنه أداة فهمهم، وآلة التخطيط ضدهم، في حين كان تعامل المسلمين مع تراث الحضارات الأخرى ليس من سبيل العداء، وإنما من سبيل التبادل الثقافي والمعرفي، والاستعانة به في النهضة العلمية، وهذا ما شوهد في تاريخ المسلمين منذ حركة النهضة العلمية أيام الخلافة العباسية على يد الخليفة محمد المأمون، والذي أمر بترجمة كل كتب اليونان في جميع العلوم والمعارف، إلى حد الإسراف الذي كادت خزائن الدولة معه تنفد، ومع ترجمة كتب ومعارف لم يكن نفع المسلمين بها كبيرا مقابل ما دفع في ترجمتها من مال المسلمين، ومازال المسلمون يتعاملون مع تراث الغير من باب التعارف الإنساني والتبادل المعرفي، انطلاقا من قاعدة التعاون التي أمر الإسلام بها أتباعه، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة:٢)، وانطلاقا من الحكمة المشتهرة: «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها».

إن قراءة في حركة الاستشراق يمكن أن تضيء لنا بعض الملامح في علاقة الاستشراق بالتراث، ولعلها تفسر

لنا هذا الاهتمام من جانبهم، وهذا الانبهار من العالم الإسلامي بجهد المستشرقين في الاطلاع وخدمة التراث الإسلامي، حتى أقيمت كثير من الندوات والمؤتمرات له، وأنفقت ملايين الدولارات من أموال الدول الإسلامية دعما للمستشرقين، حتى بات العمل في خدمة التراث مدخلا جيدا للدعم المالي عند بعض المستشرقين من الدول الإسلامية الغنية، وهو إحسان ظن من المسلمين بهؤلاء المستشرقين باعتبار أنهم يخدمون تراث الأمة، وانبهارا بالسيد الغربي صاحب الحضارة، دون إدراك أو وعي لحقيقة العمل الاستشراقي وأهدافه على نحو يمحص لنا ذلك التوجه بكل أبعاده المتشابكة والمعقدة، التي يختلط فيها تحقيق بعض الكتب التراثية من جانب، والاستفادة من هذا التراث الأصيل في معرفة الشعوب العربية والإسلامية من جانب آخر، بل والخروج بنتائج تقدم في أحيان غير قليلة لصناع القرار في الدول الغربية على وجه الخصوص، حيال التعامل السياسي مع الدول العربية الإسلامية، خاصة أن كثيرا من العاملين في حقل الاستشراق لهم علاقات وثيقة بوزارة الخارجية ببلدهم، وهي الوزارة المعنية بعلاقة الدولة بغيرها من الدول.

ومن الإنصاف أن نقول: إن المستشرقين ليسوا سواء، فهم أصناف متعددة، يمكن تقسيمهم كالآتي:

الصنف الأول: الاستشراق السياسي:

ويمثله المستشرقون الذين يطلعون على التراث بهدف دراسة المجتمعات الإسلامية؛ لتقديم صورة عنهم وعن أفكارهم ومبادئهم وعقولهم لدولهم للمساندة في تقديم صورة لطبيعة التعامل مع تلك الدول، والمقصد هنا هو مقصد سياسي.

الصنف الثاني: الاستشراق الديني:

ويمثله مستشرقون يدرسون الإسلام وتاريخ الدول العربية بقصد الطعن في الإسلام والتاريخ والهوية، وحفلت كتابات المستشرقين بكثير من هؤلاء، ومن نماذج هؤلاء ما كتبه «جولد تسيهر»، و«ول يورانت»، و«فان فلوتن»، وغيرهم، وهي كتابات جل اهتمامها نقد الإسلام والطعن فيه، والتشكيك في رسالته وأحكامه، بل والكذب والتدليس على الإسلام والمسلمين وتاريخهم وتاريخ خلفائهم وتاريخ وأخلاق المحدثين والفقهاء، وقد قام كثير من الأساتذة بالردود العلمية التي تبين زيف كتابات هؤلاء، وإن فتن بهم بعض المفكرين من المسلمين.

الصنف الثالث: الاستشراق الكسبي:

ويمثله مستشرقون يدرسون الإسلام وتاريخه حسب الطلب، وحسب الأهداف التي توضع لهم، لأنهم يعتبرون أن هذا العمل والتخصص هو مصدر العيش والاسترزاق لهم.

الصنف الرابع: الاستشراق العلمي

ويمثله مستشرقون يدرسون الاستشراق من الناحية العلمية البحتة، يحاولون قدر المستطاع نقد وتحليل الكتابات التراثية بحيدة

وإنصاف، وهم يمثلون الفئة الأقل في المستشرقين، ومنهم من يأخذ موقف الحياد، ومنهم من ينصف، فينصر حين يرى الانتصار، وينتقد حين يرى النقد واجبا.

ملاحظات منهجية على العمل الاستشراقي في التراث

ومما يلاحظ على العمل الاستشراقي ما يلي:

عدم التقيد بالمنهج العلمي في الكتابة

فمما هو معلوم لدى كل دارس في الدراسات الأكاديمية أن كل بحث مهما كان لونه أو نوعه له أصول ينبني عليها، وإلا فلا وزن له في الدراسات الأكاديمية، ومن ذلك:

النقل عن المصادر الأصيلة

فكثير من كتابات المستشرقين تنقل عن المصادر الوسيطة التي لا تعبر بالأصالة عن المنقول، وتنسبه إلى أصحابه، مع أنهم لم يرجعوا إلى كتابات المؤلف نفسه مع وجود كتبه، ولكنهم ينقلون عمن كتب عنه، ويحاكمون المتحدث عنه، سواء أكان فقيها أو محدثا، أو عالما في أي تخصص على ما نقل عنه، لا على ما قاله هو بنفسه، وهذا يطعن في كثير من الكتابات الاستشراقية التي تخلت عن النزاهة العلمية والحيدة والنصفة فيما يكتبون عن رجالات الإسلام.

التصحيف في النقل

وهو نقل المعنى عن صاحبه بمرادهم هم لا بمراده هو، دون نقل النص بعينه، ولكنهم يصوغون العبارات بمعان غير الواردة في النص عن الإمام أو الفقيه، ويفعلون كما قال الله تعالى عن أهل الكتاب ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (النساء: ٤٦).

فمن أمثلة ذلك، ما نقله المستشرق «جولد تسيهر»، من قوله: ويقول وكيع عن زياد بن عبدالله البكائي (أحد المحدثين): «إنه مع شرفه في الحديث كان كذوبا».

والنص الأصلي هو كما جاء في كتاب التاريخ الكبير للبخاري بحواشي المطبوع (٣/ ٣٦٠) زياد بن عبدالله ابن الطفيل البكائي الكوفي، سمع ابن إسحاق ومغيرة، وقال ابن عقبة السدوسي عن وكيع: هو أشرف من أن يكذب، قال دلويه: مات سنة ثلاث وثمانين ومائة. فحرف جولد تسيهر القول من «أشرف من أن يكذب»، إلى: «إنه مع شرفه في الحديث كان كذوبا».

ومن تحريفات جولد تسيهر أيضا في نفس المجال، اتهامه للإمام الزهري بأنه كان «مستعدا لأن يضع الأحاديث لبني أمية، وأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند الأمة الإسلامية، ولم يكن الزهري من أولئك الذين لا يمكن الاتفاق معهم، ولكنه كان ممن يرى العمل مع الحكومة، فلم يكن يتجنب الذهاب إلى القصر، بل كان كثيرا ما يتحرك، في حاشية السلطان، بل إننا نجده في حاشية الحجاج عندما ذهب إلى الحج، وهو ذلك الرجل المبغض ...» إلخ.

فالزهري لم يكن مع الحجاج بن يوسف الثقفي في حاشيته حين حج، وإنما كان مع عبدالله بن عمر، حين اجتمع مع الحجاج.

والنص الصحيح ورد في كتاب «تهذيب التهذيب»، لابن حجر (٩/ ٤٥١)، ونصه:

وقال الذهلي لست أدفع رواية معمر عن الزهري أنه شهد سالما وعبدالله بن عمر مع الحجاج في الحج، فقد روى ابن وهب عن عبدالله العمري عن الزهري نحوه وروى عنبسة عن يونس عن ابن شهاب قال: وفدت إلى مروان وأنا محتلم، قلت رواية معمر التي أشار إليها أخرجها عبدالرزاق في مصنفه عنه، ولفظه: كتب عبدالملك إلى الحجاج أن اقتد بابن عمر في المناسك، فأرسل إليه الحجاج يوم عرفة: إذا أردت أن تروح فآذنا، فراح هو وسالم وأنا معهما، وقال في آخره: قال ابن شهاب وكنت صائما، فلقيت من الحر شدة.

ولقائل أن يقول: إن بعض التحريفات ربما جاءت من جهة الترجمة، لأنهم لم يكونوا يجيدون العربية كأهلها، وهي شبهة واهية، لأن جولد تسيهر يجيد العربية بطلاقة، ومع افتراض أنه لم يكن يجيد العربية، فهذا يعني أنه ليس أهلا لدراسة علوم الإسلام والعربية، وبالتالي فيترك كل ما

كتب، لأنه لم يكن متخصصا.

وليس التدليس المنقول عن جولد تسيهر يقف عنده، بل هو مشتهر جدا في كتابات كثير من المستشرقين، خاصة فيما أسميناه «الاستشراق الديني».

فكتابات المستشرقين ينقصها المنهجية العلمية في الدراسات الأكاديمية، فكثير منهم لم يكن يتحلى بأدوات البحث العلمي المنصف، أو أنه تخلى عنها طواعية، وإن لم يكن كل المستشرقين كذلك.

رفض تقييم العمل الاستشراقي

ومما يلاحظ على الكتابات الاستشراقية أنهم يضيقون ذرعا بنقدها، فهم بزعم الحرية يرون أن هذا عمل علمي، وأنه من حقهم كمستشرقين أن يكتبوا عنا ما يشاؤون، دون أي نقد من أحد، لأن هذا النقد يمثل تعطيلا للحركة العلمية الاستشراقية، ولأنه يمثل قيدا كبيرا على الحرية الفكرية، فهم يرفضون تقييم العمل الاستشراقي ولو بالمشاركة بين المتخصصين في الاستشراق من المسلمين وبينهم، ويرون ذلك تدخلا في عملهم، ونسي هؤلاء أنهم يكتبون عنا، وأنه من حقي أن أنقد كل من كتب عني، لأن من كتب عني ليس بأعلم بفكري مني.

والعجيب أنهم هم يقومون بالنقد اللاذع في كثير من الأحيان، فهم يبيحون لأنفسهم النقد لغيرهم، لكنهم لا يسمحون لأصحاب الشأن أن ينتقدوا أعمالهم عنهم!

اتجاه العمل الاستشراقي

ومما يلاحظ أن العمل الاستشراقي في ترجمة كتب الإسلام وآدابه كان موجها توجيها محددا، وحصل فيه انتقائية كبيرة في كثير من الأعمال، فهي المعيار الحاكم للكتب التي ترجمت، وعبر عن ذلك الدكتور محمود قاسم بقوله: «لقد نقلنا المستشرقون إلى أرسطو، على حين نقلوا أنفسهم وقومهم إلى مناهج المسلمين وعلومهم» (المؤامرة على الإسلام، أنور الجندي، ص ٢٠٩).

ويجيء التصوف وعلم الكلام والكتب الفلسفية على رأس قائمة الكتب التي يعنى بها الاستشراق، لأن في نشر تلك الكتب في المجتمعات المسلمة نفعا لهم بما يتماشى مع مقاصدهم في العمل الاستشراقي، فكثير مما ترجم عن الحلاج الذي حكم عليه بالكفر من قبل علماء عصره، وعن السلمي الصوفي، وابن الزيات الشاذلي، وابن عباد الرندي، وبعض الكتب عن الفرق الضالة عن الإسلام كالإسماعيلية والمفضلية وغيرهم، وبعض كتابات ابن كمونة اليهودي، وبعض الكتابات اليونانية التي ترجمها بعض علماء المسلمين، وبعض كتابات ابن سينا في الفلسفة، مع تحذير علماء الإسلام من كتاباته في الفلسفة والعقيدة، بخلاف كتاباته في الطب، وترجمة بعض الكتب التي تدخل على انحطاط أخلاق أصحابها، كتلك الرسائل التي فيها سخرية، أو المقارنة بين الجواري والغلمان، وغير ذلك مما يقل نفعه، نعم ترجموا بعض الكتب النافعة، لكنها بالمقارنة بالكتب التي لا نفع فيها لا تقارن.

كما اهتموا بكتب التراجم والتاريخ في الرتبة الثانية، وكانت كتب التاريخ حقلا كبيرا للتدليس على علماء المسلمين وخلفائهم، ووصفهم بما لا يليق بأخلاق المسلمين، فضلا عن خلفائهم، خاصة فيما يتعلق بهارون الرشيد. ومن الإنصاف أن نقول: إن بعض المستشرقين المنصفين كانت لهم ترجمات رائعة لعدد من كتب اللغة والنحو والأدب والبلاغة، لكنهم كما قال الدكتور عبدالعظيم الديب رحمه الله عنوا بالنشر في اتجاهين: تراث الفرق والإحن، وكل ما يؤدي إشاعته ونشره إلى تجديد النزاع بكل صوره، الفكري، والمذهبي، والسياسي.

الثاني: كل ما يفقدنا الثقة بماضينا وأمجادنا ورجالنا وقادتنا.

وضرب على ذلك بعض النماذج منها: احتفاء المستشرقين بكتاب «ألف ليلة وليلة»، الذي قيل عن صاحبه: كذاب يأتي بالعجائب والغرائب، فقد كتبوا عنه في «دائرة المعارف الإسلامية» خمسا وثلاثين صفحة كاملة، وأن نحو عشرين من أعلامهم أصدروا أبحاثا عنه، ما بين دراسات وترجمات وتعليقات، واعتنوا به عناية فائقة في إخراجه، ونشره وإذاعته كتابة وصحافة وإذاعة وإعلاما، وكتبت عنده الدراسات الأدبية عندهم، وتعدى إلى دراسة التاريخ وتاريخ الفكر من فقه وتفسير وعقيدة، ومن ثم استشرى خطره، وصار ما فيه من طرائف وغرائب أحكاما ثابتة، وقضايا مقررة، يستند إليها في الطعن على السنة والفقهاء والقضاة.

إننا مع العمل الاستشراقي العلمي الجاد عن تراثنا، نفتح له أبواب التعاون، وهو من قبيل التواصل الفكري والحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وكل حضارة إنسانية، على أن تلتزم المنهج العلمي في الكتابة الذي تعارفت عليه كل المؤسسات الأكاديمية، وأن يكون خارج الإطار السياسي، أو العداء الديني، فقد تقرر في كتاب ربنا حرية الاعتقاد للشعوب، على أساس قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ (الكافرون:٦)، فتكون دراسة التراث وصلا حضاريا بما يخدم الإنسانية؛ على دعائم ومعايير العلم النافع والعمل الصالح.

التُّراث.. إشكاليَّة المُصطلَح والقِراءَة

السنوسي محمد
باحث وصحفي-مصر

قضية التراث وما يتصل بها – تعريفا وقراءة وإحياء ومقارنة – هي من القضايا التي أخذت حيزا كبيرا من حياتنا الفكرية المعاصرة، والتي يتحدد بناء عليها موقفنا من قضايا عدة، تتفرع عنها وتتصل بها. وهي – إضافة لذلك – من القضايا التي ثار حولها لغط كثير؛ إذ إن طرح النقاش أو الجدال حول قضية التراث قد جاء في سياق «المواجهة الحضارية الشاملة، التي جاءت بها أوروبا إلى بلادنا حاملة معها نواتج نهضتها، ووسائل تقدمها.. وأصبحت القضية المطروحة على العقل المسلم بإلحاح: كيف نواجه التحدي ونواكب العصر؟ هل نعوض مركب النقص، ونعالج هذه الأزمة النفسية، ونردم فجوة التخلف، بتبني الثقافة والتقنية الغربية» (١).

وتنبع أهمية «التراث» من كونه «الهوية الثقافية للأمة، والتي من دونها تضمحل وتتفكك داخليا، وقد تندمج ثقافيا في أحد التيارات الحضارية والثقافية العالمية القوية» (٢).

وهذه الأهمية للتراث لا تقتصر على ما يتصل بالأمة الإسلامية، بل هي «قانون حضاري» يشمل كل الأمم، فلكل أمة تراثها الذي يشكل دورا محوريا في تكوين هويتها، إذ «لا هوية للذات بغير الاستناد إلى تراثها» (٣). ولذا فإن «الشعوب لا تستعيد في وعيها – ولا يمكن أن تستعيد – إلا تراثها، أو ما يتصل به، أما الجانب الإنساني العام في التراث البشري كله، فهي تعيشه داخل تراثها لا خارجه» (٤).

مفهوم التراث

تشير مادة «التراث» لغويا إلى ما يورث عن الآباء من مال أو جاه (٥)، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمعنى المال الموروث، في قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ (الفجر: ١٩) (٦). أما مصطلح «التراث» في الاستخدام الفكري فقد اختلف فيه اختلافا كبيرا؛ لأنه لم يكن معروفا لدى المسلمين على النحو المستخدم به حديثا، إنما هو مصطلح وافد من البيئة الغربية، ومحمل بدلالات خاصة بتلك البيئة، ومن ثم نشأ الاختلاف حوله حينما وضع في البيئة الفكرية الإسلامية.

و«التراث» بصفة عامة يمكن تعريفه من «زاويتين: تراث السلوك والعادات والقيم غير المكتوبة؛ وتراث الإبداعات الفكرية والفنية والأدبية، المكتوبة أو المسجلة والمرئية المحفوظة» (٧).

أما التراث داخل الخطاب النهضوي العربي الحديث والمعاصر، فيقصد به بصورة أساسية: «الجانب الفكري في الحضارة العربية الإسلامية: العقيدة، والشريعة، واللغة، والأدب، والفن، والكلام، والفلسفة، والتصوف» (٨).

التراث والأصالة.. والمعاصرة

قد يستخدم مرادفا لمصطلح «التراث» مصطلح «الأصالة»؛ ويقصد به: «وضوح الهوية، وتتبع أصولها الحضارية، وهذا يتأتى عن

طريق تمثل تراث الأمة» (٩).

أما المصطلح المقابل لـ«التراث» في الاستخدام الفكري فهو مصطلح «المعاصرة»؛ وهو يعني: «العيش في خضم العصر، والتفاعل مع العالم المحيط» (١٠).

ويلفت الأستاذ عمر عبيد حسنة النظر إلى خطأ من يطرحون مفهوم «التراث» أو «الأصالة» في مقابل مفهوم «المعاصرة»، متصورين أنه يلزم الأخذ بأحدهما فقط؛ لأن «الحقيقة البادهة: أن لا معاصرة دون أصالة، ولا أصالة صادقة دون معاصرة فاعلة» (١١).

ثم يتساءل: هل المواكبة للعصر، وقبول التحدي يفقدنا الهوية، ويؤدي لضياع الذات؟ أم أن الأساس الصحيح، والتجربة التاريخية (الأصالة) تعطينا نوع أمن، وتجعلنا قادرين على النزول إلى الساحة استجابة لخطاب التكليف، وتسلحنا بالمقاييس الصحيحة للقبول والرفض، والقدرة الهاضمة للثقافات والمنجزات الحضارية، دون الذوبان أو الخوف؟! (١٢).

التراث.. والقرآن والسنة

إذا كانت الأمة الإسلامية قد انبعثت في الوجود مع نزول القرآن الكريم، وإذا كانت علومها المختلفة قد ولدت من رحم هذا الكتاب المحفوظ من التبديل والتغيير، حينما تفاعلت الأمة مع كتاب ربها - فهما واستنباطا وتطبيقا - حتى نشأت وتألقت عشرات العلوم والمعارف، لاسيما حين نشطت حركة التدوين في منتصف القرن الثاني الهجري حتى القرن الرابع.. فإن هذه النشأة وهذا التفاعل كانا سببا رئيسيا في حدوث الاختلاف حول مفهوم «التراث» ومضامينه، وهو الاختلاف الذي يتبلور في السؤال التالي:

هل يدخل القرآن الكريم والسنة النبوية في إطار التراث مع بقية العلوم الأخرى، أم نستثنيهما لأنهما يتصلان بالوحي المعصوم، غير خاضعين للفعل الإنساني؟

• الرأي الأول ذهب أنصاره إلى أن «التراث الإسلامي» هو ما ورثناه عن آبائنا من عقيدة وثقافة وقيم وآداب وفنون وصناعات وسائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية، ومن ثم فهو يشتمل على الوحي الإلهي (القرآن والسنة). وإن كان أنصار هذا الرأي يفرقون في النظرة والتعامل بين الوحي، فهو لا يقبل الانتقاء والاختيار منه، ولا محاولة تطويعه للواقع، وبين المنجزات البشرية الحضارية والثقافية، فهي قابلة للانتخاب والتوظيف، وفق الرؤية المعاصرة، وحسب الحاجة والمصلحة (١٣).

ويرى هؤلاء أن القول بالفصل بين القرآن والسنة باعتبارهما وحيا إلهيا، وبين النتاج الثقافي والحضاري في التراث، قد يكون الغرض منه أن يتم «الانتقاء والنقد بحرية دون المساس بالعقيدة الدينية». ولذا فهم يؤكدون أن هذا القول «يبعد عن واقع المشكلة الحقيقية؛ لأن الفصل غير ممكن عمليا، ولأن النقد يمكن أن يتعرض للعقيدة والشريعة من خلال نقد قيم التراث المستمدة من الوحي الإلهي» (١٤).

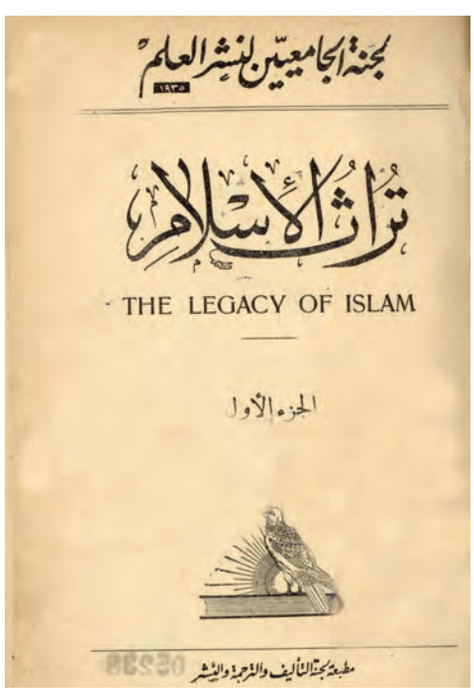

• أما الرأي الثاني فيذهب القائلون به إلى عدم دمج الوحي بالتراث، ويرونه مفارقا له؛ لأن التراث في اعتقادهم «إنجاز إنساني خالص، أو مبدعات إنسانية يكون الإنسان فيها هو الصانع، وهو المورث للآتي بعده. بتعبير آخر: لا تراث إلا ما هو عرضي إنساني زماني، ولا مورث إلا ويكون عرضيا إنسانيا زمانيا. وهذا يعني أنه لا مدخل ذاتي للأمور الإلهية في دائرة التراث» (١٥).

فالتراث حسب رأيهم يشتمل في نهاية التحليل على ثلاثة عناصر: العلوم، والمصنوعات، والقيم. وهم يقصدون - من تحديد التراث على هذا النحو - توضيح أن العلاقة بين «التراث» و«المقدس» علاقة مصطنعة تماما، نشأت من توهم دخول القرآن والسنة في التراث باعتبار أنهما - بحسب هذا التوهم - من العناصر المكونة للتراث، مما أضفى على التراث طابع «المقدس».

ولذا فهم يؤكدون أن توهم دخول القرآن والسنة في التراث هو مجرد وهم؛ لأن القرآن ليس هو علوم القرآن، ولأن علم أصول الدين أو الفقه أو أصول الفقه ليست هي الدين نفسه، فهذه العلوم جميعا هي «كلام» تاريخي على الدين، وعلى الوحي. وهي بهذا الاعتبار تاريخية إنسانية، أما الوحي نفسه فهو الإلهي، وهو المجاوز للتاريخ. تلك العلوم تراث أما الوحي فليس بتراث (١٦).

• ويمكن أن أعقب بالقول: إن الخلاف بين هذين الرأيين ليس ذا بال؛ لأنهما يتفقان على أن منهج التعامل مع الوحي يختلف اختلافا جذريا عن التعامل مع غيره، سواء أدخلنا القرآن

والسنة تحت مظلة «التراث»، أم أخرجناهما منها.

وبالتالي، يمكن أن نعد هذا الخلاف من باب التأكيد والتنبيه على حقيقة الفروق بين الوحي من ناحية، والذي هو متجاوز للزمان والمكان، ويجب له التسليم والخضوع، وبين المنجزات البشرية حوله من ناحية أخرى، والتي هي متأثرة بزمانها ومكانها، ونقبل منها بقدر ما تقترب من الوحي، أما ما خالف الوحي فمردود على قائله.

ولذا صح عن الشافعي رضي الله عنه قوله، الذي صار بمثابة قاعدة لميزان التراث وغربلته: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، وفي رواية: «إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث، فاعملوا بالحديث، واضربوا بكلامي الحائط».

التراث.. والقراءة المزورة

بالإضافة لهذين الرأيين السابقين حول موضع القرآن الكريم والسنة النبوية من مفهوم «التراث» ومضامينه، فإن هناك قراءة مزورة للعلاقة بينهما، تلقي بظلال قاتمة على مفهوم «التراث».

وهي قراءة المستشرقين، ومن دار في فلكهم، الذين يجمعون في سياق واحد بين القرآن والسنة، وبين العطاء البشري المستمد منهما، لا بقصد التأكيد على «ربانية» ونقاء التراث الإسلامي، أي رفع التراث البشري قريبا من المصدر الإلهي، بل بقصد أنسنة الوحي الإلهي، وإخضاعه للمناهج والأدوات التي يتم التعامل بها مع النصوص الأدبية والفكرية، أي إنزال الوحي من مرتبته العليا السامية إلى مستوى العقول البشرية القاصرة، التي لا تسلم من غبش في الرؤية، وتخليط في المنهج، وزيغ في القصد.

هكذا تعامل الغربيون مع تراثهم الديني: التوارة والإنجيل، وقد يكونون معذورين في ذلك، بسبب ما دخل على هذه المصادر من تحريف، وما ظهر فيها من تناقض؛ لأنها دونت بعد انقطاع زمني كبير من عهد أنبيائها، ولم تخضع عند جمعها وتدوينها لمثل ما التزم به جامعو السنة النبوية من تدقيق وتمحيص.

وهكذا يراد لتراثنا أن يتم التعامل معه، نقدا وقبولا ورفضا، دون أي اعتبار للوحي المحفوظ من التحريف والتبديل، المنزه عن التناقض والاختلاف.

فعلى سبيل المثال، يقدم صاحب «التراث والتجديد» رؤية زائفة للتعامل مع التراث، تحتفظ له بأهميته ومصطلحاته من حيث الشكل، لكن تفرغه من مضمونه ومحتواه؛ حتى لتزعم أن «الله: لفظة نعبر بها عن صرخات الألم وصيحات الفرح، أي إنه تعبير

أدبي، أكثر منه وصفا لواقع، وتعبير إنشائي، أكثر منه وصفا خبريا» (١٧)!

وتهدف تلك المحاولة الزائفة إلى «التحرر من السلطة بكل أنواعها، سلطة الماضي وسلطة الموروث، فلا سلطان إلا للعقل، ولا سلطة إلا لضرورة الواقع الذي نعيش فيه، وتحرير وجداننا المعاصر من الخوف والرهبة والطاعة للسلطة، سواء كانت الموروث، أو سلطة المنقول» (١٨).

ويعقب د. عمارة على هذا التخريب لتراثنا، قائلا: هنا تطالعنا «آلهة التنوير الغربي» لتحل محل الموروث - كل الموروث - فلا سلطان إلا للعقل والمادة، وهي محاولات تسير على درب التنويريين الغربيين الذين «أنسنوا» كل الإلهيات، بحيث يتم التخلي عن ألفاظ ومصطلحات كثيرة، من مثل: الله، الرسول، الدين، الجنة، النار، الثواب، العقاب، «في علم أصول الدين؛ لأنها قطعية.. ولأنها تجاوز الحس والمشاهدة»؛ فكل ما يجاوز الحس والمشاهدة، وكل ما لا يتأنسن، يجب تأويله بل والتخلي عنه وإلغاؤه (١٩).

نحو قراءة صحيحة

في مقابل ما يمكن أن نسميه القراءة الجامدة للتراث والقراءة المزورة له، تبدو الحاجة ماسة إلى قراءة أخرى صحيحة منصفة له، بحيث:

• تدرك أولا أن للوحي - قرآنا وسنة - دورا محوريا أساسيا في تكوين تراثنا العريض الممتد، وفي تشكيل عقلنا ونموذجنا المعرفي.

• وتفهم ثانيا أن هذا «الوحي» ليس على مستوى واحد، فمنه ما هو قطعي الثبوت والدلالة، وهذا النوع من النصوص قليل جدا بالنسبة إلى سائر النصوص، ولا مجال فيه للاجتهاد. كما أن منه ما هو قطعي الثبوت، ظني الدلالة، وظني الثبوت، قطعي الدلالة، وظني الثبوت والدلالة، وهذا فيه مجال للاجتهاد المنضبط بآليات فهم النص القرآني والنبوي. إضافة إلى ذلك، توجد وقائع لم ترد فيها نصوص، ويسميها د. القرضاوي بـ «منطقة الفراغ التشريعي»، وهي المنطقة التي تركتها النصوص- قصدا - لاجتهاد أولي الأمر والرأي، وأهل الحل والعقد في الأمة، بما يحقق المصلحة العامة، ويرعى المقاصد الشرعية، من غير أن يقيدنا الشارع فيها بأمر أو نهي (٢٠).

• وتستوعب ثالثا أن العلماء قد أوسعوا «منطقة الفراغ التشريعي» - وغيرها مما هو محل للاجتهاد - تنظيرا وتقعيدا ودرسا، ومن غير المعقول أن نرمي وراء ظهورنا جهودهم التي تراكمت عبر قرون متطاولة! لاسيما وأن أحدا لم يزعم العصمة أو القداسة لعالم أو مفكر، فلا عصمة إلا لرسل الله وأنبيائه عليهم جميعا الصلاة والسلام.

• وتعي رابعا أن «التراث» و«المعاصرة» هما وجهان للنهضة الراشدة، لا غناء بأحدهما عن الآخر.

وتبقى الأمانة معلقة برقابنا تستحثنا على مواصلة طريق الاجتهاد والإبداع، مستفيدين من تلك الثروة والآليات والمناهج، مطورين لها، مشدودين دائما إلى النص القرآني والنبوي ومقاصدهما، غير متجاوزين للثوابت والقطعيات، وغير مسفهين لمن سبقونا على الدرب، وغير منقطعين عن الاستفادة مما عند غيرنا في إطار رؤيتنا وثوابتنا.

حينئذ نكون قد أحسنا قراءة «التراث» قراءة صحيحة، وأدينا حقه وأمانته عندنا، وقمنا بواجبنا كما ينبغي نحو واقعنا المعاصر وتحدياته.

الهوامش

(١) من تقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة لكتاب: «التراث والمعاصرة»، د. أكرم ضياء العمري، ص: ٨، ٩، سلسلة «كتاب الأمة»، العدد رقم ٦٧، ط١، ١٤٠٥هـ، قطر.

(٢) د. أكرم ضياء العمري، «التراث والمعاصرة»، ص: ٣٥.

(٣) د. طه عبدالرحمن، «سؤال المنهج»، ص: ٥٩، ط١، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت.

(٤) د. محمد عابد الجابري، «نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي»، ص: ٥٢، ٥٣، المركز الثقافي العربي، ط٤، ١٩٨٥م، الدار البيضاء.

(٥) راجع «المعجم الوسيط»، ص: ١٠٦٦، ١٠٦٧، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٨م، مكتبة الشروق الدولية.

(٦) جاء في «التحرير والتنوير» لابن عاشور: «والتراث: المال الموروث، أي: الذي يخلفه الرجل بعد موته لوارثه».

(٧) سامي خشبة، «مصطلحات فكرية»، ص: ٦٦، طبعة مكتبة الأسرة ١٩٩٧م.

(٨) د. محمد عابد الجابري، «التراث والحداثة: دراسات ومناقشات»، ص: ٣٠، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩١م، بيروت.

(٩) د. أحمد صدقي الدجاني، «فكر وفعل»، ص: ١٢٢، دار المستقبل العربي، ط١، ١٩٨٥م.

(١٠) المصدر نفسه، ص: ١٢٢.

(١١) من تقديمه لكتاب: «التراث والمعاصرة»، د. العمري، ص: ١٣.

(١٢) المصدر نفسه، ص: ١٣، ١٤.

(١٣) د. أكرم ضياء العمري، «التراث والمعاصرة»، ص: ٢٧، ٢٨، باختصار يسير.

(١٤) المصدر نفسه، ص: ٢٤.

(١٥) د. فهمي جدعان، «نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى»، ص: ١٧، دار الشروق، ط١، ١٩٨٥، عمان، الأردن. باختصار يسير.

(١٦) المصدر نفسه، ص: ١٧- ١٩، باختصار وتصرف يسير

(١٧) د. حسن حنفي، «التراث والتجديد»، ص: ١١٣، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٩٢، بيروت.

(١٨) المصدر نفسه، ص: ٥٢.

(١٩) د. محمد عمارة، «الإسلام بين التنوير والتزوير»، ص: ١٩٠، ١٩١، دار الشروق، ط١، ١٩٩٥م. باختصار وتصرف يسير.

(٢٠) د. يوسف القرضاوي، «الخصائص العامة للإسلام»، ص: ٢٢٣، مكتبة وهبة، ١٩٨٩. باختصار وتصرف.

عندما تنتهي ملايين المخطوطات حرقا أو غرقا:

التراث في أتون الحروب

علاء عبدالفتاح

«التراث في أتون الحروب» كتاب يأخذك في سياحة فكرية عبر الأزمان، منذ القرن الخامس الهجري إلى يومنا هذا.. كتاب أصدره معهد المخطوطات العربية بالقاهرة أخيرا لمؤلفته الدكتورة بغداد عبدالمنعم، التي ترصد لنا بدقة شديدة ما الذي جرى لمخطوطاتنا الثمينة التي وضع فيها الباحثون العرب خلاصة فكرهم، فإذا بها تلقى في النهر أو تحرق، وتضيع هباء منثورا، لأن جيوشا جوفاء - بشهادة مؤرخي الغرب أنفسهم - رأت فيها آلات فكر يعجز أعتى المقاتلين فيها عن صناعة مثلها.

من بغداد إلى الشام إلى الأندلس.. مئات الآلاف من المخطوطات نسفت نسفا، وفي أفضل الحالات سرق ما تبقى منها ليتجمد في متاحف الغرب.

والسؤال ذو الشجون: ترى ما حال أمتنا لو بقيت تلك المخطوطات سليمة في بلادنا؟ ماذا لو أنها طبعت أو أعيدت طباعتها واستفاد منها الباحثون المحدثون؟!

تقع الدراسة في ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط، وفي ثلاثة فصول، فصلها الأول لعاصمتي التراث المخطوط في سورية (حلب ودمشق)، وفصلها الثاني لفلسطين، وفصلها الثالث للعراق. وتبنت الدراسة - كما يقول د. فيصل الحفيان في مقدمتها - مقولة أساسية هي أن الحرب على الإنسان لا تنفك أبدا عن تراثه، وأن القتل كما يتوجه إلى الحياة يتوجه أيضا بالدرجة نفسها من القصد والعنف إلى عقله، وتحديدا إلى ذاكرته الحضارية (تراثه).

وبحسب الحفيان، فإن الباحثة ترجع بفكرة الاعتداء على التراث إلى القرن الخامس الهجري، الذي جرت فيه أول عملية إعدام علمي للتراث المخطوط في المشرق العربي، مؤكدا أن التراث الفكري العربي وقع تحت رحى التاريخ: الإحراق والإغراق في الشام والقدس وبغداد وقرطبة وغرناطة، وكان الأمر يتم بمراسيم ملكية! ورحى الحاضر الذي علا فيه صوت السرقة بعد أن نضج وعي الآخر بأهمية التراث، وكان القصد أيضا إلى المناطق نفسها: سورية وفلسطين والعراق.

ويضيف: صار واضحا أن سرقة التراث هي البوابة لسرقة التاريخ والجغرافيا جميعا، إضافة - بالطبع - إلى سرقة الإنسان نفسه.

ترجع د. بغداد ما حل بأمتنا إلى الوسطية المكانية التي تتمتع بها المنطقة العربية في العالم، والجسرية التاريخية العميقة التي حملتها حضارتها، باعتبارها سمات وضعتها أمام تناقض مستمر، طرفا هذا التناقض هما الحرب والمعرفة، الحرب والتراث، ومن ثم الحرب والتراث المخطوط، مفصلة بالقول «أما الحرب فقد أتتها من شرقها الآسيوي البعيد نسبيا، ومن غربها الأوروبي القريب. وأما التشكلات المعرفية وتناميها، فكانت أداءها الحضاري القائم دوما في بنيتها. وهذه الوسطية وهذا «التجسير» الذي كان قدرها، جعلا منها حضارة من دون عقد ولا توجسات، وأنتجا جانبها المنفتح على الآخر، وربما كان ذلك سببا من الأسباب التي أوقعتها في مآزق كبيرة، فقد بدأ الاستحواذ والحرث في تراثها المخطوط بتربته الخصبة البكر، ومن ثم تعرضت للطمس، فاختفى الزمن الحضاري العربي في التاريخ «العالمي» الذي حرره الغرب معتمدا منجزاته التاريخية بأصولها اليونانية - اللاتينية، ومستبعدا المنجزات العربية السامقة في عملية إنكار غير مسوغ لم يعرف العالم مثلها حتى الآن».

وتخلص الباحثة إلى أن لدينا الملايين من كتبنا لم تدن بعد من المطبعة، لما تزل بخطوط بأحبار النساخ، أو بخطوط مؤلفيها، أو لعلها قد تكون نسخة وحيدة باقية.. بعض هذه المخطوطات تجاوز عمرها ألف عام.

أمثلة محددة

ويطرح الكتاب أمثلة محددة، فيذكر أنه في نهايات القرن الخامس الهجري هاجمت الحملة الصليبية الأولى (٥٠٣هـ/١١٠٩م) مخطوطات مكتبة بني عمار في طرابلس الشام، فأحرقتها، ثم أغرقتها في النهر (نهر أبي علي)، وكان ذلك أول وأضخم إعدام علمي للتراث المخطوط في المشرق العربي، فقد قضي على مئة ألف مخطوط من المجاميع الكبيرة الواسعة في مجالات العلوم والآداب والفلسفة والفلك، وهي مخطوطات نفيسة، وصفها المؤرخون بفخامة التجليد وجودة الزخرفة والتذهيب.

وخلال مئتي سنة استغرقتها هذه الحملات جرى تدمير كثير من خزائن التراث المخطوط في المدائن الشامية، ومنها خزائن المسجد الأقصى في القدس وسائر المدن الفلسطينية، وكانت الصدمة الأولى حين دخل الصليبيون مدينة القدس في سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م) فأجهزوا على بنيتها البشرية والثقافية.

المصير نفسه

ويحكي الكتاب أن الصليبيين قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، فيهم جماعات كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم، الذين جاوروا بذلك الموضع الشريف، وكان مصير المخطوطات العربية في معظم مدن بلاد الشام هو مصير مخطوطات القدس.

المغول

ومن بين أهم الخزائن التي دمرتها الحروب الصليبية، خزانة «أسامة بن منقذ» صاحب قلعة شيزر قرب حماة في سورية «فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة»، وقبل أن تنحسر الحملات الصليبية نهائيا عن المشرق العربي، وفي منتصف القرن السابع الهجري، اجتاح المغول بغداد، وأغرقوا مخطوطاتها في دجلة. ومع نهاية القرن التاسع الهجري تشهد أوروبا في جزئها الجنوبي إعداما هائلا جرى فيه إحراق مليون مخطوطة عربية وغير عربية من خزائن قرطبة وغرناطة أمام الملكين المنتصرين فرديناند وإيزابيلا.

سرقة مستمرة

توضح الباحثة أن اهتمام الأوروبيين ازداد بالتراث العربي المخطوط بعد وجودهم الطويل في بلاد الشام في أثناء الحروب الصليبية، وبدأوا في عمليات الاستحواذ عليه بأساليب وطرق متعددة، وقد ارتبط هذا الأمر بالقرارات العليا في دولهم، وعلى سبيل المثال نقل لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦-١٢٧٠م) معه من دمياط مخطوطات عربية وقبطية، واحتذى حذوه كثيرون من أمراء الفرنسيين وأغنياء حجاجهم الذين رافقوا الملك في زيارته الأماكن المقدسة، في حين وقع عدد آخر من خزائن المخطوطات العربية في أتون حروب جديدة، وقامت المدفعيات هذه المرة بقصف المخطوطات مباشرة.

المكتبات البغدادية

مع حلول القرن السابع الهجري كانت البنية العسكرية للدولة العباسية في

أدنى مستوياتها، غير أن المكتبات البغدادية كانت قد امتلأت بمخطوطاتها التي تمثل مجمل المنتج المعرفي في كل أنحاء المناطق التي انتشر فيها الإسلام وانداحت فيها الثقافة العربية، حتى إننا نستطيع القول إن الدولة العباسية تحولت قبيل سقوطها إلى دولة «مكتبة»، فغدت المكتبة تمثلها أكثر من أي شيء آخر. ويمكن أن نلاحظ أمرا غاية في الفرادة، وهو أن العمل الوحيد الذي قام به الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله وخيول المغول تقترب حثيثا من بغداد، هو إنشاء عدة خزائن ضخمة للكتب (المخطوطات).

وكانت العقوبة الأولى التي أنزلها المغول بالدولة العباسية حين اجتاحوا بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) هي إعدام مخطوطاتها غرقا في نهر دجلة، فقد استشعروا أن في هذا التراث تكمن «شيفرة» الإبداع وسر هذه الحضارة، فقرروا تدميره في لحظة انتصارهم.. قتلوا الخليفة، وقتلوا جيشا من المبدعين والكتاب والفنانين.. كانت المكتبات مهيبة بمخطوطاتها، فبدت لهم وكأنها تفضح فراغهم وهي ترمقهم بثقلها المهول.. كانت تلك عقدة العسكري الأجوف «المنتصر» أمام مدينة حبلى بالحضارة.

ويستمر الكتاب ساردا بدقة شديدة تاريخ تراثنا المنهوب أو المحروق في دراسة بديعة قلما جادت المكتبة العربية بمثلها.

٤٤ جدولا عبر التاريخ والجغرافيا

حرصت الباحثة على أن تسجل عبر ثلاثية الجغرافيا والتاريخ والحاضر أماكن المخطوطات، وما تعرضت له من أخطار عبر ألف عام، وما آل إليه حالها اليوم، وقد سيطرت على معجمها اللغوي - للأسف - ألفاظ الاندثار والخراب والهدم والدمار والنهب والفقد والضياع.

ومن فضائل هذه الدراسة ٤٤ جدولا سندت اللغة بالأرقام وبالعناوين المحددة وبالأوصاف الدقيقة.

الحرب	تاريخها	أثرها
الحروب الصليبية ثماني حملات عسكرية سبقتها حملة شعبية	٤٩٠-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م	تدمير خزائن المخطوطات في القدس ودمشق وحلب وطرابلس الشام، ثم نهبها في ما بعد
معركة حطين	٥٨٣هـ/١١٨٧م	إعادة بناء خزائن المخطوطات في القدس وحلب ودمشق
الاجتياح المغولي لبغداد	٦٥٦هـ/١٢٥٨م	إغراق خزائن بغداد في نهر دجلة
معركة عين جالوت	٦٥٨هـ/١٢٥٩م	تحجيم الوجود المغولي - التمكن من تأسيس بنى ومؤسسات ثقافية علمية وتعليمية على قاعدة عريضة من خزائن المخطوطات
سقوط غرناطة	٨٩٨هـ/١٤٩٢م	حرق المخطوطات في حادثة علنية مشهورة في ساحة الرملة بغرناطة. متابعة إعدام المخطوطات العربية أينما كانت في نطاق غرناطة وأريافها بواسطة محاكم التفتيش وقراراتها.

علاقة الحروب التاريخية بالتراث العربي المخطوط

سالو الحسن
باحث بجامعة نيامي - النيجر

المخطوطات العربية في إفريقيا نموذجا:

كنوز تاريخية مهددة بالضياع

يرمي هذا المقال إلى إبراز وجود التراث العربي المخطوط في إفريقيا، وبيان أماكن وجودها، ومحاولة الحكومات والأفراد والمنظمات التي تعتني بحماية هذه الكنوز لإنقاذها من الضياع، وجهود علمائها في مجال التأليف، وقد شرعت بذكر بعض الدول التي يوجد فيها هذا التراث، مبتدئا بالنيجر ونيجيريا ومالي وبوركينا فاسو كنموذج للدول الإفريقية الغربية، ليكون هذا العمل منطلقا يعتمد عليه أبناء القارة في تقويم تراثهم العربي الإسلامي الذي خلفه علماء المنطقة.

تحتضن بعض مراكز تاريخية حكومية وغيرها في إفريقيا آلافا من المخطوطات النفيسة التي تحتوي على العلوم العربية والإسلامية وغيرها من العلوم. ويذكر أن وجود المخطوطات في إفريقيا الغربية يعود إلى دخول الإسلام وانتشاره فيها، منذ فجر الدعوة الإسلامية. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن في بعض الإمبراطوريات الإسلامية في غرب إفريقيا: إمبراطورية غانا (١)، وكانم برنو (٢)، وخلافة صكتو (٣)، كانت اللغة العربية لغة التخاطب والعمل، «وكانت اللغة العربية لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية في غرب إفريقيا، منذ أن رسخ قدم الإسلام فيها، وأصبحت الثقافة الإسلامية هي السائدة في المجتمع، وبخاصة في عصور الإمبراطوريات الإسلامية المذكورة» (٤). ونتج عن ذلك ميلاد التراث العربي المخطوط لوجود حركة الكتابة وتشجيع السلاطين التقليديين العلماء في دفع عجلة اللغة العربية وثقافتها إلى الأمام.

أما في النيجر، فإن أول من قام بجمع واقتناء هذه الكنوز هو بوبو هما، رئيس المجلس الوطني النيجري عام ١٩٧٤م، وجاءته فكرة جمع هذه النفائس انطلاقا من أعماله في التاريخ، وعلم الاجتماع والسلالة. حيث أدرك أهمية التراث العربي المخطوط في معرفة وإعادة كتابة تاريخ بعض القبائل في النيجر والدول المجاورة. وكانت هذه المخطوطات في مكتبه الخاص بالمجلس الوطني النيجري، قبل أن يتم نقلها إلى معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بجامعة نيامي، بعد الانقلاب العسكري عام ١٩٧٤م (٤). وفي هذا العام تم فتح قسم المخطوطات العربية والعجمية التابع لجامعة نيامي، والذي كلف بمهمة المضي قدما في اقتناء المخطوطات في جميع أنحاء النيجر، والمحافظة عليها، والتحقيق وترجمة بعض النفائس منها.

وفي إطار التعريف بكنوز المخطوطات الموجودة في النيجر، قام الدكتور حسن مولاي، رئيس قسم المخطوطات العربية والعجمية بمحاولة ناجحة، متمثلة في إعداد فهرس لجميع المخطوطات الموجودة في المخزن، وبالتعاون مع مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي الموجودة في لندن، تم فهرسة هذه المخطوطات البالغ عددها ما يزيد على أربعة آلاف مخطوطة، مختلفة الأحجام في ثمانية مجلدات. وبعد الانتهاء من عملية الفهرسة، قام القسم بترجمة وتحقيق بعض مخطوطات نفيسة،

منها على سبيل المثال لا الحصر: تحقيق كتاب للشيخ عثمان بن محمد ابن فودي، المتوفى في ١٢٣٣هـ-١٨١٧م بعنوان: «فتح البصائر لتحقيق وضع علوم البواطن والظواهر» (٥)، حققه وعلق عليه الدكتور سيني مومونى وسالو الحسن، وتحقيق مخطوط آخر في تاريخ قبائل زرما التي تقطن منطقة تيلابيري، والجزء الشمالي لدولة مالي بعنوان: «خطوات أهل سندر»، تحقيق

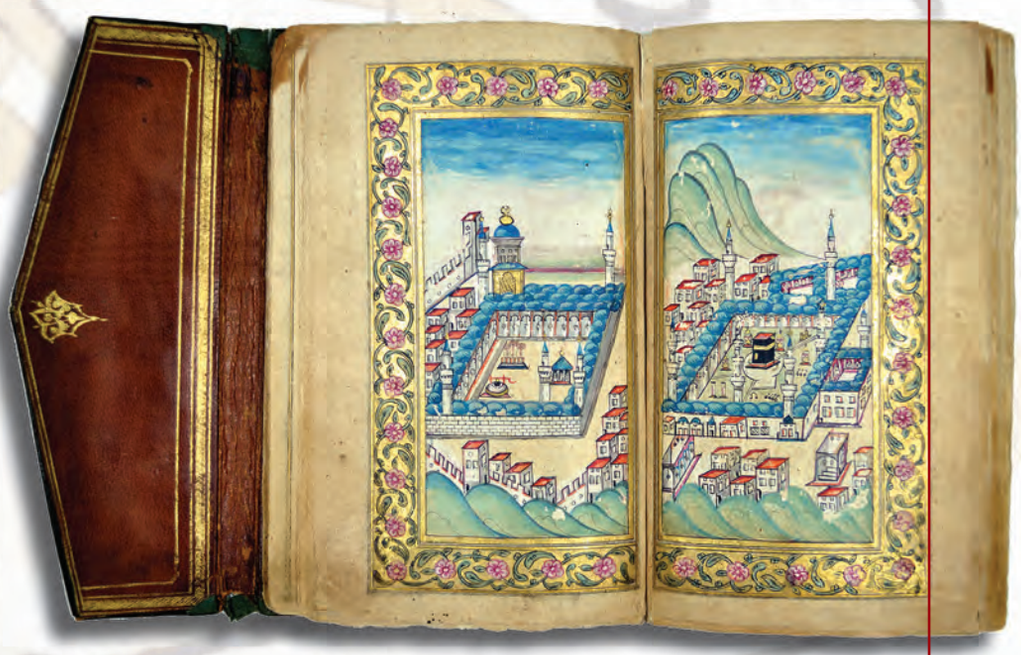

الدكتور أيوب لوالي وسالو الحسن، وترجمة مخطوط آخر إلى الفرنسية: «تاريخ أبلغ وغيرها من المناطق» للشيخ عيسى بن منصور الأغلالي، وترجمه إلى الفرنسية الدكتور حسن مولاي، رئيس القسم، وتحقيق مخطوط آخر للشيخ عثمان بن محمد بن فودي بعنوان: «أجوبة محررة عن أسئلة مقررة في جواب الشيخ شيصمص بن أحمد»، قام به الدكتور أيوب لوالي، وإعداد فهرس المخطوطات التاريخية الموجودة بقسم المخطوطات، من إعداد الدكتور حسن مولاي.

وعند انعقاد المعرض الأول للمخطوطات في مدينة أغدس الواقعة في شمال النيجر عام ٢٠١٢م، بغية إخراج هذه الكنوز من طي النسيان إلى عالم الوجود، أكد الدكتور سيني مومونى، رئيس قسم المخطوطات على أن الآلاف من المخطوطات النادرة والنفيسة، بعضها موجود في المراكز الحكومية، وأخرى بحوزة مواطنين في المكاتب الأسرية، لا يملكون الإمكانيات المادية والتقنية الحديثة لحفظها من التآكل والظروف الطبيعية وغيرها. وقال: إن عشرة في المائة من هذه المخطوطات معرضة للخطر، بعضها به أثر الرطوبة، وبعضها مهدد لسوء الحفظ والصعوبات التي تعترض الجهود الرسمية لإنقاذها من الضياع.

وانطلاقا من هذه الأعمال الجليلة في خدمة التراث العربي الإسلامي، فإننا نشير إلى أهمية هذه الكنوز، وضرورة الحفاظ عليها بالوسائل الحديثة.

هذا وإن قسم المخطوطات العربية والعجمية التابع لمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بجامعة نيامي بصدد تنفيذ جزء من مشروع اقتناء المخطوطات الموجودة في أيدي المواطنين في مناطق النيجر، على الرغم من قلة الإمكانات. حيث بدأ بمنطقتي مرادي وتيلابيري، وتم العثور على مخطوطات كثيرة، مكنت القسم من مواصلة الجزء التاسع من الفهرسة. وأنجز القسم ما يزيد على ٢٠٪ من ذلك المشروع الذي سيشمل جميع مناطق أخرى، لاقتناء وتزويد أصحاب المكاتب الأسرية بخبرات، لحماية كنوزهم المخطوطة من الاندثار، وعدم السماح ببيعها خارج النيجر.

وتزخر جمهورية نيجيريا الاتحادية بالمكتبات التي تشرف عليها الحكومة والمكتبات الخاصة. ومن أبرزها: مركز البحوث وجمع المخطوطات بجامعة بايرو، ويسمى هذا المركز بمركز الوثائق، تم تأسيسه عام ١٩٧٥م لمساعدة الباحثين والطلبة في جمع مواد بحوثهم وتنظيمها (٦). ويبلغ عدد المخطوطات في المركز حوالى ألف مخطوط في التاريخ والعلوم والملفات الحكومية، ومجموعة من مسجلات رئاسة المستعمرات البريطانية، ما بين عام ١٨٩٩م إلى ١٩٤٨م، وبعضها مصور على ميكروفيلم. وتنوعت مضامين المخطوطات الموجودة في مخزن المركز بين العلوم الشرعية والطب والتاريخ، وبحوث المؤتمرات العالمية في مواضيع مختلفة وغيرها من العلوم النافعة. وأغلب مخطوطات المركز فيه تنتمي إلى أسرة الفوديوية الشهيرة بنشر العلم والثقافة الإسلامية في هذا الجزء من نيجيريا الاتحادية.

ومركز التاريخ بولاية صكتو الذي أنشئ في عام ١٩٧٥م بأمر من الوزير جنيد (٧) بن محمد البخاري عام ١٩٠٦م، بغية إعادة الناس إلى تراثهم وتراث أجدادهم، ويقوم بمهمة حفظ كل ما له صلة بخلافة صكتو، ونشره وتطويره وحفظ المخطوطات وصيانتها وترجمتها، واقتناء المخطوطات الأخرى، ناهيك عن تقويمها وتوجيه الطلبة في البحث. ويمتلك المركز آلاف المخطوطات في شتى ميادين المعرفة. وللقسم علاقة التعاون مع عدة مراكز في إفريقيا، منها: قسم المخطوطات العربية والعجمية بجامعة نيامي، و مركز أحمد بابا في جمهورية مالي وغيرها من المراكز التي تحتضن المخطوطات.

وتوجد في المركز قائمة تحتوي على المخطوطات التي يتصفحها الباحث عند قيامه بزيارة المركز. والملاحظ أن جل هذه المخطوطات تعاني من مشكلة الحفظ، كغيرها من المخطوطات الإفريقية. والمركز بصدد إعداد فهرس للمخطوطات، بالتعاون مع مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.

كما يوجد قسم المخطوطات في جامعة أحمد بلو بزاريا، وهو من أقدم المراكز المتخصصة في حفظ التراث العربي الإسلامي، حيث ساهم في تأسيس العديد من المتخصصين. ويحتوي على مخطوطات قيمة ونفيسة، جمعت من شمال نيجيريا، وتم تصنيفها حسب الأسماء (٨).

أما فيما يخص المكتبات الإسلامية الخاصة، فإنه من الصعب حصرها، وحصر عدد مقتنياتها لكثرتها، وهذا راجع إلى اهتمام أهل نيجيريا بجمع الكتب وتكوين المكتبات.

المخطوطات في مالي

لا يمكن الحديث عن المخطوطات العربية في إفريقيا دون التطرق إلى المخطوطات الموجودة في مالي، وخاصة في مدينة تمبكتو، التي تحتوي على مجموعة تقدر بعشرة آلاف مخطوط، أكثرها بالعربية، وأخرى باللغات المحلية، وهي التي يطلق عليها اسم المخطوطات العجمية. ولا يستطيع الباحث بهذه العجالة إلقاء الضوء على جميع المخطوطات في مالي، ولا بيان عددها بشكل محدد لكثرتها، ولأنها أيضا محاطة بالأسطورة. أما فيما يخص وضعيتها، فإنها مهددة بالعواصف الرملية، والنمل الأبيض، وبعضها ممزق، وبعضها أيضا مهدد بآثار الرطوبة، أو متآكل الأطراف، أو مبتور البداية أو النهاية. وقد تعرضت بعض مخطوطات تمبكتو للسرقة والنهب، وهدم آثار تاريخية من قبل المجموعة الإسلامية المسلحة التي تريد تطبيق الشريعة الإسلامية في مالي.

ويعد مركز أحمد بابا (٩) من أهم المراكز التي تعتني بالمخطوطات هناك، وقد ساهمت منظمة اليونسكو في الحفاظ على مخطوطات مالي، وقامت جنوب إفريقيا ببناء المركز الجديد الذي يحتوي على المخطوطات في المركز.

أما مكتبة ماما حيدرا التذكارية، فإنها تحتوي على آلاف من المخطوطات، تم فهرسة الجزء الكبير منها، بالتعاون مع مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي. وقام مركز جمعة الماجد بدبي بتزويد المكتبة بأحدث الأجهزة للترميم ورقمنة المخطوطات، كما فعلت لبعض مراكز المخطوطات في العالم.

بوركينا فاسو

ويوجد العديد من المخطوطات في بوركينا فاسو، في مكتبات خاصة، كتبها جهابذة العلماء، منهم العلامة الحاج محمد مرحبا الذي ألف أكثر من ٥٠ مخطوطا في شتى العلوم. وقد قام الباحث كبير حسن من النيجر بإعداد رسالة الماجستير في جامعة عثمان بن محمد بن فودي حول إحدى مخطوطات الإمام محمد مرحبا في الصرف. ويمتلك قسم المخطوطات العربية والعجمية بجامعة نيامي أغلب مخطوطات الإمام.

الخاتمة

من خلال هذا العرض السريع حول الكنوز المخطوطة في إفريقيا، والذي لا يدعي فيه الباحث الكمال، فإنه تمكن من إلقاء الضوء على جانب من التراث العربي الإسلامي، الذي تعج به تلك القارة، وأماكن وجودها، وحالاتها المادية، وبيان أن هذه المقتنيات تمثل بمحتوياتها المعرفية الثروة الثمينة التي تعد شاهدا ناطقا على النهضة الفكرية والثقافية التي شهدتها بعض الدول الإفريقية على مر العصور، كما تعكس هذه المخطوطات مهارة علماء الأفارقة، وإبداعاتهم في شتى فنون المعرفة. فبناء على كون هذا التراث الإنساني جزءا لا يتجزأ من تراث الأمة الإسلامية، فإن الباحث أشار إلى الظروف المادية المحيطة بتلك الكنوز، وضرورة مشاركة فعالة للسلطات والمنظمات الدولية التي تهتم بالتراث، وكذلك الأفراد والمؤسسات من خلال تقديم دعم جوهري يمكن من إنقاذها، حتى لا تتعرض لمزيد من المخاطر.

الهوامش

١- إبراهيم طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة عام ١٩٧٥م، ص ١٨.

٢- الدكتور علي يعقوب: إسهام علماء الأفارقة في الثقافة العربية والإسلامية، مطبعة تنمولا- لاغوس نيجيريا، ص ٤.

٣- سالو الحسن، التراث العربي المخطوط في جمهورية النيجر، مكتبة مخطوطات أبلغ نموذجا، مجلة التواصل، العدد ٢٠، ص ١٩٧.

٤- سالو الحسن، فهرس المخطوطات العربية في مدينة أبلغ بجمهورية النيجر، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير، جامعة عثمان بن فودي، عام ٢٠٠٧-٢٠٠٨م، ص ١٨٥.

٥- د. سيني مومني وسالو الحسن، تحقيق المخطوط بعنوان: «فتح البصائر لتحقيق وضع العلوم البواطن والظواهر»، مطبعة ENS EDITIONS ٢٠١٢م، ص: ١٤.

٦-الطيب عبدالرحيم محمد، المخطوطات العربية في نيجيريا الاتحادية، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت ١٤٠٧هـ-١٩٨٥م، ص١٥.

٧- المرجع السابق.

٨- ولد الزوير جنيد عام ١٩٠٦م، وتوفي والده محمد البخاري عام ١٩١٠م، فكفله عمه الوزير محمد سمبو بن أحمد. ختم الوزير جنيد القرآن الكريم في العاشرة من عمره، ثم جالس العلماء لدراسة العلوم الإسلامية. ومن علمائه إمام مسجد محمد بلو الذي قرأ عليه كتب الشيخ عثمان بن محمد بن فودي رحمه الله، والشيخ يحيى ابن الوزير خليل لدراسة الأدب والشعر العربي، ثم القاضي يحيى بن الوزير عبد القادر حيث قرأ عليه كتب الحديث. وفي عام ١٩٦١م، منحته جامعة أحمد بلو درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب.

٩- هو العلامة أحمد بابا التنبكتي، ولد عام ١٥٥٦م، ولم يوجد عالم في تمبكتو أو السودان الغربي في سعة علمه وشهرته. ومن آثاره: كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج.

(معاملة النبي ﷺ للمنافقين نموذجا)

منهج الإسلام في إخماد الفتن

عبدالعلي الوالي
باحث دراسات إسلامية

إن الباحث في علاقة النبي ﷺ مع أهل النفاق، ليلفيه حكيما، وطبيبا، يتقن كيفية التعامل مع الداء، وإنتاج الدواء المناسب له، حيث كان ﷺ يعاملهم بأساليب مختلفة، تتفق مع أفعالهم، ومدى خطورتها على الدعوة الإسلامية، وخطورتها على المسلمين، إذ كان همه الأكبر صلوات ربي وسلامه عليه هو الحفاظ على أمن واستقرار الدولة الإسلامية الناشئة، وإليك أخي القارئ الفاضل لمحة عن أساليب معاملة النبي ﷺ للمنافقين:

أولا: أسلوب الصبر وعدم الإرغام على الفعل

رغم أن بعض المنافقين كانوا يعاملون النبي ﷺ بسوء أدب، وكانوا يظهرون له أحيانا بغضهم له، ولدعوته، ويرفضون تقديم أي خدمة في سبيل الدعوة إلى الله تعالى والجهاد في سبيله، فإننا وجدناه ﷺ يصبر على سوء معاملتهم، ولا يجبرهم على تقديم العون المادي والمعنوي للمسلمين، وإذا تتبعنا السيرة النبوية فسنقف على مشاهد كثيرة لذلك، أكتفي بعون الله تعالى بواحد منها.

ذكر صاحب الروض الأنف أن المنافق مربع بن قيظي (١) قال للنبي ﷺ حين كان عامدا لأحد: «لا أحل لك يا محمد إن كنت نبيا، أن تمر في حائطي»، بل أكثر من هذا، أخذ في يده حفنة من تراب، ثم قال: «والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به»، فهل كان جواب النبي ﷺ على هذا الفعل: اقتلوه، أو: اقطعوا رأسه؟ لا، لم يكن رد الرسول ﷺ كذلك، وإنما قال لما ابتدره البعض ليقتله: «دعوه فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصيرة». (٢)

وبالتالي فيستفاد من هذا الخبر أمران:

الأول: الصبر على هذا المنافق، وعدم معاقبته على فعله الشنيع.

الثاني: عدم إجباره على مرور جيش النبي ﷺ بحائطه.

ثانيا: أسلوب الإخفاء وعدم التشهير

من الثابت أن الله تعالى أخبر النبي ﷺ بأخبار المنافقين واحدا واحدا، والدليل على ذلك قول أنس في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ (محمد: ٣٠)، قال أنس: «فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ، عرفه الله ذلك بوحي أو علامة، عرفها بتعريف الله إياه» (٣).

ومن المعروف أيضا أن النبي ﷺ أسر إلى حذيفة أسماء المنافقين، حتى إن عمر ناشده: أأنا من المنافقين؟ فقال: لا، ولا أزكي أحدا بعدك (٤).

لكن السؤال المطروح هنا هو: لماذا لم يخبر النبي ﷺ عن المنافقين صحابته الكرام، وترك ذلك سرا؟

ربما إن ذلك يرجع لحكم، منها:

- أن الإسلام يعلمنا كيف نحكم على ظواهر الناس، ونترك سرائرهم للخالق عزوجل.

- أن في سترهم تحفيزا على الاجتهاد في العمل، وترك أعمالهم الدنيئة، لأن كل واحد من الصحابة يخشى على نفسه أن يكون منهم، كما عبر عن ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه

- أن من كان خطر إظهار أمره أشد من خطر إخفائه، فالأولى ستره.

وهكذا. والله تعالى أعلم - لو فضح النبي ﷺ أمرهم، لأدى ذلك إلى فتنة عظمى، لأن هؤلاء المنافقين كانوا ينتمون إلى قبائل مختلفة، فلو كشف النبي ﷺ أمرهم لعيرت كل قبيلة غيرها بمنافقيها، وربما أدى ذلك إلى نبذهم داخل المجتمع، وذلك قد يكون سببا في عدم توبتهم.

ثالثا: أسلوب الحكم على الظواهر

لقد عامل الرسول ﷺ المنافقين الذين كان كفرهم أشد من الكفار الصرحاء معاملة المسلمين في أحكام الدنيا، فلم يفرق بينهم وبين غيرهم من صحابته رضي الله عنهم، على رغم أن سيرتهم كانت دالة دلالة لا لبس فيها أنهم يكفرون بالله ورسوله وباليوم الآخر، ولم يكونوا مؤمنين مطلقا. وبهذا يعلم أن من أظهر الإسلام، ودلت القرائن على كفره، لا يعامل معاملة الكفار حتى يكون كفره صريحا.

وقد كان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يتخذون ما يبدو لهم من القرائن الدالة على خيانة بعض الأشخاص، ممن أظهروا إسلامهم، حجة على عدم إيمانهم، ويستأذنونه في قتلهم، ويصفونهم بالمنافقين، لما يظهر لهم من أن نفاقهم نفاق اعتقادي، أي إنهم كفار، وليسوا بمسلمين. فكان رسول الله ﷺ يدافع عمن عرف صدقه وإيمانه، ويقبل عذره، ويذكر ما له من فضائل، كما في قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، الذي كشف في رسالة له سر رسول الله ﷺ من عزمه على فتح مكة أرسلها إليهم مع امرأة، وكان ﷺ قد أخفاه ليهاجم قريشا قبل أن يستعدوا لقتاله.

فلما كشف أمر حاطب، قال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال الرسول ﷺ: «إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» (٥).

أما من دلت القرائن على نفاقه، ولم يعلم الرسول ﷺ صدقه، وترجح له أنه منافق فعلا، فلم يكن ﷺ يدافع عنه ولا يثني عليه، ولكنه لا يقر أحدا على قتله، ويعلل ذلك بأنه قد أظهر للناس أنه من المسلمين، والإسلام يعصم دماء من أظهره وماله، فإذا أذن في قتله ظن الناس أن محمدا يقتل من آمن به (٦).

قال الإمام الشافعي رحمه الله مبينا منهج النبي ﷺ في حكمه على ظواهر المنافقين: «وفي سنة رسول الله ﷺ في المنافقين دلالة على أمور، منها: لا يقتل من أظهر التوبة من كفر بعد إيمان، ومنها أنه حقن دماءهم وقد رجعوا إلى غير يهودية، ولا نصرانية، ولا مجوسية، ولا دين يظهرونه، إنما أظهروا الإسلام، وأسروا الكفر، فأقرهم رسول الله ﷺ في الظاهر على أحكام المسلمين، فناكحوا المسلمين، ووارثوهم، وأسهم لمن شهد الحرب منهم، وتركوا في مساجد المسلمين» (٧).

رابعا: أسلوب قبول إبداء الرأي

فيما أعلم - والله أعلم - لم يثبت عن النبي ﷺ أنه منع أحد المنافقين من التعبير عن رأيه، وأحيانا كان ﷺ يقبل آراءهم، ولو مكرها.

والدليل على ذلك قصة المنافق عبد الله بن أبي مع النبي ﷺ في شأن بني قينقاع، فلما فعل بنو قينقاع ما فعلوا بالمرأة المسلمة، (٨) وهددوا النبي ﷺ، (٩) حاصرهم ﷺ خمس عشرة ليلة، حتى

نزلوا على حكمه.
فتدخل المنافق عبد الله بن أبي، ليجنب مواليه العقاب، فقال: «يا محمد أحسن في موالي»، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: «يا محمد، أحسن إلى موالي»، فأعرض عنه، فأدخل يده في درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني»، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا، (١٠)، ثم قال: «ويحك! أرسلني»، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر (١١) وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة؟ إني امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: «هم لك» (١٢).
فمن هذا الخبر نستفيد ما يلي:
- أن النبي ﷺ لم يرفض أن يبدي هذا المنافق رأيه، فلم يقل له مثلا: اسكت أيها المنافق، لا حق لك في الكلام.
ويؤكد هذا الأمر، أنه لما اختلف الصحابة في مسألة الخروج لقريش من عدمه في غزوة أحد، كان رأي النبي ﷺ موافقا لرأي المنافق ابن أبي، وهو الإقامة بالمدينة ومقاتلتهم بها (١٣).
- أنه رفض رأيه لأنه لم يكن صوابا، وربما لو كان صوابا لقبله، والدليل على هذا الرفض، إعراضه عنه.
- أنه قبل رأيه أخيرا مكرها، لأنه رأى في ذلك مصلحة راجحة للدولة الإسلامية الناشئة، وهي تجنيبها الفوضى والخلاف، لأن ابن أبي المنافق كان زعيما، له أنصار، وكان نفاقه لم يظهر بعد بشكل واضح، إضافة إلى أن عددا كبيرا من اليهود لايزالون بالمدينة، ومن الممكن أن يجرؤوا على أعمال مسيئة للمسلمين.
كما أن هدف النبي ﷺ الأول هو إنهاء دسائس ومكر بني قينقاع، وليس قتلهم، وحتى إن فضل قتلهم، فمن أجل إخافة القبائل الأخرى المتربصة بالدولة الإسلامية الناشئة.

خامسا: أسلوب رد إرجافهم:

من أعمال المنافقين المشينة، أنهم كانوا يشككون في انتصار الإسلام، ويحاولون دائما تثبيط همم الصحابة رضوان الله عليهم، بادعائهم أن ما يقومون به مغامرات ستكون عواقبها وخيمة عليهم.
ففي غزوة الخندق لما ضيق العدو على المسلمين، وعظم البلاء عليهم، وجد بعض المنافقين ذلك فرصة لخلق البلبلة في صفوف جيش النبي ﷺ، فقال: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط» (١٤).
وقال آخر: «يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج من المدينة» (١٥).
فلما كثر الكلام، وتكلم المنافقون بكلام قبيح، تدخل النبي ﷺ ليعالج إرجافهم، فقال: «والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة والبلاء، فإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنا، وأن يدفع الله عز وجل مفاتح الكعبة، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله» (١٦).
وهكذا كان النبي ﷺ يرد باطلهم، ويقوي عزائم أصحابه، حتى لا يكون لهم أثر على قلوب المؤمنين الصادقين.

سادسا: أسلوب التدرج من المسامحة إلى المواجهة:

إن أعمال المنافقين كما عرف من سيرتهم تطورت شيئا فشيئا، ففي البدايات الأولى لظهور الإسلام في المدينة المنورة، ظهرت منهم أعمال عدائية للنبي ﷺ، إلا أنها كانت فردية، وكانت تظهر عبارة عن ردة فعل لواقعة ما، أو إبداء رأي في أمر ما، كما وقع في غزوة بني المصطلق حين كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فلما بلغ الخبر المنافق عبدالله بن أبي، قال: «قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن

كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» (١٧).

ثم ما فتئت أعمالهم أن تطورت إلى عقد اجتماعات وترتيب لقاءات، وإعداد الخطط للكيد للمسلمين، ظهر ذلك جليا أثناء الإعداد لغزوة تبوك، حيث بلغ النبي ﷺ أن ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، يثبطون الناس عنه في غزوة تبوك.

وكذلك إن أمعنا النظر في ردود أفعال الرسول ﷺ في وجه المنافقين، فسنجدها تدرجت حسب أفعالهم، فلما كانت أفعالهم فردية وعابرة كان ﷺ لا يوليها اهتماما كبيرا، فلما أصبحت أعمالا مخططا لها، تغير أسلوبه في التعامل معهم من الصبر والصفح إلى المواجهة، فالمنافقون الذين اجتمعوا في بيت سويلم اليهودي قصد الكيد للمسلمين، أرسل إليهم طلحة بن عبيدالله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خليفة (١٨) من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا (١٩).

وأمر رسول الله ﷺ أيضا بهدم مسجد الضرار وتحريقه، لأنه أنشئ بنية تفريق جماعة المسلمين (٢٠).

وخلاصة القول، أن تغير معاملة النبي ﷺ للمنافقين من اللين إلى الشدة، ترجع إلى ما يلي:

- تغير طريقة المنافقين من أعمال عابرة إلى أعمال تتسم بالتخطيط والإعداد، لتقسيم الدولة الإسلامية الناشئة، أو هدمها إن أمكن.
- زوال المحاذير التي كانت تمنعه من مثل هذه الردود، حيث انكشف أمرهم للجميع، وظهر خبثهم لمن معهم ولمن ضدهم.
- محاولة النبي ﷺ إبلاغهم رسالة مضمونها، أن أمرهم قد انكشف.

سابعا: أسلوب الحرمان من المناصب والمسؤوليات الحساسة في الدولة.

إن المتتبع لسيرة الرسول ﷺ يدرك جيدا مدى حذره ﷺ من مكائد المنافقين، ومن هذا الحذر أنه لم يول أحدا من المنافقين، قال ابن تيمية رحمه الله بهذا الصدد: «والنبي ﷺ لم يول على المسلمين منافقا» (٢١).

وفي الأخير أسأل المولى عزوجل أن يحفظ أمتنا من كيد المنافقين ومكرهم، وأن يجنبنا هذه الخصلة المذمومة التي تجعل صاحبها في أسفل سافلين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ (النساء:١٤٥).

الهوامش

١- لم يزد صاحب الإصابة في ترجمته عن قوله: «والد مرارة... عد في المنافقين، ويقال: تاب». (٦/ ٥٣).

٢- الروض الأنف، لابن هشام، تحقيق عمر عبدالسلام، دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢١٢/٤.

٣- تفسير القرطبي، تحقيق هشام البخاري، دار عالم الكتب، ص ٢٥٣/١٦.

٤- سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ص ٣٦٢/٢.

٥- السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة، ص ٣/ ٥٣٨.

٦- سيرة ابن هشام، دار الصحابة للتراث، ط: الأولى، ص ٢٨٧/٣.

٧- الأم للشافعي، دار المعرفة، ص٢٩٦/١.

٨- سيرة ابن هشام،٤٥٧/٢.

٩- المصدر السابق،٤٥٦/٢.

١٠- الظلل: جمع ظلة، وهي السحابة، (انظر مختار الصحاح، مادة ظلل، ص:١٩٦)، والمقصود بها هنا تغير وجه رسول الله ﷺ.

١١- حاسر: لا درع عليه ولا عمامة على رأسه. (انظر: لسان العرب، فصل الحاء المهملة ، ١٨٧/٤).

١٢- سيرة ابن هشام، ٤٥٧/٢.

١٣- المصدر السابق، ٧/٣.

١٤- المصدر السابق، ٢٠٦/٣.

١٥- المصدر السابق.

١٦- السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط:٣ رقم: ١٧٨٦٣، ٥٤/٩.

١٧- سيرة ابن هشام، ٢٨٦/٣.

١٨- روي أنه تاب وصلح حاله، وقيل: إن والد الضحاك هو الذي كان منافقا، والله أعلم. (انظر ترجمته في الإصابة: ٣/ ٣٨٤).

١٩- سيرة ابن هشام، ١٨٣/٤.

٢٠- المصدر السابق، ٢٠٢/٤، ٢٠٣.

٢١- الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، دار الكتب العلمية، ط، ١-١٩٨٧م، ٤٥١/٣.

فريضة الغائبة في مدارسنا:

إدارة الأزمات التعليمية

د. فرغلي هارون
باحث في علم الاجتماع

الأزمات على تعددها واختلاف أشكالها، حالة ملازمة للإنسان في كل زمان ومكان، فهي تحدث في البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة على حد سواء، مع اختلاف طبيعتها وعمق تأثيرها. وتمثل الأزمات التي تمر بها المؤسسة التعليمية نقطة حرجة وحاسمة في كيان المؤسسة، حيث تختلط فيها الأسباب بالنتائج، وتضطرب الأمور في مسارها المعتاد داخل المؤسسة، وقد يفقد المديرون قدرتهم على التعامل الفعال معها، واتخاذ القرار المناسب حيالها، في ظل عدم التأكد، وضيق الوقت، ونقص المعلومات، الأمر الذي قد يؤدي إلى إعاقة المؤسسة عن العمل لتحقيق أهدافها، وقد يؤدي أيضا إلى إحداث خسائر مادية أو بشرية أو كلتيهما.

والأزمة لغة هي: الشدة والقحط والضيق، حيث يقال: أزمت السنة أزما، أي اشتد قحطها. وتأزم، أي أصابته أزمة. ويعرفها فنك Fink بأنها: «نقطة تحول في حياة المنظمة نحو الأسوأ أو الأفضل. فهي حالة من عدم الاستقرار يحدث فيها تغيير حاسم في سير العمل في المنظمة، قد يؤدي إلى نتائج مرغوب فيها، أو نتائج غير مرغوب فيها» (١). بينما يعرفها محمد رشاد الحملاوي بأنها: «خلل يؤثر تأثيرا ماديا على النظام كله، ويهدد الافتراضات الرئيسية التي يقوم عليها النظام» (٢).

أما الأزمة التعليمية فيمكن تعريفها بأنها: «مشكلة أو حالة تواجه النظام التعليمي، وتحدث نتيجة لتراكم مجموعة من التأثيرات الخارجية المحيطة بالنظام التعليمي، أو حدوث خلل مفاجئ يؤثر على المقومات الرئيسية للنظام التعليمي يهدد بقاءه» (٣). وهي: «مشكلة أو حالة تواجه النظام التربوي، تستدعي اتخاذ قرار سريع لمواجهة التحدي الذي تمثله تلك المشكلة، غير أن الاستجابة الروتينية لمؤسسة الإدارة التربوية تجاه هذه المشكلة أو التحدي الذي تمثله المشكلة، تكون غير

كافية، فتتحول المشكلة حينذاك إلى أزمة تتطلب تجديدات في المؤسسة الإدارية التربوية والأساليب الإدارية التي تتبعها تلك المؤسسة» (٤).

ولا يختلف تعريف الأزمة المدرسية كثيرا عن تعريف مفهوم الأزمة أو الأزمة التعليمية بشكل عام، حيث عرفها الحملاوي بأنها: «خلل يؤثر تأثيرا ماديا على النظام المدرسي ويهدد الافتراضات الرئيسية التي يقوم عليها النظام في المدرسة» (٥).

وعرفها عبدالله مسعود غيث الجهني بأنها: «حالة حرجة تؤدي إلى حدوث خلل في النظام المدرسي اليومي، وتعيق العاملين في المدرسة عن أداء أعمالهم» (٦).

ويعرفها البعض بأنها نقطة تحول غير عادية، تتمثل في مواقف تتعرض لها المدرسة بصورة فجائية يصعب التنبؤ بها، وتتلاحق الأحداث بسرعة، وتتشابك فيها الأسباب بالنتائج، وينجم عنها تهديد للأرواح والممتلكات والقيم، كما ينجم عنها قلق وتوتر لمعظم أفراد المدرسة، الأمر الذي تفقد معه إدارة المدرسة القدرة على السيطرة على هذه المواقف واتخاذ القرارات الرشيدة. ويعرف جونز وباترسون الأزمة المدرسية بأنها: «حدث مفاجئ غير متوقع يؤثر بعمق وسلبية على نظام محدد للمنتسبين إلى المدرسة» (٧).

أسباب الأزمات التعليمية

لا يمكن إرجاع الأزمات المدرسية إلى عامل واحد، ولكنها تأتي في الغالب نتيجة تفاعل عدد من العوامل المتزامنة والمتتالية، من دون أن ينفي ذلك تفاوت الأهمية النسبية لأحد العوامل أو بعضها دون الأخرى وفقا لطبيعة الأزمة. وبشكل عام، يمكن إرجاع نشوء الأزمات المدرسية إلى نوعين من الأسباب:

١- أسباب خارجة عن إرادة الإنسان، مثل الأزمات الطبيعية كالحرائق والسيول، أو الصحية كظهور مرض معد يربك المدرسة.

٢- أسباب ناتجة عن الأخطاء البشرية، سواء من العاملين في المدرسة نظرا لضعف تأهيلهم وتدريبهم وسوء إدراكهم للأدوار التربوية المتوقعة منهم، أو من الطلاب نتيجة ما يقومون به من سلوكيات خاطئة كالتدخين والشغب والضرب والسرقة وتعاطي المخدرات وغيرها.

وترى ناهد عبدالله الموسى أن هناك مجموعة عوامل متعلقة بالإدارة المدرسية تساهم في نشوء الأزمات، أهمها (٨):

١- القصور في فهم كثير من مفاهيم الإدارة واتجاهاتها لدى كثير من المديرين والإداريين في المدرسة.

٢- انحصار دور المديرين في العمليات الإدارية الإجرائية، وعدم الاهتمام بالنواحي الفنية التي تحقق نقلة نوعية في الأداء.

٣- عدم فعالية أو تفعيل معظم السلطات والاختصاصات المنصوص عليها في اللوائح الخاصة بتنظيم عمل المدرسة.

٤- استغراق كثير من المديرين في العمل الإداري الروتيني مع عدم توافر برامج وقنوات كافية للتنمية المهنية.

٥- ضعف العلاقات والروابط المجتمعية للمدرسة، خصوصا العلاقات مع المجتمع المحلي بتنظيماته ومؤسساته المختلفة.

٦- ضعف الصلاحيات الممنوحة للمدرسة في مجال تخطيط وتطوير العملية التعليمية بشكل عام.

٧- ضعف الوعي بأهمية دور الإدارة المدرسية في إدارة إمكانات المجتمع المدرسي، والدور الذي يمكن أن تقوم به في تهيئة المناخ الملائم لتحقيق التغيرات المستهدفة في سلوك الطلاب.

مدخل إدارة الأزمات

يهدف علم إدارة الأزمات إلى تقليل تأثير الأزمات على حياة البشر. ويهدف إلى التعرف على الأزمة، والقوى الصانعة لها، والمؤيدة لها، وطريقة تحاشي وقوع الأزمة، وتخفيف آثارها إذا ما وقعت، والتعامل معها بعلمية وحرفية، والسعي إلى الاستفادة من نتائجها. وتظهر أهميته في المجال التعليمي فيما يلي (٩):

١- تهيئة المناخ الملائم للتلاميذ، لكي يمارسوا الأنشطة، بعيدا عن الضغوط النفسية، والتشتت الذهني.

٢- العمل على توفير النظام والاستقرار للعاملين في المدرسة، بما يتيح سير العمل المدرسي، على النحو المخطط له، ويساهم في الارتقاء بالعملية التربوية التعليمية.

٣- المحافظة على الموارد والإمكانات المادية للمدرسة، في حالة وقوع الأزمات، أو التقليل من الخسائر المتوقعة إلى أقل قدر ممكن.

٤- العمل على زيادة إنتاجية العاملين في المدرسة، من خلال تركيز جهودهم، وعدم انشغالهم بالأزمة.

٥- عدم تضارب الأدوار في الموقف من الأزمة.

٦- تكوين سمعة إيجابية طيبة، في المجتمع الخارجي، عن المدرسة.

٧- وضع الخطط المناسبة للتعامل مع الأزمات في حال وقوعها.

٨- التنبؤ بالأزمات المستقبلية، ووضع التدابير الوقائية لمنع حدوثها.

٩- إعداد سيناريوهات افتراضية لكيفية التعامل مع الأزمات المدرسية.

١٠- تهيئة العاملين في المدرسة والطلاب للتعامل مع الأزمات

المتنوعة.
١١- تكوين فريق لإدارة الأزمات المدرسية، وتوزيع المهام والأدوار على أعضائه.
١٢- المواجهة الفورية في حالة وقوع أزمة وتحقيق السيطرة الكاملة على الموقف.

المنهج العلمي

يتفق المهتمون بدراسة الأزمات المدرسية على ضرورة استخدام الأسلوب العلمي لمواجهتها، لضمان السيطرة عليها وتوجيهها إلى مصلحة المؤسسة. ويرتكز هذا الأسلوب على إتمام المراحل التالية (١٠):
١- الدراسة المبدئية لأبعاد الأزمة: ويكون الهدف منها تحديد العوامل المشتركة في الأزمة، وتحديد أسباب الاحتكاك الذي أشعل الموقف، وتحديد المدى الذي وصل إليه الموقف، وترتيب العوامل المشتركة والمؤثرة حسب درجة خطورتها، مع تحديد القوى المؤيدة والمعارضة لكي نستطيع تحديد نقطة البداية للمواجهة.
٢- الدراسة التحليلية للأزمة: ويتم ذلك من خلال عدد من العناصر، تشمل التفرقة الواضحة بين مظاهر الأزمة وأسبابها، وتحديد تلك الأسباب بشكل موضوعي وواضح، والتأكد من المصادر بحيث تحدد عدد العناصر المشتركة في صناعة الأزمة، ودور العنصر البشري ومدى تأثيره في ظهور الأزمة، وكذلك دور العوامل الطبيعية والتكنولوجية والوزن النسبي لكل منها في حدوث الأزمة، وأسباب الخلل الذي أدى إلى حدوث الأزمة. ويتم أيضا تحليل الموقف لمعرفة المرحلة التي وصلت إليها دورة حياة الأزمة، ومن ثم يتم توقع طبيعة وتكاليف الأخطار الناتجة عن الأزمة، وأثر الوقت على انتشارها، وتحديد الإمكانات والموارد المتاحة للمؤسسة والتي يمكن الحصول عليها في وقت مناسب لاستخدامها في مواجهة الأزمة. وتأتي أهمية هذا التحليل أنه يوفر قاعدة معلومات مهمة للتعامل مع الأزمة وإدارتها بفاعلية، من خلال تحويل تلك البيانات والمعلومات إلى مؤشرات كمية وأحكام كيفية موضوعية حول الأزمة.
٣- التخطيط للمواجهة والتعامل مع الأزمة: وهي مرحلة رسم السيناريوهات ووضع الخطط والبرامج، وحشد القوى لمواجهة الأزمة والتصدي لها. وهي تعتمد على ما تم جمعه من بيانات ومعلومات في المرحلة السابقة، بحيث تنتهي إلى وضع عدد من الحلول وبدائلها من خلال الفهم الكامل للبيانات والتركيز على تحقيق الأهداف، وتنتج عنها خطة المواجهة للتحرك في الاتجاهين التاليين:
أ- الاستعداد للمواجهة: ويتضمن ذلك اتخاذ الإجراءات التالية: تحديد مجموعة الإجراءات الواجب اتخاذها لحماية كل ما يحيط أو ذي صلة بمنطقة الأزمة ومجالها، وترتيب هذه الإجراءات طبقا لما يساعد على تقليل الخسائر ووقف التدهور - تحديد نوع المساعدات المطلوبة من جهات يمكن الاستعانة بها وطلبها - إعطاء التعليمات والتحذيرات اللازمة للأفراد المشاركين في المواجهة الموجودين في مجال الأزمة - التعامل مع المشاعر الإنسانية مثل الحماسة والخوف والذعر في اتجاه عدم انتشار الأزمة - تحديد نوع المعلومات وتوقيتات صدورها - تنظيم عمليات الاتصال داخل مجال الأزمة نفسه من الداخل وكذلك مع الجهات والمنظمات خارج المجال.
ب- التفاعل مع الأزمة: تأتي هذه الخطوة كمحصلة للخطوات السابقة، وفيها يتم التخلص من قدر كبير من العشوائية والتخبط والانفعال لحظة الأزمة، فضلا عن التعامل مع الأزمة بالمبادرة وليس برد الفعل.
وتهدف خطة المواجهة الفعلية والتعامل مع الأزمة إلى: وقف تدهور الموقف، وتقليل الخسائر، والسيطرة على الموقف، وتوجيه الموقف إلى المسار الصحيح، ومعالجة الآثار النفسية والاجتماعية الناتجة عن الأزمة، وتطوير الأداء العملي بصورة أفضل مما سبق، واستخدام أنظمة وقاية ومناعة ضد النوع نفسه من الأزمات أو الأزمات المشابهة.

أهمية مدير المدرسة

يعد التعامل مع الأزمات أحد المواقف الرئيسية التي تظهر مدى كفاءة مديري المدارس في الإدارة، فإدارة الأزمة في المؤسسات بشكل عام، وفي المدارس بشكل خاص، تضع المسؤولية الأولى على المدير، باعتباره قائدا إداريا ومشرفا تربويا مقيما يدير الأنشطة والمهام الإدارية والأكاديمية من منطلق الصلاحيات الممنوحة له، وهو بذلك يعد المسؤول الأول أمام زملاء العمل والسلطات الرسمية وأفراد المجتمع عن سير الأداء المدرسي بشكله الصحيح (١١).
لذلك، لابد أن تتوافر فيه مجموعة من السمات والمهارات الخاصة منها (١٢):
- سمات شخصية: مثل الشجاعة والقدرة على التكيف والموهبة والمثابرة.
- قدرات ومهارات عقلية: مثل

الانتباه والتفكير الإبداعي الناقد، والاستفادة من الخبرة السابقة، والقدرة على التركيز والتخيل والطلاقة.

● خصائص انفعالية: مثل البرود الانفعالي، والقدرة على تحمل التوتر ومقاومة التشتت والتحكم في الانفعالات، وحشد الطاقات الكامنة لأداء أعمال غير روتينية.

● القدرة على التخطيط والتنظيم، والإصغاء الجيد، والقدرة على جذب العناصر المدعمة وتطويعها لتحسين موقف المدرسة في مواجهة الأزمة، والمهارة في التفاوض.

ويضيف الجهني إلى ما سبق بعض المهارات والخصائص التي يرى ضرورة توافرها في مدير المدرسة باعتباره مديرا لفريق إدارة الأزمات المدرسية وهي (١٣):

١- المعرفة المتخصصة في الإدارة التربوية والمدرسية، خصوصا ما يتعلق بالأمور الإدارية من تخطيط وتنظيم وتنسيق ومتابعة واتخاذ قرارات، وكذلك ما يتعلق بالناحية النفسية لطلاب المرحلة التي يدير إدارتها.

٢- الاطلاع المستمر على المستجدات المتعلقة بالأزمات المدرسية وكيفية التصرف معها.

٣- القدرة على استخدام المعلومات المتوافرة عن الأزمة بشكل سليم.

٤- حسن اختيار أعضاء فريق إدارة الأزمات.

ويرى الخضيري أن من خصائص قائد الأزمات أيضا: القدرة على تنمية العلاقات الإدارية وتطويرها مع أعضاء فريق المهام، وأن يكون مؤهلا ومدربا على إدارة الأزمات، وأن تكون لديه القدرة على التخيل، والقدرة على صياغة ورسم التكتيكات اللازمة للتعامل مع الموقف الأزموي الذي يواجهه (١٤).

وإضافة إلى هذه الصفات، فإن هناك مسؤوليات تقع على عاتق مدير المدرسة في إدارة الأزمات المدرسية، يحدد الجهني أهمها فيما يلي (١٥):

١- التخطيط: ويتم من خلال إعداد سيناريوهات وتصورات عن الأزمات المحتمل وقوعها، واتخاذ الإجراءات الوقائية المناسبة التي تعمل على منع مسببات الأزمات، وكذلك إعداد وتجهيز فريق لإدارة الأزمات في المدرسة.

٢- التنظيم: تحتاج مواجهة الأزمات إلى جهد جماعي، وبالتالي لابد من توافر نوع من التنسيق والتوافق والتكامل بين الجهود المختلفة التي تبذل في إدارة الأزمة، وذلك لمنع الازدواجية والتعارض في الأعمال، ويتم التنظيم من خلال توزيع المهام والأدوار على فريق إدارة الأزمات المدرسية.

٣- تبسيط الإجراءات: في ظل ضيق الوقت وتسارع أحداث الأزمة لابد من استخدام إجراءات بسيطة تساعد في التعامل مع الأزمة، والابتعاد عن الروتين في العمل والمخاطبات الكتابية وذلك لأهمية الوقت أثناء حدوث الأزمات في المدارس.

٤- اتخاذ القرارات: حيث تحتاج إدارة الأزمات المدرسية إلى السرعة العاجلة في اتخاذ القرارات الدقيقة والمناسبة لموقف الأزمة، بحيث تكون هذه القرارات واضحة ويمكن تنفيذها في حدود الإمكانات المتاحة في المدرسة.

٥- التواجد في موقع الأحداث: ومن فوائد ذلك أنه يبعث الطمأنينة في نفوس المعلمين والطلاب بصفة خاصة، ويخفف من الآثار النفسية الناتجة عن الأزمة، ويساعد على توفير المعلومات الضرورية لمدير المدرسة حتى يكون على بينة كاملة بتطورات الأحداث.

الهوامش

١- Fink. Steven. crisis management. American management Association. Vol ،٧ New Yourk ،No .١ ،١٩٨٩م. P١٥.

٢- محمد رشاد الحملاوي، إدارة الأزمات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبوظبي، ١٩٩٧م، ص١٣.

٣- إبراهيم أحمد، إدارة الأزمات: الأسباب والعلاج، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٥٥.

٤- ندى عز الدين عنتور، معوقات إدارة الأزمات في المدارس الحكومية الثانوية في محافظات الضفة الغربية وسبل علاجها من وجهات نظر المديرين، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس - فلسطين، ٢٠١٢م، ص٢٩.

٥- محمد رشاد الحملاوي، إدارة الأزمات، مرجع سابق، ص١٣.

٦- عبدالله مسعود غيث الجهني، أساليب اتخاذ القرار في إدارة الأزمات المدرسية من وجهة نظر مديري المدارس بمحافظة ينبع، رسالة ماجستير، برنامج ماجستير الإدارة التربوية، جامعة الملك عبدالعزيز - جدة، السعودية، ٢٠١٠م، ص١٥.

٧- ناهد عبدالله الموسى، إدارة الأزمات في مدارس التعليم العام بمدينة الرياض: تصور مقترح، رسالة دكتوراه، قسم الإدارة التربوية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، السعودية، ٢٠٠٦م، ص٢٧.

٨- المرجع السابق، ص٣٧-٣٨.

٩- فاطمة محمد البغدادي، مهمة استراتيجية.. إدارة الأزمات في المدارس، مجلة المعرفة السعودية، العدد ٢٠٣، ٢٠١٢م، الموقع الإلكتروني: http://almarefh.net/.

وعبدالله مسعود غيث الجهني، أساليب اتخاذ القرار في إدارة الأزمات المدرسية، مرجع سابق، ص١٨.

١٠- انظر في ذلك:

رهام راسم عودة، واقع إدارة الأزمات في مؤسسات التعليم العالي بقطاع غزة، دراسة تطبيقية على الجامعة الإسلامية، رسالة ماجستير بقسم إدارة أعمال، كلية التجارة، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٨م، ص٢٧-٢٨.

ناهد عبدالله الموسى، إدارة الأزمات في مدارس التعليم العام بمدينة الرياض، مرجع سابق، ص٧٣-٧٤.

مشروع تحسين التعليم الثانوي، برنامج تدريبي في الاتجاهات المعاصرة في إدارة المدرسة الثانوية، وحدة التخطيط والمتابعة، وزارة التربية والتعليم المصرية، ٢٠٠٩م، ص٧٣-٧٦.

١١- غسان الحلو، الأزمات المدرسية في المدارس الثانوية الحكومية في مديريات شمال الضفة الغربية بفلسطين، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مجلد ٢٤ (١)، ٢٠١٠م، ص٢٢٨.

١٢- مشروع تحسين التعليم الثانوي، مرجع سابق. ص٧٩.

١٣- عبدالله مسعود غيث الجهني، أساليب اتخاذ القرار في إدارة الأزمات المدرسية، مرجع سابق، ص٣٠.

١٤- محسن أحمد الخضيري، إدارة الأزمات، علم امتلاك كامل القوة في أشد لحظات الضعف، مجموعة النيل العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢م. ص٣٦٨.

١٥- عبدالله مسعود غيث الجهني، أساليب اتخاذ القرار في إدارة الأزمات المدرسية، مرجع سابق، ص٢٨-٢٩.

إزالة الاشتباه عند بعض الآيات المتشابهات

د. أحمد شرشال
أستاذ أصول الدين - بروناي / دار السلام

يجب أولا ألا نخوض في الحديث عن القرآن وأوصافه ونعوته وعلومه، حتى نحكم مصطلحاته، ونحسن فهمها واستعمالها في مواضعها الصحيحة، حتى لا تكون نتائج أبحاثنا مغلوطة أو يشوبها النقص والخلل. ومن هذه الجهة دخل الوهم والاشتباه على كثير من الباحثين في كيفية حفظ القرآن الكريم، فوصفوا آيات الله البينات المحكمات بالاشتباه واللبس! وهو واقع في أذهانهم. والآيات البينات المحكمات خالية من كل ذلك.

فقد وصف الله كتابه الحكيم بالإحكام العام، ووصفه بالتشابه العامل في كل ألفاظه ومعانيه، ولا تعارض بين هذين الوصفين، ويمكن الجمع بينهما، بل يجب وصفه بهما، فهو محكم ومتشابه، بل من مقتضيات الإحكام وجود التشابه، فهما وصفان لذات واحدة وهي القرآن الكريم.

ووصف بعضه بالإحكام، وهو الأصل، وأم الكتاب، ووصف ما يقابله، وهو القليل، بالتشابه. ويرد هذا إلى الأصل الأول، ويراد به التشابه المعنوي، وليس هذا مقصودا للقراء، فلا يشتبه عليهم؛ لأنه يتعلق بالمعاني لا بالحفظ كما هو مشهور ومعروف في كتب علوم القرآن والتفسير.

إن التشابه العام، الذي يقابل الإحكام العام، صفة ذاتية للقرآن الكريم كله لا تنفك عنه، فقد وصفه منزله بهذا في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ (الزمر:٢٣)، فإن هذا التشابه والإحكام وصف من أوصافه الجميلة ونعت من نعوته الجليلة.

أما المتشابه اللفظي في عرف القراء والحفاظ فهو جزء يسير منه كالجزء اليسير من التشابه المعنوي الذي يقابل الإحكام الخاص الذي هو الأصل، وهو الذي ينشأ عنده الاشتباه واللبس غالبا عند تلاوة الآيات المتشابهات، فهي مظنة للوقوع في الغلط والخطأ، وبقدر ما تكون زيادة في أوجه التشابه اللفظي والتكرار في مصطلح القراء يطرأ الاشتباه على القارئ لا على المقروء، وعلى الحافظ لا على المحفوظ، فلا ينسب الاشتباه إلى الآيات البينات المحكمات، وإنما الاشتباه يتأتى من قبل القارئ أو الحافظ لكثرة وجوه التشابه والتماثل والتكرار، فهو صفة طارئة تعرض للقارئ أو الحافظ عند تلاوته لهذه الآيات المتشابهات، وهو ما يسمى بالمتشابه اللفظي الذي اصطلح عليه القراء، خصوصا تلك السور والآيات التي تكثر فيها أوجه التشابه اللفظي.

ولن يستطيع أحد، مهما أوتي من بلاغة القول، أن يحدد مواضعه إلا القراء والحفاظ أنفسهم؛ لأنهم هم الذين يكابدونه، ويعانون من مشقته، ويخافون من مواقعه.

فإذا كان القارئ لا يعلم ما يفرق به بين وجوه التشابه والاختلاف فلاشك أن أمواج التشابه تقذف به عن المسار الصحيح في التلاوة، فيغرق في الاشتباه، فيجد نفسه في آية أخرى أو سورة أخرى، فيقع في الغلط والخطأ، وربما يكون ذلك صارفا له عن الحفظ إذا لم يتحصن بمعرفة معاني هذا التشابه الذي يقود إلى الاشتباه.

لذلك، كانت الحاجة الملحة إلى دراسة وتوجيه الآيات المتشابهات عند القراء، وإزالة الاشتباه عنها بإبراز علامات، يهتدي بها الحافظ، ويتعلق بها القارئ والمتعلم عند تلاوته، فتصونه من الاشتباه، وتحمي حفظه من الضياع والنسيان، وتشجعه على المزيد من المحفوظ.

فإذا فهم الحافظ للقرآن أو من هو في طريق الحفظ هذه المعاني، وتعلق بها قلبه، فإنها لمن أعظم ما يوثق الحفظ ويقويه، فلا يحتاج إلى المراجعة المستمرة والتكرار الدؤوب.

فإن إبراز الفروق اللغوية بين هذه الآيات، يزيل الاشتباه واللبس، ويحصن المحفوظ، ويقيه من شر التفلت والنسيان، فتصير هذه الآيات من المحكم المتيقن، ويزال عنها الاشتباه المتوقع أو الموهوم من أذهان الطلاب، فيقتحمون أمواج التشابه من دون الغرق في الاشتباه.

ومن أهم محاسن الحفظ العقلي والتوثيق الذهني، أنه يكون من المحفوظ والمقروء ذاته لا من خارجه، فليس غريبا ولا دخيلا على القرآن، لأن ضبط الحفظ وتقييده من المحفوظ ذاته.

فإذا استحضر الطالب هذه المعاني للآيات المتشابهات، وعقلها، واستذكرها عند تلاوته، تنير له طرق الوقاية من الوقوع في الاشتباه واللبس، وتحمي حفظه من الضياع والنسيان، وتشجعه على المزيد من المحفوظ.

بين «يفعل» و«يخلق»

من المتشابه اللفظي الذي يقع فيه الاشتباه والغلط غالبا قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ (آل عمران:٤٠-٤١) الواقعة في قصة زكريا عليه السلام. هذه الآية تتشابه مع قوله تعالى من السورة نفسها: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا﴾ (آل عمران:٤٧) في قصة مريم بعد قصة زكريا مباشرة (١).

موضع التشابه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ في قصة زكريا، وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ في قصة مريم، والقصتان متجاورتان ومتشابهتان في المبنى والمعنى والمقصود (٢).

نوع التشابه: اختلاف في الخطاب بالتذكير والتأنيث، واختلاف في التعبير، فعبر بالفعل في قصة زكريا وعبر بالخلق في قصة مريم.

هذا التشابه قد يؤدي إلى الاشتباه لمن لم يحصن نفسه بالمعاني، لأن المعنى يبدد ظلمة الاشتباه. قد ينتقل الحافظ في قراءته من قصة زكريا إلى قصة مريم أو العكس؛ لوجود التشابه اللفظي، وقد حصل هذا فعلا، كما سمعته مرارا وتكرارا، وحالي كحالهم.

إزالة الاشتباه المظنون

الآية الأولى وردت في سياق زكريا عليه السلام، وهو شيخ كبير وامرأته عاقر، وجرت العادة في الطاعنين في السن ألا يحصل بينهما إنجاب الأولاد. فتوجه إلى الله بالدعاء والتضرع والتوسل أن يهب الله له ولدا، ونص دعائه في سورة مريم (٣).

فأجاب الله دعاءه وبشّره بولد اسمه «يحيى»، فتعجب من هذا الأمر واستغربه، وذكر المانع من ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ (مريم:٨).

أجاب الله عن تعجبه، وقال، وهو موضع الشاهد: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ (آل عمران:٤٠-٤١)، فالفعل: «يفعل» يعبر به عن القدرة على الشيء (٤) ولم يقل: «يخلق» لوجود الزوج والزوجة.

وقصة مريم ذكرت بعد قصة زكريا مباشرة لشدة العلاقة والارتباط، وهي شبيهة بها، فبشرها الله بولادة عيسى، عليه السلام، فاستغربت ذلك كما استغرب زكريا، ولكن الغرابة هنا أشد لعدم وجود الزوج ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ (آل عمران:٤٧)، أجاب الله عن تعجبها واستبعادها وجود الولد من أم فقط فقال:

﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ (آل عمران:٤٧).

التشابه في الخطاب بالمذكر والمؤنث وفي التعبير بالفعل والخلق، هذا التشابه بين القصتين يوقع في الاشتباه واللبس، فإزالته والفصل بين الآيتين والتمييز بينهما أن في قصة زكريا عليه السلام الخطاب للمذكر: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ والتعبير بالفعل: ﴿ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، في هذا الموضع، ولم يعبر بالخلق، لأن الزوج وزوجه موجودان، ولكن أسباب الإنجاب معطلة بسبب سن زكريا وعقر امرأته الصورة الظاهرة موجودة للولادة، ومن ثم عبر القرآن عن هذه الحالة بالفعل: «يفعل» الذي هو دون الخلق والإنشاء والإبداع.

وفي قصة مريم الخطاب للمؤنث: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ والتعبير بالخلق ﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾، لأن ولادة عيسى من أم فقط، فالتعبير الصحيح عنه هو الأنسب لعدم وجود الأب فقال: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ (آل عمران:٤٧)، فلا يصح استعمال أحدهما مكان الآخر.

فإذا فهم الطالب هذا المعنى، واستقر في ذهنه، وتذكر ذلك عند تلاوته، فإنه يزول عنه الاشتباه واللبس المظنون عند هذه الآيات المتشابهات، ويمكنه من أداء صلاة التراويح والامتحانات والمسابقات وتلاوة القرآن تعبدا لله، ويغنيه ذلك كثيرا عن الرجوع إلى المصحف، لأن هذه المعاني صارت مفهومة لدى الحافظ، لأن الكلام المفهوم قل ما ينسى.

وبهذا تنتقل الآيات المتشابهات من حيز الاشتباه من أذهاننا إلى حيز الإحكام والتفصيل والبيان، فهي مبينة ومحكمة ومفصلة كما وصفها منزلها، والاشتباه المزعوم في الأذهان والعقول لا في الآيات البينات، والله أعلم.

بيان علة التقديم والتأخير

من المتشابه اللفظي في عرف القراء، الذي يقع عنده الغلط والنسيان والتردد والحيرة من الطلاب والحفاظ ومن دونهم، ويكاد يكون ذلك شبه إجماع، ولو ما للتشابه من أثر في تلاوة الطلاب ما ذكرها العلماء ضمن المتشابه اللفظي (٥)، وهو قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ (الأنعام:١٥١).

هذه الآية من سورة الأنعام تتشابه مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ (الاسراء:٣١).

موضع التشابه: في سورة الأنعام: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾، وفي سورة الإسراء: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾.

نوع التشابه: الاختلاف في التقديم والتأخير قدم ما أخره في الإسراء، وأخر ما قدمه في سورة الأنعام، قدم رزق الآباء على الأبناء في سورة الأنعام، وقدم رزق الأبناء على الآباء في سورة الإسراء.

إزالة الاشتباه وبيان الفرق بين الآيتين

أن رزق الأبناء قد قدم في آية الإسراء: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ﴾ على رزق الآباء، لأن الخطاب في سورة الإسراء للأغنياء بدليل قوله: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾، فإنه لا يخشى الفقر إلا من كان عنده ما يكفيه، إذ الفقير منغمس في الفقر فلا يقال فيه يخشى من الفقر. ولفظ الخشية يوحي بالخوف الآتي مستقبلا. والسياق من أوله إلى آخره يدل على أن الخطاب للأغنياء، فقال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ (الإسراء:٢٦)، المأمور بإتيان حق القرابة غني، ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ﴾ المأمور بعدم التبذير هو الغني، لأن الفقير لا يتأتى منه التبذير، ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ (الإسراء:٢٩) نهي الغني عن بسط اليد بالمال. ثم نهي عن قتل الأولاد خشية وقوع الفقر، فكان من البلاغة بمكان أن يقدم الوعد برزق الأولاد على الآباء.

وقدم رزق الآباء في آية الأنعام على رزق الأبناء، لأن الخطاب للفقراء، وقد كان العرب في الجاهلية يقتلون أولادهم بسبب الفقر الحاصل المفهوم من قوله: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ (٦).

قدم الوعد برزق الآباء على رزق الأولاد في سورة الأنعام: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾،وقدم

الوعد برزق الأولاد على رزق الآباء في سورة الإسراء: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

نهي عن قتل الأولاد كما كان يفعله أهل الجاهلية، سواء بسبب الفقر الحاصل كما أفادته آية سورة الأنعام، أو خشية حصوله كما أفادته آية سورة الإسراء، ومجموع الآيتين المتشابهتين بالتقديم والتأخير، أفاد النهي عن قتل الأولاد بسبب الفقر الحاصل كما في سورة الأنعام أو الخوف من الفقر المتوقع المظنون كما في سورة الإسراء.

إزالة الاشتباه والغموض

ليس في هذا غرابة أو غموض أو إبهام لمن تأمل وتدبر، فهو جلي واضح المعنى، لأن ما في سورة الأنعام الفقر حاصل للآباء، فاستوجب ذلك تقديم الوعد برزق الآباء على رزق أولادهم.

وأما في سورة الإسراء فقدم رزق الأولاد على رزق الآباء، لأن الخوف من الفقر المتوقع الذي يجلبه الأولاد هو السبب - وفق اعتقادهم - فقدم الوعد برزقهم على رزق آبائهم، وهو الموافق للمنطق العقلي ومفهوم من فحوى الخطاب، ولا إشكال فيه.

وبناء على ما تقدم، فإذا قرأت الآية في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ قدم كاف الخطاب وأخّر ضمير الغيبة والقيد: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ قدم الله برزق الآباء على أبنائهم وجوبا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ...﴾.

وإذا قرأت الآية في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ قدم ضمير الغيبة وأخّر كاف الخطاب. والقيد: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، قدم وعد الله برزق الأبناء على آبائهم وجوبا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾، لأنهم هم السبب في الفقر في ظنهم.

إن الخطاب في آية الأنعام لقوم فقراء يهمهم رزقهم أولا ثم رزق أولادهم، فقدم في القراءة رزقهم، لأنه أهم عندهم، واقرأ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

والخطاب في آية الإسراء مع قوم ليسوا فقراء، لكنهم يخشون الفقر مستقبلا بسبب أولادهم، فقدم في القراءة الوعد برزقهم على رزق آبائهم، واقرأ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

فإذا فهم الطالب هذه المعاني والفروقات، واستحضر ذلك في باله عند التلاوة، زال عنه الاشتباه واللبس، وصارت الآيتان في ذهنه من المحكمات البينات الواضحات، فيكون آمنا من الوقع في الغلط والاشتباه واثقا من قراءته، وسيجد نفسه تلقائيا مدفوعا نحو السياق الصحيح فيما بعد موضع التشابه أو التماثل، فهذا يثبت الحفظ ويقويه ويمنع التفلت والنسيان.

بيان علة الإفراد والجمع

من المتشابه اللفظي الذي يقع فيه الاشتباه والغلط غالبا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (النحل:١٠-١٣).

موضع التشابه: الموضع الأول «لآية»، الموضع الثاني «لآيات»، الموضع الثالث «لآية».

نوع التشابه: التعبير بالإفراد في الموضع الأول والموضع الثالث، والتعبير بالجمع في الموضع الثاني. فما سبب استعمال المفرد في موضعه؟ وما سبب استعمال الجمع في موضعه؟

أولا- تحديد التشابه المؤدي إلى الاشتباه

١- إن هذه الآيات الثلاث تكرر فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ ثلاث مرات باختلاف صيغ الجمع والإفراد، وكثيرا ما كنت أخطئ فيها ويقع الغلط واللبس في تلاوتي لها، ثم يضاف إلى هذا التشابه اشتباه آخر، وهو أن خواتم هذه الآيات غالبا ما يحصل في تلاوتها الخطأ والاشتباه نفسه فتنتهي الآية الأولى بالإفراد وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وتنتهي الآية الثانية بصيغة الجمع وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وتنتهي الآية الثالثة بصيغة الإفراد وقوله:

﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

فهذه الآيات مظنة للوقع في الغلط والنسيان، وقد ذكرها علماء المتشابه اللفظي ضمن الآيات التي يقع عند تلاوتها الاشتباه واللبس (٧)، فالخطأ فيها واقع ومتوقع، وكثيرا ما تشتبه على الطلاب، ولم يسلم من ذلك الحفاظ مع تفاوتهم في جودة الحفظ.

ثانيا - إزالة الاشتباه الموهوم

المنهج السديد لنفي الاشتباه عند هذه الآيات المتشابهات يجمع بين حسنتين: تثبيت الحفظ العقلي والتوثيق الذهني وتعليم اللغة العربية، فالعربية أساس لدفع الاشتباه، والفصل بين الآيات المتشابهات في أذهاننا.

٢- إن الآية الأولى جاءت بصيغة الإفراد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، وهو المتعين، لأن المشار إليه بذلك هو مفرد، وهو نزول الماء من السماء، وفوائده على الإنسان والحيوان والنبات. فنقيد الآية الأولى بصيغة المفرد في الموضع الأول؛ لأن المدلول عليه واحد مفرد، فلا يصح الجمع، فلا نقرأ إلا بالإفراد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، وحينئذ ينتفي الاشتباه.

الآية الثانية التي تليها مباشرة جاء لفظ الآية بصيغة الجمع: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وهو المتعين، لأن المشار إليه مجموعة من الآيات الدالة على قدرة الله، وهي الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وكل واحدة منها آية وجمعها آيات، فلا تصح القراءة إلا بصيغة الجمع وموافقة لقوله: «مسخرات» بالجمع، فلا تلتبس بالآية الأولى ولا بالثالثة.

والآية الثالثة: تتحدث عن شيء واحد وهو جنس ما تخرجه الأرض من ألوان النباتات والزروع والمعادن وغيرها. فلذلك كانت الإشارة إليه بالمفرد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾. وهكذا نجد أن كلمة «آية» حينما استعملها القرآن مفردة كانت في موضع لا يصح فيه إلا الإفراد، وحينما جاء بها على صيغة الجمع كانت في محل يتطلبه ويقتضيه لفظ الجمع: «لآيات».

٤- إزالة الاشتباه في خواتم الآيات الثلاث، فالآية الأولى تنتهي فاصلتها بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، والآية الثانية تنتهي فاصلتها بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، والآية الثالثة تنتهي فاصلتها بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

هذا الترتيب البديع بين التفكر والتعقل والتذكر من شأنه أن يكون عاملا قويا لحفظ القرآن وتثبيته، ومنع التفلت والنسيان، وأدعى للتذكر لا أنه مصدر اشتباه ولبس، الاشتباه في الأذهان لا في القرآن. إن النظر في نزول الماء من السماء بهذه الطريقة، وما ينتج عنه من المنافع العظيمة، يحتاج إلى إعمال فكر وتأمل وتدبر، ولذلك ختمت الآية الأولى بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فإذا تفكر الإنسان وجال خاطره في مجموعة من الأشياء ثم وصل إلى نتيجة مرضية تمخضت عن تفكيره، فإنه يعقل ويمسك ما وصل إليه تفكيره وهداه إليه، ولذلك ختمت الآية الثانية التي بعدها بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.. فإذا قيد ذلك وأمسكه وعقل ما هداه إليه إعمال فكره، يأتي التذكير والعبرة والاتعاظ فلذلك ختمت الآية الثالثة بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فهذه نتيجة عملية منطقية من شأنها نفي الاشتباه المظنون ومنع التفلت واللبس، وحماية الحفظ من الضياع والنسيان، تفكير وعقل وتذكر.

وبهذا يزول الاشتباه المتوهم واللبس المظنون، وتنتقل هذه الآيات من أذهان الطلاب من الآيات المشتبهات إلى البينات المفصلات كما وصفها الحكيم الخبير، فاجتمع فيها التشابه العام والإحكام العام، وانتفى عنها الاشتباه الطارئ على تلاوة القارئ.

فالتفكير أولا، ثم عقل ما توصل إليه التفكير ثانيا، ثم التذكير والاتعاظ والعبرة بما دلت عليه هذه الآيات.

الهوامش

(١) وقد ذكر أحدهم إحدى عشرة آية متشابهة مع هذه الآية، وهي ليست من المتشابه اللفظي أصلا، ولا يقع عندها الاشتباه، انظر: كتاب الآيات المتشابهات، ص:١٨٩ و٢٤٣.

(٢) وهذه الآيات من ضمن مقرر الحفظ على طلاب جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية كلية الشريعة والقرآن

(٧) رقم: ٤٤٠١ ut فحفظوها كلهم في زمن قياسي، بعد ما عرفوا كيف يقتحمون أمواج التشابه دون الغرق في الاشتباه.

(٣) من أول سورة مريم إلى الآية ٦ وما بعدها.

(٤) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ،٣/٢٨٦.

(٥) درة التنزيل ٩٩، البرهان ١٧٨، ملاك التأويل، ١/٤٧٩.

(٦) انظر وجوه الاستبدال في القرآن للكردي ١٥٥.

(٧) انظر: درة التنزيل ١٨١، البرهان ٢١٧، ملاك التأويل ٢/٧٣٢.

جنور الأمريكيين السود الإسلامية

السيد عبدالحكم السيد
موجه علوم بالأزهر

تعتبر أفريقيا القارة المسلمة بين قارات العالم الأكثر عددا من المسلمين. فالغالبية العظمى من سكانها الأصليين يدينون بالإسلام، وتذكر الإحصاءات أن نسبتهم هي ٧٠ في المئة من سكانها.

وقد انتشر الإسلام في شرق أفريقيا منذ عهد النبي ﷺ، ثم تخطى الصحراء حتى وصل إلى المناطق الداخلية إلى «كينيا» (١)، و«تنزانيا». واقتحم نطاق الغابات في قلب القارة، ونفذ إلى هضبة البحيرات. وتدفق إلى هضبة الحبشة، وانتشر على طول الساحل الغربي. ودخل الإسلام جنوب إفريقيا مع المهاجرين المسلمين من الهند وماليزيا، ولا يزال ينتشر ويصل مداه إلى آفاق جديدة (٢).

ويلفت الأنظار الآن ميل معين بين سود أميركا لاتخاذ مواقف موالية نسبيا للعرب والمسلمين. فنجد بين الكتاب والمفكرين السود الأميركيين الذين لهم خلفية دينية أو علمانية وعيا بوجود الإسلام كعنصر ظاهر في الثقافة، خلال بحثهم التاريخي والاجتماعي، فضلا عن الثقافي والروحي.

وهذا الاتجاه واضح في كتاب المؤلف «أليكس هيلي» عن رحلته إلى تلك القرية الحالمة «جوفيوري» في دولة «جامبيا» غرب أفريقيا، التي اختطف منها القراصنة الإنجليز شابا اسمه «كونتا كينتي» سنة ١٧٦٧ ميلادية، ونقلوه ليباع عبدا رقيقا في أميركا، لا يعرف أحد عنه شيئا، حتى ألهم الله واحدا من أحفاد هذا الأفريقي المسلم أن يأتي من ولاية «فرجينيا» إلى دولة «جامبيا» باحثا عن القرية التي اختطف منها جده منذ مئتين وخمسين عاما تقريبا.

ويركز المؤلف على تأكيد استمرارية الهوية الإسلامية للسود في أميركا. وقد وصل عددهم الآن إلى نصف سكان الولايات المتحدة الأميركية.

والكتاب يحفل بكل من ناحيتي الثقافة العربية الإسلامية المكتوبة بلغة القرآن، والتي تعلمها الفتى المسلم «كونتا كينتي» في كتّاب القرية، قبل أن يختطف. كما يركز على الثقافة المحلية القبلية بأفريقيا.

ولكن المهم هو عنصر الدين، والقدرة على كتابة الجمل باللغة العربية التي علمها «كونتا كنيتي» لابنته الوحيدة «كيزي»، وعلمتها هي بالتالي لأبنائها.

يقول حفيده «أليكس هيلي»: أخذني رجال «جوفيوري» إلى المسجد المبني من الخيزران والقش، وصلّوا من حولي باللغة العربية، وترجم لي ملخص دعائهم: (الحمد لله على واحد فقدناه من بيننا، أعاده الله إلينا).

ولعل في هذا ما يُلهم الدعاة وهيئات التبليغ للعمل من أجل تذكير هؤلاء بأنهم انحدروا من أصول لها ثقافة عالية، لها صلة بوحي السماء عموما، وبكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه تنزيل من حكيم حميد. والقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لم ينله التحريف، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

ولعلنا نتدارك ما فاتنا. ولنبدأ مع «أليكس هيلي» من البداية، لنتعرف على الجذور الإسلامية للسود في الولايات المتحدة الأميركية.

ولنبدأ مع الكاتب الأميركي، والبحث عن «جذوره» الإسلامية:

و«أليكس هيلي» من السود الأميركان. تطورت حياته وأفكاره، فاعتنق الإسلام، وانضوى تحت راية الزعيم الزنجي المسلم «مالكوم إكس».

فلما اغتيل هذا الزعيم، اعتزل وذهب يبحث عن طريق القراءة والسفر، حتى خرج بكتابه «جذور» بعد اثنتي عشرة سنة.. وأصبح اسمه بعدها أشهر من «محمد علي كلاي» الذي اعتنق الإسلام مثله.. ونال على كتابه «جذور» جائزة «بوليتزر» للأدب. وهي الجائزة التي تعادل في أميركا جائزة نوبل العالمية الشهيرة.

يقول «أليكس هيلي» الكاتب الأميركي الأسود:

الأمة الأميركية كلها أمة مؤلفة من مهاجرين، فيما عدا تلك القلة التي عرفت باسم «الهنود الحمر». وفيما عدا هذه القلة فكل الأميركان قد هاجروا إلى أميركا بمحض إرادتهم ورغبتهم في بلاد لا حدود لغناها ووفرة مواردها، إلا فئة واحدة جاءت قسرا وغصبا.. أولئك هم الزنوج.. كان يجلبهم القراصنة، ويبيعهم تجار الرقيق عبيدا بعد أن كانوا أحرارا.

ولايزال بعض البيض في أميركا يتوهمون أن السود من مواطنيهم ليس لهم أصول حضارية ولا إنسانية، بالمفهوم الذي يعرفه من نزحوا من إنجلترا أو فرنسا وإيطاليا وإسبانيا.

ولقد استمع «أليكس هيلي» وهو صغير من جدته العجوز إلى قصة جده المسلم الأفريقي، الذي بدأت مأساته عندما ذهب يبحث في الغابة المحيطة بقريته عن جذع شجرة ملائم، ليصنع منه طبلة.

وكان يقول: إن اسم قريته «جوفيور» القريبة من نهر «كامبي بولونجو»، وهناك انقضّ عليه أربعة ضربوه على رأسه حتى أفقدوه الوعي، وكتفوه بالحديد، وألقوه في سفينة مع عدد كبير من الصبيان والفتيات السود. وعبرت السفينة بحرا هائجا أربعة شهور، حتى ألقت بهم في تلك الأرض الجديدة. وظلت هذه القصص عالقة بذهن أليكس هيلي حتى شبّ وفكر في البحث عما وراء هذه القصص التي سمعها من جدته العجوز. وظن أن الأفارقة الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة أخيرا يستطيعون مساعدته في بحثه، فكان يذهب إليهم ويسألهم عن تلك القرية «جوفيور» فيستمعون إليه تأدبا، ويهزون أكتافهم، وينصرفون مندهشين من هذا الأميركي الذي يبحث عن قرية مجهولة وسط غابات أفريقيا. وأخيرا التقى بأستاذ في جامعة «هارفارد» متخصص في الشأن الإفريقي.

فقال له: إنه يرجح أن تكون هذه القرية في «جامبيا»، فهناك نهر بهذا الاسم. وبعد ثلاثة أيام كان أليكس هيلي يركب الطائرة في طريقه إلى غرب أفريقيا. وفي عاصمة دولة جامبيا قالوا له: هناك أناس تخصصوا في حفظ تاريخ القبائل والعائلات، فذهب يبحث حتى وجد المؤرخ العجوز الذي راح يروي قصة العائلة، وكأنه يقرأ في كتاب مسطور.. إنها عائلة مسلمة مثل الكثير من العائلات في تلك المنطقة. عائلة لها تقاليد اجتماعية ودينية. ووصل المؤرخ إلى سنة ١٧٧٦ ميلادية حين وقعت مأساة في العائلة.

فقد ذهب ابنها البكر يلعب على شاطئ النهر، فاختفى ولم يظهر له أثر بعد هذا... هل غرق في النهر وجرفته الأمواج!؟
أم هل اختطفه تجار الرقيق؟ فصل الخطاب ليس هنا..
وذهب «أليكس هيلي» إلى لندن، وهناك تحتفظ الحكومة في مكتب السجلات العامة بوثائق عن السفن الإنجليزية. ونقب في تلك السجلات العامة، حتى اهتدى إلى السفينة التي حملت ذلك الفتى الإفريقي، واسمها «لورد لونجيبه»، وقد أبحرت من جامبيا حتى وصلت إلى ميناء «أنا بوليس» في أمريكا يوم ٢٩ من سبتمبر ١٧٧٦ ميلادية. وقرأ في جريدة «ميريلاند جازيت» في عدد شهر أكتوبر إعلانا عن وصول السفينة لورد لونجيبه، قادمة من نهر جامبيا في أفريقيا، وعليها حمولة من أجود وأصح الأصناف من العبيد الذكور والإناث السود.
وعاد أليكس ليكتب قصة جده الذي ولد في قرية «جوفيور» بجامبيا، والذي أثر الإسلام في سلوكه حتى نهاية حياته غريبا بعيدا عن أهله ووطنه الأصلي.
وترجع جذور عائلة «كنتا» إلى أحد الشيوخ المرابطين على ثغور إقليم «موريتانيا» الإسلامية، ويدعى «كيرابا كونتا كينتا». وعندما وصل إلى سن الإدراك حدّثه عن جده كينتا الأول، وأعانه على حفظ القرآن، ومعرفة الكتابة باللغة العربية، ثم اصطحبه إلى المسجد، وعلمه كيف يعرف مواقيت الصلاة بنفسه.
وعندما وصل سن الثانية عشرة تلقى «كينتا» تدريبا على المصارعة والقتال والصيد، ولفت إليه الأنظار لذكائه وقوة بنيانه وفراعة طوله. وعندما وصل سن الرابعة عشرة اصطحبه أبوه إلى قرية عمه على مسيرة أربعة أيام، مشيا على الأقدام في أرجاء أفريقيا المونقة بالعشب، ومرّ بمواطن الأسود.
وعندما بلغ السادسة عشرة اصطحب أخاه الأمين في رحلة للبحث عن الذهب، وعادا برزق وفير من هذا المعدن النفيس.
وبدأ يفكر في حج بيت الله الحرام في مكة المكرمة، وزيارة مسجد الرسول محمد ﷺ بالمدينة المنورة، إلا أن خططه لم تتحقق، لأنه ذهب ذات يوم عندما بلغ السابعة عشرة إلى غابة قريبة من قريته «جوفيور»، وهو كثيرا ما ذهب إليها منفردا، وكانت هذه الغابة آمنة تماما من الوحوش المفترسة كالأسود والنمور..
ولكن كان ينتظره في هذه المرة من هو أكثر شراسة، وأكبر شرا من الوحوش الجائعة! كان يتربص به أربعة من القراصنة المدربين على صيد البشر..
ودخل الفتى في معركة غير متكافئة، ولكنه استطاع أن يفقأ عين أحدهم قبل أن يضربوه على رأسه، ويفقد الوعي. وعندما أفاق وجد نفسه مكبلا بالحديد، ودفعوه إلى مبنى يسمى «قلعة جيمس»، والتي كانت مركزا لتجميع الزنوج وتصديرهم إلى أميركا. وقام أحد القراصنة بكي ظهور هؤلاء المخطوفين والمخطوفات برسم تلك العلامة على ظهورهم وظهورهن (L.L)، إنها العلامة التي ترمز إلى السفينة التي ستحملهم واسمها «لورد لونجيبه». ورأى «كينتا» كيف تحرق أسياخ الحديد أجسادهم وأجسادهن، ويتعالى صراخهم وصراخهن، ويزداد الأنين والبكاء عندما يصب الماء المالح على جروحهم! ولا حول ولا قوة لهم، لأنهم مقيدون بأطواق الحديد.. كانت الرحلة طويلة عبر المحيط في تلك السفينة الرهيبة. وكان قد سبقها المئات من السفن التي حملت الألوف من الأحرار لبيعهم عبيدا أرقاء بقانون دستوري، استندت نصوصه إلى الدستور الأميركي، الذي قرر إقامة دولة حرة ديموقراطية فيما يتعلق بالجنس الأبيض فقط. أما فيما يتعلق بالسود، فكانت أبعد شيء من الحرية والديموقراطية، حتى وصل عدد الزنوج إلى نصف عدد السكان الأميركان، وهي نسبة لم يبلغها عدد الرقيق في أي مجتمع أو عصر، أو في دولة من الدول.
وحاول «كينتا» الهرب رافضا أن يعيش عبدا، وقد خلقه الله مسلما حرا، فقطعوا نصف قدمه حتى لا يستطيع الهرب، وعطفت عليه «بيل» الخادمة السوداء، فكانت تقدم له الطعام الذي يفضله كمسلم لا يأكل لحم الخنزير، ولا يشرب الخمور، وتعاونه فتحضر له الماء ليتوضأ ويصلي كما كان يصلي في مسجد قريته «جوفيور» المسلمة.
وظل محافظا على ذلك حتى مات.
ومع أن «بيل» تكبره، فقد تزوجها، وأنجب منها وحيدته «كيزي»، التي وعت ما كان يحكيه لها عن حياته قبل أن يخطفه الإنجليز. ويكتب لها على الرمل اسمه واسم أبيه وجده بالحروف العربية «كينتا عمر كيرا باكونتا كينتا»، وحفظت «كيزي» ذلك.
ولكن عندما بلغت «كيزي» السادسة عشرة نزعت من والديها، وباعها سيدهما ولم يرها والدها بعد ذلك على الإطلاق، وهناك في ولاية «كارولينا» أنجبت من سيدها الأبيض الذي اشتراها ولدا أسموه «جورج». وأنجب جورج ذكورا وإناثا. وإحدى حتى قصة جدها.

الهوامش

١- من دول شرق أفريقيا، ومساحتها ٥٨٣٦٤٤ كيلو مترا مربعا، وعاصمتها «نيروبي»، وهي موطن «حسين أوباما» والد الرئيس الأميركي «باراك حسين أوباما».
٢- كتاب «الديانات في أفريقية السوداء»، ص ١٥٢:١٥٣، لمؤلفه هو بيرديشان.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٣٢)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

لا خلاف اليوم بين أبناء العروبة في أن القرآن الكريم رشح اللغة العربية الفصحى كي تكون غرة لغات العالمين دينا ودنيا، سواء في أمسها الدابر، أو في هذا الزمن الحاضر، أوفي مستقبلها الجائر الحائر، لذا قبيح بكل عربي صليب صميم أن يخرج من هذه اللغة التي اصطفاها ربنا لتكون مادة لقرآنه؛ الذي اشتمل على عرائس الألفاظ الأبكار التي أخرست شقاشق الأبناء، وبدائع العبارات التي جعلت الخزامى في أنف كل عربي مفوه بليغ عارف بأسرار البلاغة، وضروب البراعة في تنضيد الألفاظ، واستعمالها في الأماكن التي تقتضيها وترتضيها. فلماذا أتى علينا حين من الدهر أصبحنا لا نعرف فيه من عربيتنا الفصحى إلا ما يقدمه الأغراب لنا من غذاء أصاب معدنا وأفكارنا بالعسر والهزال؟ ولماذا نصر على جعلها دبر آذاننا رغم ما وشاها به القرآن الكريم، والشعر العربي البليغ، وقرائح الأدباء والعلماء العرب المجيدين من جواهر تخلب الألباب، ودرر مستفرهة تأخذ بنياط القلوب؟ ولماذا طارت الفصاحة من دنيا العروبة، رغم الهينمات والتلاوات المتخيرة التي تسمع للقرآن الكريم، وقراءة الشعر العربي البليغ، وكلام الفصحاء في مشارق الأرض ومغاربها؟ ولماذا فشلت طرقنا التربوية في وضع صوى ومنارات في طريق الفصاحة كي تعرف فتتبع؟ وما هي السبيل الناهجة التي تمكننا من بلوغ الأرب في شرب العربية الفصحى ماء نميرا، فتجري بها ألسنتنا في مؤسساتنا وفي إداراتنا وفي معتملاتنا وفي

أنديتنا وفي مصانعنا وفي مطاراتنا. أسئلة كثيرة تجد جوابها البليغ في أن تعليم وتعلم الفصحى يجب أن يؤسس على المزاوجة والجمع بين طريقتين، كما تجمع حبات الجلبان في سنيفها: الأولى رأسها الطبع، وعمودها السماع، المقتصر على تخير النصوص الماتعة الشائقة التي تخلب الألباب وتدخل آذان الشداة من غير إذن، ودعائمها المناخ اللغوي السليم الذي يمكن للفصحى بقرار سياسي صادق وملزم ينتقل بلغتنا من الصفة إلى الحال، التي تشبع الحاجات الذوقية والرغبات النفسية، التي تشعل وقود الشداة للانغماس في الفصحى، والإقبال على التحدث بها كما يقبلون على التمارين الرياضية والتواصلات الافتراضية الحميمية على الشابكة. أما الطريقة الأخرى فإن العلم وضوابطه يمثل ذروة سنامها، حيث تقدم لهم القواعد والقوانين الأساسية الضامنة للفصحى ضمنيا، وفي أطر فنية تجعلهم يقتصرون على الكفاية، لا تلقى عليهم الغايات في أثناء البدايات، ولا يتوسعون في العلم بوجوه الاستعمالات الصحيحة، إلا عندما يظهرون معرفتهم بضروب المقامات التي تجعل الكلام وافيا بالغرض الذي إليه قصد المتكلم، فيتحولون من مرحلة النحو الضمني إلى مرحلة الحذاقة والملكة الراسخة التي تستند إلى النحو المرجعي القاعدي الذي يضمن للغة الاستقامة، لأن النقص في تحصيل ملكات العلوم والمعارف، أساسها في الغالب الأعم راجع إلى النقص في ملكة اللسان، لأن اللغة هي الفكر، وهي الوسيلة الضرورية للمعرفة، كما أن المعرفة لا يمكن تصورها من دون لغة مستقيمة، كل واحدة منهما ضرورية للأخرى، مثل الروض مع عبير أزاهيره. ولهذا فإن الطريقة التي نستعمل بها لغتنا العربية الخداج، هي المسؤولة عن أفكارنا الفارغة، مثل مومات النحل، وهذا ما يؤكده العالم (دوتراسي De tracy) قائلا: «إن تكوين الأفكار وثيق الصلة بتكوين الكلمات، فكل علم يمكن رده إلى لغة أجيدت صياغتها، ومعنى قولنا عن علم معين: إنه تطور وتقدم، هو أن ذلك العلم قد ضبط لغته لا أكثر ولا أقل، ضبطا يتم إما بتغيير ألفاظه، وإما بأن يجعل الألفاظ القائمة أدق في معانيها» (١). لهذا فإن التخلف الفكري الذي نعانيه يعود إلى العلل اللغوية التي اعتاص علينا ابتكار ترياق ينجينا من الجهل بلغتنا وبقواعدها التي تنجينا من سوء الفهم، إذ بالملكة اللسانية نستطيع إدراك خبايا الكلام وأسراره؛ جيده ورديئه. وهذه الملكة كما أسلفت إما أن تكون جبلية فطرية تولدها البيئة اللغوية، فيرضعها الإنسان من لبان أمه، ومن ثمة يسيل لسانه باللغة التي نشأ عليها عذبا رقراقا؛ وذلك هو الطبع؛ وإما أن يحصلها المرء في مؤسسات وفق برامج محددة تعتمد الدربة والمران، وتلك هي الصنعة. ولهذا لا يعد المرء مترهيا محصلا لهذه الملكة، إلا إذا توفر على حس لغوي متمكن، وذوق جمالي مميز، ورصيد معرفي رصين للضوابط والقواعد المنظمة التي تجلي أسرار الكلام، التي يتوقف عليها إدراك البراعة والخلابة في الأساليب. فهل تسعى معاهدنا العربية لامتلاك الفصحى طبعا وصنعة، كما امتلكها أسلافنا الذين يعز أن تعثر لهم على شائنة في ما كانوا يطرسون، وما كانوا يتفوهون به؟ الحق أن الفصاحة كانت أعز ما يطلب لديهم، ولذلك كانوا يعدون اللحن والخطأ ضلالا، يستحق مرتكبه أن يرشد وينبه إلى الصواب، على شاكلة هذه الحادثة الطريفة: أراد رجل أن يسأل أعرابيا عن أهله، فقال: كيف أهلك بكسر اللام؟ فقال له الأعرابي: صلبا، لأنه لم يفهم مما سأله عنه سوى أنه يسأله عن السبب الذي يهلك به. وسأقتصر في هذه الحلقة على إيراد نموذجين من لحن المعاصرين، أحدهما يرجع إلى فساد الطبع عند قولهم: كل المغاربة سواسية أمام القانون، وهم يقصدون أنهم سواء أمام القانون، أي متساوون، وهو لحن فاحش، لأن لفظة «سواسية» لا تستعمل إلا في اللؤم والخسة والشر، كما يقول الشاعر ذو الرمة:

لهم مجلس صهب السبال أذلة

سواسية أحرارها وعبيدها

وقال آخر:

شبابهم وشيبهم سواء

سواسية كأسنان الحمار

أما النموذج الآخر فيرجع إلى الصنعة، أي: إلى عدم التمكن من القواعد التي تضمن السلامة، كما يبدو ذلك في العبارة الشائعة الآتية: خير الأمور أوسطها. إذ الصحيح الذي لا مرية فيه هو: خير الأمور أوساطها، بجمع لفظة «أوساطها»، لكي تتطابق مع جمع «الأمور».

قال عبد الله بن مسعود في خطبته: «وخير الأمور أوساطها ...» (٢)، وقال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنهـــا

نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

الهوامش

١- نافذة على فلسفة العصر، د. زكي نجيب محمود، كتاب العربي، الجزء الثاني، عدد ٩٨، ص ١٣٧، ط١، أكتوبر ٢٠١٤م، وزارة الإعلام، الكويت.

٢- البيان والتبيين، أبو عثمان بن بحر ابن محبوب الجاحظ، تحقيق وشرح: حسن السندوبي، الجزء١، ص ٢٧٤، ط٤، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، دار الفكر، بيروت - لبنان.

وقت مستقطع

مياسة النخلاني
قاصة من اليمن

تردد بعض الوقت وهو يغادر غرفته.. يدرك جيدا أن هذا المشوار بالذات سيأخذه إلى منحى آخر من طريق الهروب الذي يسلكه منذ فترة ليست بالقصيرة، أو بالأحرى سيشده إلى ذلك الطريق الذي تصعب العودة منه. ومع ذلك، لم يدم تردده كثيرا.. غادر غرفته، ونزل الدرج مسرعا من دون أن يتبادر إلى ذهنه أن يتوقف عن التوغل أكثر، أو حتى يحاول الالتفات إلى الوراء ليلحظ الفارق بين ما كان وما هو عليه الآن، وما سيكون عليه غدا إن ذهب إلى هناك.

كل ما فكر فيه حينها - إن كان يفكر في حاله أساسا - أن يواصل الاختباء خلف الحاجز الضبابي الذي يحول بينه وبين من حوله، حتى أقرب الناس إليه، وهم بشكل خاص.

ياسر، الشاب الذي كان يضرب به المثل في فترة من فترات حياته، تحول في لحظة واحدة إلى كتلة من اللامبالاة والسلبية، لا يكاد يفكر في أحد ممن حوله، لا يعنيه شيء على الإطلاق، ولا يهمه حال أحد، لا عمل له منذ صحوه وحتى منامه سوى أن يتسكع هنا وهناك، يبذر ما في يديه من مال، وما إن ينتهي منه حتى يطلب المزيد. لا يعي ما يفعل سوى مواصلة المسير في الطريق الذي لم يعد يرى سواه، أو لا يرغب في سواه، والأمران سيان، موت الرغبة في داخله للتفكير.. الإحساس أو الانتباه، وكأن قلبه وعقله في حالة موت سريري، يشعر بما حوله ولا يشعر، يرى العالم يتحرك من حوله ولا يحاول أن يكون جزءا منه، أصبح كل هذا وأكثر خلال عامين فقط!

كيف وصل إلى هذا المنعطف؟ لا يعلم، ولا يريد أن يعلم. كل ما يتذكره أنه أوشك أن ينهي سنوات المدرسة كأفضل ما يكون، كان إنسانا آخر، بدأ الأمر حين سقط والده مغشيا عليه،

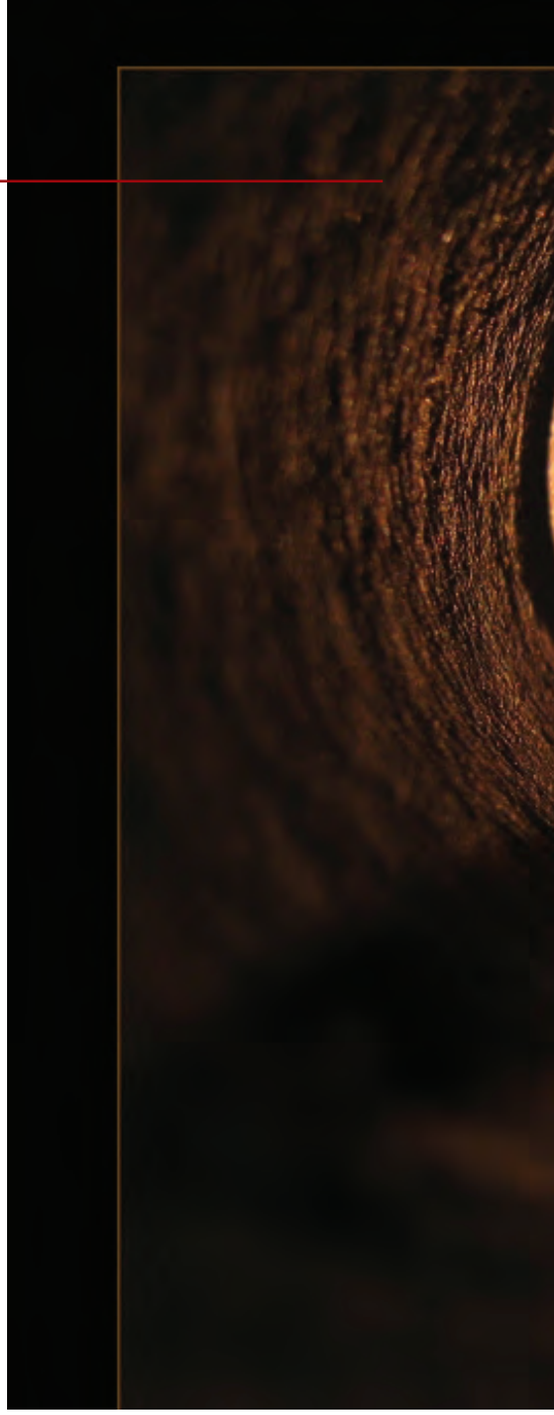

وفي المستشفى أعلنها الطبيب أن لا أمل في شفاء الوالد، وأنه قد يموت خلال أيام. عاد الجميع إلى البيت تحت وقع الصدمة، ينتظرون اللحظة التي يفارقون فيها الوالد، إلا والدته التي أصرت أن التشخيص ليس صحيحا! وبالفعل، أخذت زوجها إلى طبيب آخر ليخبرهم أن التشخيص السابق مخطئ وسيكون الوالد بخير بعد إجرائه عملية جراحية. حينها، وفي اللحظة التي عادت الحياة إلى عيني والدته وإخوته، قرر أن يكون طبيبا، لا يدري لماذا اتخذ ذلك القرار، لكنه أراده بشدة، وعزم على بذل أقصى طاقته لتحقيقه.

لم يتخل عن المركز الأول في كل مراحل دراسته اللاحقة لتلك الواقعة، وكلما فتر عزمه تذكر كلمات الطبيب وهي تنساب على مسامعهم ليبث العزم لروحه مجددا. لكنه، ولأسباب خارجة عن إرادته، تحصل أخيرا على مجموع لا يؤهله لدخول كلية الطب، ولا حتى المرور من جانبها.. هكذا سارت الأمور، قدم أفضل ما لديه، لكن لم يقدر له أن يجتاز آخر مرحلة.

ألجمته الصدمة، لم يبدر منه أي تصرف سوى الدخول في نوبة صمت طويلة، كمن وقع من ارتفاع شاهق، وحين سقط على الأرض لم يتألم، لأنه فقد القدرة على الإحساس بجسده وأطرافه، وهو حينها فقد القدرة على الوصول إلى مراكز الإحساس في أعماقه، كل ما في داخله أصبح يعج بالصمت. وبالهدوء ذاته رمى بملفه في كلية العلوم الإدارية، ومن دون عزيمة أخذ يتردد على الجامعة وقاعاتها، يستمع إلى أساتذته من دون أن يدري ما يحاولون قوله، لينهي عامه الجامعي الأول بإخفاق تام ورسوب بكامل مواده. ومع ذلك، لم يشعر بالذنب، أو يحاول إصلاح وضعه الدراسي، بل تمعن أكثر في معاقبة نفسه على ذنب لم تقترفه: يتسكع هنا وهناك، يصادق شبابا لم يعرف أمثالهم في حياته؛ سهر حتى الصباح، ونوم حتى ما بعد الظهر.. كان يهرب من مواجهة واقعه قدر ما يستطيع.

وها هو يسير الليلة إلى شقة صديقه، حيث يفترض بهما رفقة البقية أن يعيشوا «ليلة مميزة»، قالها وهو يغمز بعينه ويرسم ابتسامة خبيثة على شفتيه، كان يدرك أنه سيضيع هناك تماما، وقد لا يكون بمقدوره العودة.

«ماذا بعد؟!».. حدث نفسه وهو يغادر السيارة ويوشك على دخول العمارة «إلى أين تريد أن تصل؟!».

توقف مذهولا فهذه أول مرة يتردد هذا السؤال في أعماقه منذ وقت طويل. كان الأمر مجرد سهر وتمضية الليل برفقة بعض الأصدقاء، لكن أن يتجاوز للحرام فهذا ما لم يضعه في حسبانه «سأسهر حتى الفجر ثم أعود إلى البيت».. أجاب على سؤاله بإصرار وواصل ارتقاء درجات الدور الثاني.

«قف!».

دوت في رأسه بقوة، لدرجة أنه تلفت حوله ليتأكد أن لا أحد قد سمع الأمر الموجه من نفسه لنفسه. كان صوته الداخلي يتحدث، وإن شعر بأن شخصا آخر في داخله هو من نطق بهذه الحروف الثلاثة. نعم، كان هو من قالها.. «ياسر» الذي حاول جاهدا أن يدفنه في داخله، ها هو يستغيث مجددا، بعد أن تحرر نوعا ما من القيود التي كبله بها خلال أكثر من عامين.

شعر بالاختناق، أراد أن يكمل طريقه لكن قدميه تسمرتا.

«سأصعد إلى هناك».

قالها بصوت مسموع وهو مصمم على المواصلة، لكنه ما إن وصل إلى باب الشقة حتى تراجع ونزل الدرج بسرعة؛ ليجد نفسه وسط الشارع أخيرا، يتنفس بعمق هواء الليل البارد، حرك قدميه وبدأ يمشي من دون هدى.

فعلا ماذا يعني لو أنه لم يتمكن من تحقيق أمنية ما، ليس مبررا ليواصل الانحدار الذي هو عليه الآن، يكفي عامان من الحزن والاكتئاب والتيهان واللامبالاة، لا داعي للإسهاب أكثر، ولتضييع نفسه لأجل لا شيء، سيكون بمقدوره النجاح في أي مجال يريد، وتعويض أي خسارة تعرض لها، عليه أن يقرر ذلك فقط وسيفعل.

عاد إلى باب العمارة، نظر طويلا إلى بوابتها قبل أن يشيح ببصره بعيدا ويركب سيارته ويبتعد.

أيمن عبدالسميع
قاص من مصر

عم جابر الخياط

دخل شاب حانوتا قديما لخياط عجوز، فقدم الشاب قطعة قماش مستوردة (صوف إنجليزي) للرجل العجوز، وقال له مؤكدا:

يا عم جابر، أريد جلبابا «عليه القيمة للمناسبات»، ليس به عيب يذكر، ولك ما تطلب من الأجر.

ابتسم العجوز من دون أن ينبس ببنت شفة، ثم ربت على ذراع الشاب الفارع، وبعد لحظات من الصمت، تمتم بفم مرتعش:

إن شاء الله يا بني، بعد يومين طلبك سيكون جاهزا.

اجتهد عم جابر الخياط وسهر الليل؛ ليكون الثوب جيدا ومتقنا، وخاليا من العيوب تماما!

وبعد أن تسلم الشاب ثوبه من الخياط العجوز، عاد إليه في اليوم التالي، فقال للخياط العجوز وكله أسف وحزن:

يا عم جابر، لقد وجدت بعض العيوب في حياكة الثوب، وهذا لم يكن اتفاقنا (وأراه إياها).

فأجهش عم جابر الخياط بالبكاء الشديد، فتأثر الشاب ببكاء العجوز وضمه إلى صدره في حنو وقال له متأسفا:

● لا عليك يا عم جابر، لا تشعرني بالذنب، هكذا الثوب يعجبني، سامحني، والله ما قصدت أن أحزنك، وأنا راض بالثوب على حالته، ولن أنقصك جنيها من أجرك.

وبعد صمت دام طويلا، نطق عم جابر بشفة مرتعشة وهو يركن نظارته الطبية على صوان جواره، ولا يزال ينخرط في البكاء وصوته لا يكاد يخرج من حنجرته المعروقة:

● يا بني، ليس على هذا أبكي، لكني أبكي لأنني عملت كل جهدي؛ لأتقن لك حياكة الثوب، ثم خرجت تلك العيوب الظاهرة.. أنا أبكي على طاعتي لربي، وقد اجتهدت بها عمري الطويل، فكم فيها من العيوب؟!

فابتسم الشاب في وجه العجوز، وعاد يربت عليه من جديد.

ألق الضياء

محمد نور العلي
شاعر إماراتي

بمحمد ألق الضياء تلالا
ولقد رددت إلى الحقيقة حسنها

فكسا العوالم نضرة وجمالا
حتى غدت كالشامخات طوالا

في هدأة الصحراء رنّق نوره
ولقد غرست الأرض روحا فانتشت

فمشى الجميع لقدسه يتوالى
وغدت بصدق تنبت الأبطالا

ولقد أراق على الحياة بهاءها
وسهرت تحرس أمة صيرتها

وأحالها عرسا تتيه دلالا
للعالمين نموذجا ومثالا

لله سحر قد بدا من روحه
وبلغت تهدي الخافقين بدعوة

لكن ذاك السحر كان حلالا
سمحاء كنت لحسنها حمّالا

في يوم مولده الهداية أرسلت
فتسابقت أرض الحجاز لهديها

للظامئين محبة ووصالا
وغدا الخليج بعطرها مختالا

يوم تسامى لا أدق للطفه
وتلألأت أرض الكنانة جزلة

في العالمين ولا أجل جلالا
ومشت شآم لخيرها إقبالا

والخلق قبل اليوم جهل قاتل
فشموس حبك في القلوب مضيئة

سفكوا الدماء وقدسوا التمثالا
وسناء مجدك في الوجود تعالى

تاه الدليل فلا نجوم مضيئة
صلى عليك الله يا قمر الهدى

تهدي الحيارى يمنة وشمالا
يامن به ألق الضياء تلالا

قد شاب قرن الجاهلية وانمحت
جل المآثر وارتقت إضلالا

وعلا هتاف المجد يصدح قائلا
جاء الرسول يحقق الآمالا

هذا الذي شهد الأنام بفضله
كالبدر في كبد السماء كمالا

يا خير من زان البسيطة نوره
يامن سما بشمائل يتعالى

فلقد سموت على الورى برسالة
حوت الفضائل والهدى أجيالا

ولقد حملت الخلق نحو نجاتهم
من بعد ما جال الفساد وصالا

ولقد أرحت الناس من عهد العمى
فكأن ذاك العهد كان خيالا

وأعدت للإنسان كل كرامة
سلبت بشرع جهالة أحوالا

عثرات الأقلام (١)

التحرير

رأت مجلة «الوعي الإسلامي» إعادة نشر السلسلة الماتعة من «عثرات الأقلام» المسطرة بين طيات مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، والتي تهدف إلى نقد ما تهفو به أقلام بعض الكتاب فيما يكتبونه ويحبرونه.
واجتهد المجمع في الاقتصار على ما ظنه خطأ من القول، مما لا يحتاج فيه إلى الرد والمناقشة، تفاديا للمجادلات والمناقشات التي طالما كانت سببا في خفوت الأصوات، وموت المشروعات. وزيادة في تجنب أسباب الجدل والمناقشة، اكتفى المجمع بنقد القول دون ذكر اسم كاتبه أو الصحيفة التي كتب فيها.
سائلين الله عزوجل أن يقع هذا العمل موقع الرضا والقبول، فيتدبروا هذه الملاحظات، ويراعوا العمل بها كلما سنحت في كتاباتهم، إذ ليس الغرض من ذلك كله إلا خدمة اللغة العربية الكريمة، وإحياء فصيح تراكيبها وبليغ أساليبها، والله الموفق والمعين.

● قولهم: «عدم اعتياد الموظفين على كذا»، صوابه: «عدم اعتياد الموظفين كذا»، من دون حرف الجر، قال القاموس: «تعوده واعتاده جعله عادته وعوده إياه جعله يعتاده».

● وقولهم: «فلبثوا هناك برهة من الزمن»، يعنون وقتا قصيرا، مع أن «البرهة» هي الوقت الطويل، قال في الصحاح: «برَهَ: أتت عليه برهة من الدهر، أي مدة طويلة من الزمن»، وأما «الهنيهة» فهي الوقت القصير.

● وقولهم: «يواصلون السعي بهمة لا تعرف الكلل»، صوابه: «الكلال»، قال في الصحاح: «كللت من الشيء أكل كلالا وكلالة أعييت».

● وقولهم: «استفسروا من بعضهم بعضا» و«ينظرون إلى بعضهم البعض»، وصوابه: «استفسروا بعضهم بعضا»، و«ينظر بعضهم إلى بعض»، وهو غلط فاش فلينتبه إليه.

● وقولهم: «فضربه ما ينوف عن خمسين عصا»، صوابه: «ما ينيف على خمسين»، أي يزيد عليها، فإن هذا الفعل (ناف) إذا كان بمعنى الزيادة فلا يستعمل إلا رباعيا مع حرف الجر «على» لا «عن».

● وقولهم: «وهناك غرفة للمائدة ومحل للغسيل ومنتزه»، صوابه: «متنزه» بتقديم التاء، من التنزه «التفعل» لا الانتزاه «الافتعال»، وقوله: «محل للغسيل» الأظهر أن يقال فيه: «محل للغسل»، أي غسل الثوب، أما «الغسيل» بالياء فهو الثوب المفعول نفسه.

● وقولهم: «البضائع المتأخرة في العنابر»،

نبذة عن مجلة «المجمع العلمي العربي» ورئيس تحريرها

تعتبر مجلة «المجمع العلمي العربي» من المجلات العربية الرائدة والعريقة، حيث صدر عددها الأول في يناير سنة ١٩٢١م الموافق ٢١ ربيع الثاني سنة ١٣٣٩هـ.
ويتركب كيان هذه المجلة من أربعة أبواب:
الأول – في المقالات والمحاضرات ذات الموضوعات العلمية الفنية.
الثاني – في المراسلات التي ترد إلى إدارة المجلة من المراسلين والعلماء وأهل الفضل.
الثالث – في الأخبار والشؤون العلمية عامة.
الرابع – في أعمال المجمع ومساعيه الداخلية الخاصة به.
وكان هدف المجمع العلمي العربي من إصدار هذه المجلة: نشر ما يجري فيه وفي دوائره التابعة له من أعمال وأبحاث علمية.
أول رئيس تحرير للمجلة كان الأستاذ العلامة محمد كرد علي، وهو أول وزير للمعارف والتربية في سوريا، ورئيس المجمع العلمي العربي منذ تأسيسه سنة ١٩١٩م حتى وفاته ١٩٥٣م.
نشأ رحمه الله في أسرة كريمة، وقرأ كتب العربية والأدب على علماء دمشق الكبار أمثال: الشيخ سليم النجادي والشيخ طاهر الجزائري، وشغل عدة مناصب منها: رئيس تحرير صحف ومجلات عدة منها: «الشام» و«الرائد» و«الظاهر» و«المؤيد»، وأنشأ مجلة «المقتبس»، وأنشأ المجمع العلمي العربي عام ١٩١٩م وعُين رئيسا له حتى وفاته، وله العديد من المؤلفات: منها: «خطط الشام» و«أقوالنا وأفعالنا» و«الإدارة الإسلامية».

صوابه «الأنابر» جمع «أنبار» وقلب الهمزة عينا خطأ.

● وقولهم: «فلان كفؤ لوظيفة كذا» و«فلان من الأكفاء لكذا»، وصوابه: «فلان كفي» و«هو من الأكفياء»، أي ذو كفاية ومقدرة على العمل، أما «الكفؤ» بالهمزة فهو بمعنى «المثل»، واستعماله بمعنى «الكفي» بالياء خطأ ينبغي التفطن له.

● وقولهم: «وعدا عن ذلك فإن الأمر كيت وكيت»، صوابه: «وعدا ذلك» و«ما عدا ذلك» بإسقاط حرف الجر «عن».

● وقولهم: «فلان لا يهتم لهذا الأمر قط»، صوابه: «أبدا» أو «عوض»، إذ هما لتأكيد الاستقبال، أما «قط» فلتأكيد الماضي يقال: «ما اهتم لهذا الأمر قط».

● وقولهم: «كسر ربقة الأسر»، وصوابه أن يقال: «قطع ربقة الأسر أو فكها أو حلها أو خلعها»؛ لأن «الربقة» إحدى عرى الحبل الذي تشد به البهم، فهو يقطع قطعا ولا يتكسر كسرا. أما «النير»، وهو الخشبة المعترضة في عنقي الثورين، فيصح استعمال الكسر معه.

● ومن عثرات الأقلام قولهم: «وصدف أن أعداءه وشوا به إلى الملك»، وصوابه: «اتفق أن أعداءه – أو صادف أن أعداءه»، أما «صدف» الثلاثي فمعناه: «صرف وانصرف»، و«صدف عنه» أعرض وصد.

● وقولهم: «ثم انتقل إلى بيروت حيث توفي هناك»، «حيث» نفسها ظرف مكان بمعنى «هناك»، فمعنى «حيث توفي»: «هناك توفي»، وإعادة كلمة «هناك» تكرار لا داعي له.

● وقولهم: «إذا بحثنا في هذه الأمور لوجدناها كيت وكيت»، صوابه: «وجدناها» من دون إدخال اللام عليها؛ لأن اللام إنما تقع في جواب لو.

● وقولهم: «لابد في هذا الأمر من المفاداة والتضحية»، الأفصح أن يقال: «لابد فيه من المخاطرة أو المغامرة». وفسرت كتب اللغة «المغامر» بالذي يلقي بنفسه في الغمرات ويقتحم المهالك، أما «المفاداة» فمعناها أن تفدي أسيرا بأسر، كما أن «التضحية» بالشاة ذبحها وقت الضحوة ثم عم كل وقت.

● وقولهم: «ذلك خير بألف مرة من تحويل حتى جزء واحد... إلخ»، إقحام «حتى» بين المضاف والمضاف إليه لا مسوغ له، فالأظهر أن يقال: «من تحويل أقل جزء».

● وقولهم: «جاء القوم بما فيهم العلماء»، صوابه أن يقال: «جاءوا وفيهم العلماء أو معهم العلماء».

● وقولهم: «لابد وأن يكون كذا»، صوابه: حذف «الواو» من بين «بد» وما بعدها؛ لأن ما بعدها متعلق بها على تقدير حرف الجر «من»، إذ المعنى: «لا فرار ولا محيص من أن يكونوا كذا».

● وقولهم: «يجب كذا حتى ولو كان مضرا»، صوابه حذف «حتى»، فيقال: «يجب كذا ولو كان مضرا».

● وقولهم: «إنما فعلت هذا الأمر لأجل صالح الوطن – أو لأجل صوالح الوطن»، والأظهر أن يقال: «لأجل مصلحة الوطن أو مصالحه».

● وقولهم: «تنازعوا على النفوذ في البلاد»، صوابه أن يقال: «تنازعوا في النفوذ»، أي تخاصموا. ويصح أن يقال أيضا: «تنازعوا النفوذ» من دون حرف جر، على معنى تجاذبوه وأراد كل منهم أن يستأثر به.

● وقولهم: «يجتهدون في عمار البلاد»، صوابه: «في عمران البلاد» أو في «عمارة البلاد» بالتاء.

المصدر:
مجلة المجمع العلمي العربي – دمشق
الجزء (٦) حزيران سنة ١٩٢١م – الموافق ١٨ رمضان سنة ١٣٣٩هـ – المجلد الأول.

«جامع الأصول»

لابن الأثير

عبادة نوح

إن السنة النبوية هي الأصل الثاني من أصول الأحكام الشرعية التي أجمع المسلمون على اعتبارها أصلا قائما بذاته، فهي والقرآن متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالقرآن كلي هذه الشريعة، والرسول ﷺ مبين بسنته لجزئياتها. قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤)، وقد أنعم الله على هذه الأمة الإسلامية بأن قيض لها في القرون الأولى نخبة ممتازة وصفوة مختارة، ندبت أنفسها لخدمة السنة النبوية المطهرة ولم شتاتها، فالتقطوها من أفواه سامعيها، وجمعوها من صدور حامليها، وطووا الفيافي والقفار إلى حفظتها في كل قطر ومصر، وبذلوا في سبيل ذلك أموالهم، وأفنوا أعمارهم، فكان من أثر ذلك تدوين المؤلفات الضخمة العديدة التي ضمت تراث نبينا الكريم ﷺ، فاستحقوا بذلك رضوان الله تعالى، والشكر والتكريم.

وكتاب «جامع الأصول» أحد تلك المؤلفات العظيمة، عمد فيه مؤلفه إلى الأحاديث التي وعتها الأصول الستة المعتمدة عند الفقهاء والمحدثين: الموطأ، والبخاري، ومسلم، وأبوداود، والترمذي، والنسائي، التي حوت معظم ما صح عن النبي الكريم ﷺ، فجمعها وأدمجها كلها في مؤلف واحد، بعد أن رتبها وهذبها وذلل صعابها، وقرب نفعها، وافتتحه بمقدمة ضافية فصل فيها الطريقة التي اتبعها في تصنيف الكتاب، وذكر جل قواعد مصطلح الحديث التي تمس الحاجة إلى معرفتها، وختمها بتراجم الأئمة الستة الذين جمع كتبهم في تأليفه هذا، فجاء فذا في بابه، وكل من يقتنيه عن الأصول الستة يغنيه.

لقد ذكر المؤلف في مقدمته أن أول عمل قام به، هو حذف الأسانيد، فلم يثبت إلا اسم الصحابي الذي روى الحديث عن النبي ﷺ إن كان خبرا، أو اسم من يرويه عن الصحابي إن كان أثرا، اللهم إلا أن يعرض في الحديث ذكر اسم أحد رواته فيما تمس الحاجة إليه، فإنه يذكره لتوقف فهم المعنى المذكور في الحديث عليه.

وأما متون الأحاديث، فقد أثبت منها ما كان حديثا عن رسول الله ﷺ، أو أثرا عن صحابي، وما وجد من أقوال التابعين والأئمة المجتهدين في الأصول التي جمعها في كتابه، فلم يذكرها إلا نادرا.

واعتمد في النقل من كتابي البخاري ومسلم على «الجمع بين الصحيحين» للإمام أبي عبدالله الحميدي، وذكر أنه أحسن في ذكر طرقه، واستقصى في إيراد رواياته، وأن إليه المنتهى في جمع هذين الكتابين، وأما باقي الكتب الأربعة، فقد نقلها من الأصول التي قرأها وسمعها، كما اعتمد على نسخ أخرى منها غير مسموعة له.

وقد عول في المحافظة على ألفاظ البخاري ومسلم أكثر من غيرهما من باقي الأئمة الأربعة، اللهم إلا أن يكون في غيرهما زيادة أو بيان أو بسط، فإنه يذكرها، كما يتتبع الزيادات من جميع الأمهات، ويضيفها إلى مواضعها.

وقد عدل عن الطريقة التي اتبعها أصحاب الأصول الستة في الترتيب والتبويب، لأن كل واحد منهم قد

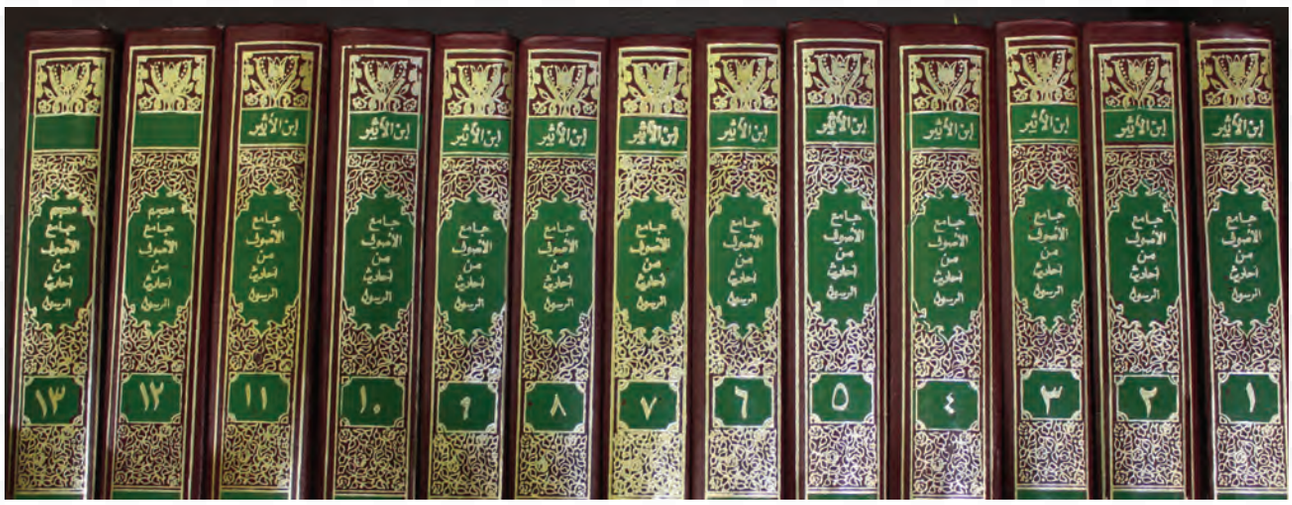

ذكر أحاديث في أبواب من كتابه، ذكرها غيره في غير تلك الأبواب، فعمد إلى الأحاديث المضمنة في هذه الأصول، فاعتبرها وتتبعها واستخرج معانيها، وبنى الأبواب على المعاني التي دلت عليها الأحاديث.

وكل حديث انفرد بمعنى، أثبته في باب يخصه، وما اشتمل من الأحاديث على أكثر من معنى، إلا أنه بأحدها أخص، وهو فيها أغلب، فقد أثبته في الباب الذي هو أخص به وأغلب عليه، وإذا كان يشتمل على أكثر من معنى، ولا يغلب أحد المعاني على الآخر، فقد أورده في آخر الكتاب في اللواحق.

ثم إنه خرج أسماء الكتب المودعة في الكتاب، وجعلها مرتبة على حروف المعجم، طلبا لتسهيل كلفة الطلب، وتقريبا على المريد بلغة الأرب.

وقد أثبت ما وجده في كتب الغريب واللغة والفقه من معنى مستحسن، أو نكتة غريبة، أو شرح واف في آخر كل حرف على ترتيب الكتب، بعد الاحتياط فيما نقله، وما لم يجده فيها - وهو قليل - فقد ذكر فيه ما سنح له بعد سؤال أهل المعرفة والدراية.

ومما لا شك أنه قد أسدى بتأليفه هذا الكتاب العظيم إلى الإسلام وأهله يدا لا تزال مشكورة، ما دام في الدنيا من يدين بهذا الدين، ويتبع سبيل المؤمنين. فجزاه الله خير جزاء.

ترجمة المؤلف:

هو الإمام البارع مجد الدين أبوالسعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزري ثم الموصلي المعروف بابن الأثير، ولد سنة ٥٤٤هـ قرب الموصل، وتلقى معارفه الأولى، من تفسير وحديث ونحو ولغة وفقه وغيرها من العلوم.

كان من محاسن الزمن، ذا دين متين، وطريقة مستقيمة، عارفا، فاضلا، ورعا، عاقلا، مطاعا، رئيسا، مشاورا، ذا بر وإحسان، وصنف تصانيف مشهورة، وألف كتبا مفيدة، منها: «غريب الحديث» على حروف المعجم، وهو المعروف بالنهاية، و«الشافي شرح مسند الشافعي»، و«الإنصاف بين الكشف والكشاف» جمع فيه بين تفسيري الثعلبي والزمخشري، و«البديع» في النحو، و«الباهر في الفروق» في النحو أيضا، و«تهذيب فصول ابن الدهان»، و«المصطفى المختار من الأدعية والأذكار»، و«كتاب لطيف في صناعة الكتابة»، وغيرها.

ولما أقعد آخر عمره، جاء رجل مغربي فعالجه بدهن صنعه، فبانت ثمرته، وتمكن من مد رجليه، فقال لأخيه عز الدين: أعطه ما يرضيه، واصرفه، فقال أخوه: لماذا وقد ظهر النجح؟ قال: هو كما تقول، ولكني في راحة من صحبة هؤلاء القوم - يعني الأمراء والسلاطين -، وقد سكنت نفسي إلى الانقطاع والدعة، وبالأمس كنت أذل نفسي

بالسعي إليهم، وهنا في منزلي لا يأتون إلي إلا في مشورة مهمة، ولم يبق من العمر إلا القليل، فدعني أعش باقيه حرا سليما من الذل، قال أخوه: فقبلت قوله وصرفت الرجل بإحسان، فلزم بيته صابرا محتسبا، يقصده العلماء، ويفد إليه السلاطين والأمراء، يقبسون من علمه، وينهلون من فيضه، حتى توفي رحمه الله بالموصل سنة ٦٠٦ هـ (١).

قطوف من كلام المصنف في المقدمة:

قال رحمه الله: «أما بعد، فإن مبنى هذا الكتاب على ثلاثة أركان:

الأول: في المبادئ، والثاني: في المقاصد، والثالث: في الخواتيم.

والركن الأول: ينقسم إلى خمسة أبواب:

الباب الأول: في الباعث على عمل الكتاب، وفيه مقدمة وأربعة فصول..

المقدمة: ما زلت في ريعان الشباب، وحداثة السن، مشغوفا بطلب العلم، ومجالسة أهله، والتشبه بهم حسب الإمكان، وذلك من فضل الله علي، ولطفه بي أن حببه إلي، فبذلت الوسع في تحصيل ما وفقت له من أنواعه، حتى صارت في قوة الاطلاع على خفاياه، وإدراك خباياه، ولم آل جهدا - والله الموفق - في إجمال الطلب، وابتغاء الأرب، إلى أن تشبثت من كل بطرف تشبهت فيه بأضرابي، ولا أقول: تميزت به على أترابي، ولله الحمد على ما أنعم به من فضله، وأجزل من طوله، وإليه المفزع في الإسعاد بالزلفى يوم المعاد، والأمن من الفزع الأكبر يوم التناد، وأن يوزعني شكر ما منحنيه من الهداية، وجنبنيه من الغواية.

وبعد، فإن شرف العلوم يتفاوت بشرف مدلولها، وقدرها يعظم بعظم محصولها.... إلا أن من أصول فروض الكفايات؛ علم أحاديث رسول الله ﷺ، وآثار أصحابه رضي الله عنهم التي هي ثاني أدلة الأحكام، ومعرفتها أمر شريف، وشأن جليل، لا يحيط به إلا من هذب نفسه بمتابعة أوامر الشرع ونواهيه، وأزال الزيغ عن قلبه ولسانه.

وله أصول وأحكام وقواعد، وأوضاع، واصطلاحات ذكرها العلماء، وشرحها المحدثون، والفقهاء، يحتاج طالبه إلى معرفتها، والوقوف عليها بعد تقديم معرفة اللغة والإعراب، اللذين هما أصل لمعرفة الحديث، لورود الشريعة المطهرة بلسان العرب.

وتلك الأشياء:

كالعلم بالرجال، وأساميهم، وأنسابهم، وأعمارهم، ووقت وفاتهم.

والعلم بصفات الرواة، وشرائطهم التي يجوز معها قبول روايتهم.

والعلم بمستند الرواة، وكيفية أخذهم الحديث، وتقسيم طرقه.

والعلم بلفظ الرواة، وإيرادهم ما سمعوه، وإيصاله إلى من يأخذه عنهم، وذكر مراتبه.

والعلم بجواز نقل الحديث بالمعنى، ورواية بعضه، والزيادة فيه، والإضافة إليه ما ليس منه، وانفراد الثقة بزيادة فيه.

والعلم بالمسند وشرائطه، والعالي منه، والنازل.

والعلم بالمرسل، وانقسامه إلى المنقطع، والموقوف، والمعضل، وغير ذلك، واختلاف الناس في قبوله، ورده.

والعلم بالجرح والتعديل، وجوازهما ووقوعهما، وبيان طبقات المجروحين.

والعلم بأقسام الصحيح، والكاذب، وانقسام الخبر إليهما، وإلى الغريب، والحسن وغيرهما.

والعلم بأخبار التواتر، والآحاد، والناسخ، والمنسوخ.

وغير ذلك مما تواضع عليه أئمة الحديث، وهو بينهم متعارف.

فمن أتقنها، أتى دار هذا العلم من بابها، وأحاط بها من جميع جهاتها، وبقدر ما يفوته منها تنزل عن الغاية درجته، وتنحط عن النهاية رتبته، إلا أن معرفة التواتر والآحاد، والناسخ والمنسوخ - وإن تعلقت بعلم الحديث - فإن المحدث لا يفتقر إليها؛ لأن ذلك من وظيفة الفقيه؛ لأنه يستنبط الأحكام من الأحاديث، فيحتاج إلى معرفة المتواتر، والآحاد، والناسخ، والمنسوخ.

فأما المحدث، فوظيفته أن ينقل، ويروي ما سمعه من الأحاديث كما سمعه، فإن تصدى لما وراءه، فزيادة في الفضل، وكمال في الاختيار...».

ثم نثر تلك الفوائد الحديثية العظيمة في فصول متعددة، هذه عناوينها:

الفصل الأول: في انتشار علم الحديث، ومبدأ جمعه وتأليفه.

الفصل الثاني: في بيان اختلاف أغراض الناس ومقاصدهم في تصنيف الحديث.

الفصل الثالث: في اقتداء المتأخرين بالسابقين، وسبب اختصارات كتبهم وتأليفها.

الفصل الرابع: في خلاصة الغرض من جمع هذا الكتاب.

الباب الثاني: في كيفية وضع الكتاب، وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: في ذكر الأسانيد والمتون.

الفصل الثاني: في بيان وضع الأبواب والفصول.

الفصل الثالث: في بيان التقفية، وإثبات الكتب في الحروف.

الفصل الرابع: في بيان أسماء الرواة والعلائم.

الفصل الخامس: في بيان الغريب والشرح.

الفصل السادس: فيما يستدل به على أحاديث مجهولة الوضع.

الباب الثالث: في بيان أصول الحديث، وأحكامها، وما يتعلق بها.

الفصل الأول: في طريق نقل الحديث وروايته، وفيه سبعة فروع:

الفرع الأول: في صفة الراوي وشرائطه.

الفرع الثاني: في مسند الراوي، وكيفية أخذه.

الفرع الثالث: في لفظ الراوي وإيراده، وهو خمسة أنواع:

النوع الأول: في مراتب الأخبار، وهي خمس.

النوع الثاني: في نقل لفظ الحديث ومعناه.

النوع الثالث: في رواية بعض الحديث.

النوع الرابع: انفراد الثقة بالزيادة.

النوع الخامس: في الإضافة إلى الحديث ما ليس منه.

الفرع الرابع: في المسند والإسناد.

الفرع الخامس: في المرسل.

الفرع السادس: في الموقوف.

الفصل الثاني: في الجرح والتعديل، وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: في بيانهما وذكر أحكامهم.

الفرع الثاني: في جواز الجرح ووقوعه.

الفرع الثالث: في بيان طبقات المجروحين.

الفصل الثالث: في النسخ.

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: في حده وأركانه.

الفرع الثاني: في شرائطه.

الفرع الثالث: في أحكامه.

الفصل الرابع: في بيان أقسام الصحيح من الحديث والكذب، وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: في مقدمات القول فيها.

الباب الرابع: في ذكر الأئمة الستة وأسمائهم، وأنسابهم، وأعمارهم، ومناقبهم وآثارهم.

الباب الخامس: في ذكر أسانيد الكتب الأصول المودعة في كتابنا هذا.

الركن الثاني: في مقاصد الكتاب.

الركن الثالث: في الخواتم، ويشتمل على ثلاثة فنون:

الفن الأول: في ذكر الأحاديث

الفن الثاني من الركن الثالث: في ذكر الأسماء والكنى والأبناء والألقاب والأنساب، وتشتمل على خمسة أبواب.

الفن الثالث: في فهرست الكتب والحروف والأبواب والفصول والفروع.

قال رحمه الله: «فلذلك جميعه، الأركان ثلاثة أركان، الكتب مائة وتسع وعشرون كتابا، الأبواب مائة وواحد وثلاثون بابا، الفصول خمسمائة وثلاثة عشر فصلا، الفروع مائتان وواحد وسبعون فرعا، الفنون ثلاثة فنون، الأقسام ستة أقسام، ومقدمة وخاتمة».

هامش

(١) من أول الكلام إلى هنا، مستفاد من مقدمة محقق كتاب جامع الأصول، الشيخ عبد القادر الأرنؤوط - رحمه الله - مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى.

«الوعي الإسلامي» زارته في تركيا وجالت في مكتبته العامرة بالكتب النادرة:

أرسيكا.. منارة فكرية جديدة

استطلاع : تركي محمد النصر - تصوير : هدايت الله نثار

مركز البحوث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في تركيا (أرسيكا) من أبرز المراكز البحثية في العصر الحديث، بدأ عمله عام ١٩٨٠م، بوصفه أول جهاز ثقافي في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي. وقد عكس قرار إنشاء المركز - والذي صدر عن المؤتمر الإسلامي السابع لوزراء الخارجية في عام ١٩٧٦م، باقتراح من الجمهورية التركية - رغبة الدول الأعضاء في إبراز حضارتها وتاريخها وتراثها المشترك، وهو ما يشكل أساس تضامنها وتعاونها.. المدير المؤسس للمركز البروفيسور أكمل الدين إحسان أوغلو، اتبع نهجا علميا وإبداعيا في آن واحد، وفر لعمل المركز توجهه وصلته بالعالم الإسلامي والمجتمع العالمي بأسره، وقد عمل المركز على تحقيق أهدافه من خلال إقامة برامج أبحاث أصلية، وتعاون ثقافي دولي، مما أبرز العمل الثقافي كأحد أبرز مجالات عمل المنظمة.

مجلة «الوعي الإسلامي» زارت «أرسيكا» أخيرا بوفد على رأسه رئيس تحريرها فيصل يوسف العلي، الذي استقبله مدير المركز الدكتور خالد أرن، في غرفة مكتبه بقصر «يلديز»، موضحا الدور النشط الذي يقوم به مركز البحوث الإسلامي للتاريخ والفنون منذ بداية إنشائه في جميع المحافل، من حيث إجراء البحوث ونشرها وعقد المؤتمرات والمهرجانات والمسابقات المعمارية والفنية، كما أشار إلى تنظيم المركز في ثمانينيات القرن الميلادي الماضي فعاليات تشمل برنامج النشاطات الخاصة بالشعوب والثقافات الإسلامية، مما ساعد على وضع دراسات أكاديمية في هذه المجالات، مؤكدا أن برامج المركز تساهم في بناء تفاهم إيجابي بين الحضارات، وبخاصة بين العالمين الإسلامي والغربي.

وأوضح أرن أن برنامج المركز طويل المدى الخاص بالعلماء المسلمين وما أنتجوه من أعمال عبر القرون، أثمر مجلدات سيرة ذاتية سجلت التراث المدون للثقافة الإسلامية، فنشر المركز ١٥ مجلدا حول تاريخ الأدبيات العلمية في العالم الإسلامي، شملت علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا والعلوم العسكرية والعلوم الطبيعية والتطبيقية والطبية، كما نشر المركز مطويات وسيرا ذاتية عكست تاريخ الثقافة في العالم الإسلامي.

المركز قام بدراسة متعمقة لنسخ أقدم مصاحف العالم وأعاد طباعتها صورة طبق الأصل

وإجمالا، أنتج مركز «أرسيكا» ١٢٨ كتابا بلغات مختلفة: العربية والإنجليزية والفرنسية والألبانية والبوسنية والفارسية والتركية والأوردية واليابانية والروسية ولغة الملايو، نُشر بعضها بالتعاون مع مؤسسات أكاديمية في البلدان المعنية. ونظم المركز مئات المعارض الفنية والوثائقية والمحاضرات العامة، كما نظم أكثر من ستين معرضا علميا في مختلف البلدان.

مكتبة مركز «أرسيكا» في «مخزن ذخيرة»!

من خلال جولة في مكتبة مركز «أرسيكا» تبين أن المكان كان مخزنا عثمانيا قديما للسلاح (سلاحخانة سراي يلديز)، ثم افتتح تحت رعاية رئيس وزراء تركيا آنذاك والرئيس الحالي رجب طيب أردوغان في ١٧ مايو ٢٠٠٩م.

تضم هذه المكتبة المتخصصة في

نسخة صنعاء

أهدى مدير «أرسيكا» الدكتور خالد أرن نسخة من «مصحف صنعاء» لرئيس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي» فيصل يوسف العلي، الذي قام بدوره بإهداء مكتبة «أرسيكا» نسخة من إصدارات مجلة «الوعي الإسلامي».

مدير أرسيكا يطلع رئيس التحرير على إحدى المخطوطات

الثقافة والحضارة الإسلامية أكثر من سبعين ألف مجلد نادر تعود لبدايات عصر الطباعة في ١٤٠ لغة، وتضم ١٥٠٠ دورية، إضافة إلى مخطوطات قيمة، وآلاف من الخرائط والأوعية الميكروفيلمية. ومن أثمن محتويات مكتبة سراي يلديز المصاحف النفيسة، حيث أولى المركز أهمية بالغة لعلوم القرآن الكريم، والبحث في المصاحف التاريخية القديمة التي تحتل مكانة متميزة في العالم الإسلامي.

ونعرف من خلال الجولة أن المركز قام بعمل دراسة حول مصاحف تعد من أقدم المصاحف المنسوخة في العالم، لشرح خصائصها والتعريف بها، ثم نشر هذه المصاحف في صورة طبق

الأصل.

ومنها مصحف فاضل باشا «شريفوفيتش» والمحفوظ في مكتبة غازي خسرو بيك في مدينة سراي بوسنة في البوسنة والهرسك عام ٢٠٠٢م، ومصحف «قازان» الذي طبع في قازان بتتارستان عام ١٨٠٣م وعرف بأنه أول مصحف جرت طباعته في العالم الإسلامي، كذلك المصحف الشريف المنسوب إلى عثمان ابن عفان رضي الله عنه، نسخة متحف طوب قابي سراي ٢٠٠٧م، وقد أجريت عدة دراسات أخرى على المصحف ذاته.

والمصحف الشريف المنسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه (نسخة صنعاء)، يأتي هذا المصحف ليضم دراسة جديدة قام بها الدكتور طيار آلتي قولاج، وهذه الدراسة عميقة في عملية البحث الفني المقارن، وهو محفوظ في الجامع الكبير بصنعاء عاصمة اليمن.

وهذا العمل يشكل مرحلة متقدمة من سلسلة الصور طبق الأصل والدراسات العلمية والفنية التي رافقتها، وهو الأوسع بالمقارنة مع ما سبقه من الأعمال المشابهة.

ولعل من ميزات هذه النسخة أن مركز «أرسيكا» استطاع استكمال العمل ونشره مع صورة طبق الأصل من مصحف صنعاء خلال مدة زمنية محددة تم الانتهاء منها خلال عام ٢٠١١م، وأعلن عنه في مؤتمر بحضور أردوغان.

مكتب مدير «أرسيكا» قصر يلدز

بدأ اللقاء بمدير مركز «أرسيكا» في غرفة مكتبه، قد تبين أنها الغرفة العريقة نفسها التي لطالما استقبلت سفراء الدول في عهد السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله.

أطفالنا والتكنولوجيا الترفيهية

د. آندي حجازي
أكاديمية في علم النفس التربوي

في الماضي، وليس البعيد، ونتحدث عن زمن كنا فيه أطفالا، كنا نتذوق معنى الطفولة، كنا نلعب، نقفز، نركض، نتسابق، نتمرجح، نلهو ونمرح مع أطفال الجيران والأقارب.. مازالت ذاكرتنا تحمل ذكريات مرحة كنا فيها نتسابق، نلعب «الاستغماية»، يجري بعضنا وراء بعض، نركب الدراجات الهوائية والزلاجات اللوحية، ونلعب بالكرة ألعابا لا تنتهي، ونخترع ألعابا، ونذهب إلى المكتبات العامة من أجل المطالعة وقضاء الأوقات بين صفحات الكتب والأحجيات، فنقرأ القصص والمجلات، بل وأجزاء من الموسوعات... فأذكر أن طفولتنا تضمنت الكثير من الانطلاق في الهواء الطلق، وخارج الأبواب، وبين أحضان الطبيعة، فلم تكن الأبواب موصدة، كنا نذهب في رحلات عائلية جماعية أسبوعية تجمع الأقارب، نتنقل بين مروج الطبيعة وفي ربوعها وربيعها وبساتينها الغناء، نشعر بعذوبة الطبيعة وجمالها وألحانها وروعتها وعظمة خالقها، فنحمد الله على آلائه، ونستمتع بطفولة لا يكدرها الزمان.

وفي المقابل؛ أنظر اليوم بعين المتأمل إلى أطفالنا في عالم وصف بالمتغير، والمتسارع، وسريع التغير، وعالم السرعة، وعالم التكنولوجيا، والعالم الرقمي، وعالم الاتصالات، والثورة التكنولوجية، وعالم الإلكترونيات، والبطاقات، والاختراعات، والقرية الصغيرة.. فكل شيء أصبح متوافرا وسريعا وبين أيدينا ومتطورا، يوفر الوقت والجهد، ويجلب لك المعلومة بأقل من الثانية ومن دون جهد أو عناء، ويطلعك على كل العالم وأحداثه اليومية لحظة بلحظة، والحمد لله.. ولكن التكنولوجيا سلاح ذو حدين، فيها الغث وفيها السمين، فيها الحق وفيها الباطل، فيها الحقيقة وفيها الخيال، وفيها الواقع وفيها المبالغة، فيها الخير وفيها الشر.. وفي خضم كل هذا أين نجد أطفالنا اليوم؟ إذا بحثتم عن أطفالنا فلن تجدوهم إلا بين أربعة جدران، يقبعون في مشهد من تلك المشاهد الأربعة التي قدمتها التكنولوجيا الترفيهية للطفل وهي:

الطفل والهاتف المحمول

طفل أو مراهق يضع رأسه في جهاز صغير نقال ينقله معه أينما حل أو ارتحل، ولو غادر مقعده لثوان معدودة غادر معه النقال وكأنه قطعة من جسده! كيف لا وهو يتنقل في عالم المحمول من مشهد لمشهد، ومن فيديو لآخر، ومن صفحة لأخرى، ومن موقع لموقع، ومن لعبة لأخرى، ومن فيسبوك لتويتر، ومن واتسآب لرسالة أخرى في واتسآب... جهاز يأكل وقته أكلا، ويجذب نظره جذبا، ويسرق عقله خلسة، فإن ناديت ابنك فلا يسمع، وإن أشرت إليه بيدك لا يكاد يراك! إنه مندمج في عالمه الخاص، الذي يغوص به غوص البحار العميق، يسرق لبه وقلبه كالساحر أو كسارق محترف! قد يؤخره عن صلاته وعن أعماله المدرسية وعن زيارات أقاربه واللعب مع رفاقه، ليجعله يعيش في عالم رقمي ليس بالحقيقي بعيدا عن التفاعلات الاجتماعية الحقيقية وعن

تعود لقاء الناس والتعامل مع البشر وجها لوجه! فما المستقبل المنتظر لأطفالنا؟!

وفي خضم هذا كله؛ هل سألت نفسك أيتها الأم وأيها الأب ماذا يشاهد ابنكما في هذا الجهاز؟ هل حاولتما معرفة ما سر تعلقه بتلك الآلة الصغيرة؟ هل جربتما محاورته ومعرفة ما يشاهده؟ هل تأكدتما من أنه لا يشاهد مناظر مخلة بالآداب أو الحياء أو تعارض الدين؟ أو أنه يكثر من إضاعة الوقت بلا طائل؟ هل شعرتم بالندم يوما لشراء هذ الجهاز لابنكم؟ فهل حاولتم وضع قوانين والوصول إلى تسوية مع ابنكم في شروط استخدامه أم الأمور هائمة لا يعرف الابن أين مستقره؟! فالمخاوف من تفاقم انحدار أبنائنا في الحفرة لا التراجع والاستدراك.

مع ألعاب الفيديو

إنها ألعاب الفيديو (الألعاب الإلكترونية)، أو ما يعرف بـ Playstation X-Box وألعاب الكمبيوتر والفيديو، فهي ألعاب يفترض أنها تقدم التسلية والمرح والمتعة والفائدة لأبنائنا، فهي تستغرق من وقت الأطفال الكثير. تجد الطفل شديد الاهتمام بتلك الألعاب؛ إنه في حالة انشغال تام، منجذب بكل حواسه، ويداه لا تكادان ترتفعان عن آلة التحكم، وعيناه لا تفارقان الشاشة ولا حتى للحظة! حيث اللحظة الواحدة معناها خسائر كثيرة في اللعبة... تركيز شديد، إدمان كبير، عنف شديد، انفعالات حادة من الابن! إنه في حالة اندماج تام لا يجب أن يتكلم معه أحد أو يطلب منه شيئا!

فهل يا ترى فكرنا ماذا يتعلم الطفل من تلك الألعاب؟ ماذا تقدم له؟ ما الذي تركز عليه؟

إن غالبية تلك الألعاب تقدم العنف لأبنائنا، فقد وجد بالأبحاث أن ٢٢ ألف لعبة فيديو من أصل ٣٠ ألف لعبة تقدم العنف، العنف بأشكاله الجسدية، كالضرب والقتل والركل والسباب، والزيادة في سرعة السيارات، والتعدي على الآخرين، والاعتداء الجنسي، وتعليم السرقة! ثم نتساءل: لماذا بدأت مجتمعاتنا تعاني من العنف؟ لماذا كثرت جرائم القتل؟ لماذا زادت مشاكل التحرش الجنسي؟ لماذا لم يعد أبناؤنا يستشعرون حجم الكوارث في بلادهم؟ لماذا تبلدت مشاعرهم؟ إن كان أطفالنا ينشأون على العنف بكل وسائل التكنولوجيا والإعلام فكيف ستكون مشاعرهم تجاه العنف بعد ذلك؟ لابد أنها مشاعر متبلدة، ترى القتل والدمار والتخريب من دون أن تحرك ساكنا، أو تبدي استهجانا في نفسها على الأقل!

هل تعلم أيها الأب المربية وأيتها الأم المربية أن هناك ألعابا تحلل الحرام، فتعرض نساء شبه عاريات يدخلن على اللاعب في غرف خاصة؟ أو تجعله يقود عصابات سرقة وقتل، يقتل كل من يعارضه أو يواجهه في طريقه، فيسرق سيارته مثلا ويرميه في الطريق؟ أو تجعل الطفل يدخل إلى المراقص والملاهي الليلية، ويشارك في خلع الملابس أو لعب القمار؟!

أي تربية نتوخاها من وراء مثل هذه الألعاب المستوردة في ثقافتها ومضمونها وأفكارها، والبعيدة كل البعد عن ثقافتنا وهويتنا وديننا الإسلامي؟! إن لم نحذر منها فأي تنشئة سينشأ عليها أطفالنا، أي تشويه لثقافتنا وقيم أبنائنا، ونحن في غفلة منها، وما علينا سوى شراء تلك الألعاب المدمرة للتربية وللقيم الأخلاقية والإسلامية وتقديمها لأطفالنا من دون التأكد من مضمونها، من أجل إشغال أبنائنا بأي وسيلة ترفيهية فقط من دون التفكير في أبعادها التربوية على المدى البعيد؟!

وفي الصدد ذاته، لماذا لا نفكر في صناعة ألعاب إلكترونية مرتبطة بثقافتنا وهويتنا العربية والإسلامية تنمي الأخلاق بدلا من تدميرها، تنمي العادات الحميدة بدلا من تشجيع ارتكاب الكبائر؟ لماذا لا ننتج ألعابا تستخدم في التعليم في مدارسنا؟ هل تنقصنا العقول المفكرة، أم الإمكانات المادية، أم القيم العليا، أم الدافعية الذاتية لذلك؟ إن لم نوظف التكنولوجيا لمصلحتنا وظفت هي ضد مصالحنا وعاداتنا!

التلفزيون

المحطات الفضائية، وما أدراك ما تقدمه من برامج ومسلسلات للأطفال والمراهقين وحتى رسوم متحركة! في الماضي أتذكر أننا كنا

كأطفال نحب حضور برنامج «افتح يا سمسم» وبرنامج «المناهل» وغيرهما من البرامج المقدمة إلى الأطفال، فكانت البرامج من صناعة عربية تتوافق مع ثقافتنا وحضارتنا وقيمنا ولغتنا، وتبث باللغة العربية الفصيحة، تنمي عقولنا ومعارفنا وانتماءنا للغتنا، تزرع فينا الحب للآخرين وتزرع المساعدة والتعاون والصدق والأمانة ومحبة الجيران والسؤال عنهم. لكن عندما لم نعد نصنع مثل تلك البرامج، وأصبحت برامجنا مستوردة كأي بضاعة من الصين واليابان وفرنسا وأميركا وأوروبا... فماذا ستحمل في طياتها؟

البرامج التلفزيونية المقدمة إلى الأطفال اليوم لا تكاد تخلو مما يلي:

● مشاهد العنف والقتل وارتكاب الجرائم والدماء والسرقة، ثم التحقيق في تلك الجرائم، بعد تشجيعها وزرع وسائلها وطرقها وأدواتها في عقول الأطفال! وقد أكدت دراسات كثيرة، عربية وأجنبية، بل وأميريكية، على أن معدلات العنف تزداد عند الأطفال بحضور أفلام ومسلسلات تلفزيونية تتضمن العنف، فالعلاقة طردية؛ فكلما زادت ساعات جلوس الأطفال أمام التلفاز زادت حالات العنف والعدوان لديهم. ووجد أن الأطفال يتعلمون بالتقليد، فهم يتحولون من مشاهدين إلى مقلدين وممارسين لتلك السلوكيات، فحتى برنامج كـ«توم وجيري» يتضمن العنف والحيل والخداع في الإيقاع بالآخرين والنيل منهم!

● **المشاهد والأفكار الجنسية**

الأفلام التي تقدم إلى أبنائنا الصغار أو المراهقين والرسوم المتحركة اليوم لم تعد بتلك البراءة التي من المفترض أن تقدم إلى الصغار! إنها تتضمن قصص الحب والغرام للجنس الآخر، بل ومشاهد التقبيل للجنس الآخر، واللباس المتعري والقصير والضيق الفاضح! ولم التعجب وهي ليست من ثقافتنا ولسنا من أنتجها، فهي دخيلة على ثقافتنا، ومناقضة تماما لتعاليم ديننا وما يرضي الله تعالى. والسؤال: لماذا لا ننتج - نحن العرب - تلك البرامج التلفزيونية الخاصة بنا وبحضارتنا وقيمنا الأصيلة؟ فحضارتنا وديننا ممتلئان بالقصص لبطولات وأخلاق تصلح لتحويلها إلى رسوم متحركة، تكون بناءة لا هدامة.

● **تشويه العقيدة**

الأدهى والأمر أن تلك البرامج التلفزيونية والرسوم المتحركة والأفلام للمراهقين، باتت تشوه عقيدة أبنائنا بأمور تتضمن الشرك والضلال وعبادة غير الله تعالى، فتجدها مثلا تتضمن الصلاة في الكنيسة أو المعبد البوذي أو تشجع أعياد النصارى وطقوسهم، أو تذكر آلهة غير الله تعالى، أو أن القوى الخارقة في الكون هي الطبيعة! أو تدخل في أمور غيبية، فتصور الملائكة أو الجن كما يحلو لها! كيف لا وهي لم تصمم في الأصل لنا، بل هي مستوردة بكل ما تتضمنه من تشويه لعقيدة أبنائنا، وأحيانا بقصد وتناقض لما ورد في ديننا وفي الأحاديث النبوية، والمشكلة أننا لا نجلس مع أبنائنا نراقب ما يشاهدون ونصحح مفاهيمهم، أو على الأقل نمنع حضور مثل تلك البرامج!

● **تشويه الحقائق والخيال**

إنها برامج وجهت إلى الأطفال ورسوم متحركة وأفلام، لكنها شوهت خيال أبنائنا وفطرتهم، فجعلت الكائنات الشريرة كالجن والشياطين خيرة، ولها ملامح جميلة ومحببة! وجعلت الكائنات الصالحة على شكل فئران وخنازير وأشكال قبيحة مشوهة! وجعلت إسفنجة تتحدث! وجعلت التشرد وترك الأسرة شيئا جميلا محببا يتضمن المغامرات والمتعة! والحقيقة أن الأطفال دون الخامسة مثلا لا يميزون بين الحقيقة الخيال، والمشكلة أنهم يتابعون وهم يعتقدون أن الإسفنجة ممكن أن تتحدث أو أن الحصان يطير أو أن الإنسان إن قفز من مكان مرتفع جدا لا يحدث له شيء.

● **تشويه المخلوقات**

كثيرا ما تشوه المخلوقات الجميلة التي خلقها الله تعالى بأحسن صورة، فيجعل لها أشكالا قبيحة، كأن تكون لها عين واحدة في الرأس، أو جسد صغير جدا ورأس متضخم، أو آذان كبيرة وأنف صغير ولسان طويل! أو جعل النار تخرج من أيدي تلك المخلوقات أو أفواهها أو تخرج سكاكين حادة تقطع المقابل! أو يتحول المخلوق مرة إلى أفعى كبيرة ومرة إلى طائر ومرة إلى مركبة ومرة إلى ذئب.. في تشويه تام لمفاهيم الأطفال الصغار وعقولهم.

والأخطر أنهم يجعلون لتلك المخلوقات المشوهة أو مشاهير برامج الأطفال، ملابس وحقائب وأدوات مدرسية ودمى وألعاب فيديو وأثاثا يروج لها، ليجعلوها مألوفة تماما للطفل، في تشويه تام لفطرته التي فطر الله الناس عليها.

● **تشجيع السحر والشعوذة**

وباتت برامج الأطفال ومسلسلاتهم وأفلام المراهقين تتضمن السحر والشعوذة، وبطرق محببة (كأفلام هاري بوتر مثلا)، وأفلام رعب للمتعة، فيتعلم الطفل أن السحر مسموح وجميل ومعين على تحقيق الأمور، وهو في الحقيقة من الكبائر التي تغضب الله تعالى غضبا شديدا لما به من أذى للآخرين.

والسؤال الذي يجب أن يطرح على الآباء والأمهات: من أصبح يربي أبناءنا نحن أم التلفاز والأفلام؟ نحن أم الغرب واليابان ومن نستورد منهم؟ ألا تجد الأم وسيلة لإشغال

أبنائها عنها إلا التلفاز ودون مراقبة لما يشاهدون؟ كيف نشأت الأجيال السابقة بعيدا عن التلفاز؟ حاولي ألا تعودي أبناءك على مشاهدة التلفاز ولساعات طويلة، لأنه سيصبح المربي والمغذي الفكري لهم، وسيصبح التعلق به أكثر من تعلقهم بالوالدين، ويصبح الانفصال عنه مشكلة تحتاج إلى حلول ومعاناة، وتصبح أقواله مسموعة ومحفورة في الذاكرة بطريقة يصعب محوها وتغييرها، لأن الطفل كالإسفنجة يمتص كل ما يعرض له.

الكمبيوتر

إن جهاز الحاسوب ككل الأجهزة السابقة (الهاتف النقال، والتلفاز والمحطات الفضائية، وألعاب الفيديو)، هو سلاح ذو حدين، به الخير وبه الشر، وإن لم يحسن استخدامه فسيتحول إلى أداة هدامة، تمحو القيم والأخلاق والعادات العربية الأصيلة، واللغة وتعاليم الدين الخاتم للأديان. فتلك الأجهزة تضعف كل ما له علاقة بثقافتنا، بل وتستعيض عنه بثقافة أخرى دخيلة لا تمت لديننا وقيمنا وتاريخنا ومعتقداتنا وعاداتنا بصلة، فالشبكة العنكبوتية تفتح أمام أطفالنا كل أبواب العالم وكل المغاليق، وتدعهم يدخلون من أي باب يشاؤون من دون تحذير أو توجيه أو توعية.. وأبناؤنا الصغار منهم، وحتى المراهقون، قد لا يدركون خطر طمس الهوية الذي يمارس عليهم أو يعيشونه، وخطر التحرر من القيم والمبادئ والتعاليم الدينية، وخطر العولمة وما تحمله في طياتها، خصوصا أن الكثير من الآباء والأمهات أصبحوا هم أيضا لديهم انشغالات واهتمامات خاصة على الإنترنت، وهم أنفسهم يشاهدون الغث والسمين والمواقع الإباحية والمشاهد المخلة بالآداب والدين، والمضيعة للوقت، والمدمرة للنفس الراقية الموصولة بخالقها!

فإن لم يتنبه المربون لتلك الهاوية التي أصبحنا نسقط بها شيئا فشيئا، فإنه سيأتي يوم نجد أبناءنا وقد تحولوا بشكل تدريجي لنسخ من المشاهير الغربيين بأفعالهم، كالمغنين أو الراقصين أو الممثلين أو عارضي الأزياء أو مصمميها أو لاعبي الكرة أو التنس! كيف لا وأبناؤنا باتوا يعتبرون هؤلاء المشاهير هم النماذج التي يجب أن يحتذى بها، وهي ما تدر عليهم الأرباح الطائلة والسمعة والشهرة! وبالأخص مع غياب التربية الأسرية والمجتمعية الصالحة وعلى قصص النماذج الحقيقية الرائعة التي في حضارتنا وديننا من علماء ومخترعين ومكتشفين ودعاة حملوا الخير للإنسانية، والذين يصلحون للاقتداء بهم والسير على خطاهم إن نحن أبصرنا الطريق.

وهنا يأتي دور الآباء والأمهات في تنشئة أبنائهم، ومنذ الصغر، على تعليمهم تلك القصص، وتحفيظهم تلك الأسماء العظيمة ومواقفهم، كأبي بكر الصديق، والفاروق عمر ابن الخطاب، وعثمان، وعلي، وطلحة، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن معاذ، وسعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وصلاح الدين الأيوبي، والرازي، والفارابي، والخوارزمي، وابن سينا، وابن رشد، وابن الهيثم، والبيروني وغيرهم الكثير.. وعدم الانتظار ليكبروا ويطلعوا عليها، لأن الزمن يمر وقد يطلعون وقد لا يتاح لهم ذلك، فيفوتهم الخير الكثير، فتضعف أمتنا بضعف تمسك أبنائها بقيمهم وبأصول حضارتهم.

كل الأمم تعتز بحضارتها، بل وتبحث لها عن حضارة لتتمسك بها وتفتخر بها وتعتز بها، فما بالنا ونحن لدينا أعظم حضارة عرفتها البشرية لا نشعر بقيمتها الحقيقية ونبحث عن حضارات أخرى لنقتبس منها، معتقدين أن التطور والرقي أن نرمي بحضارتنا وراء ظهورنا ولا نلتفت إليها، ونجري ونلهث وراء ما صنعه لنا الآخرون على أمل أن نستمتع بحياتنا ونستفيد مما ينتجون، فأصبحنا أمة تابعة قابعة لا وزن لها في العالم؟!

نصائح تربوية سريعة

في ظل ما عرضت أنصح الأمهات والآباء بعدة نصائح عملية لعلها تكون مفيدة ومنها: إخراج التلفاز من غرف نوم الأطفال وتحديد ساعات لمشاهدته، مراقبة ما يشاهد الأبناء من أفلام وفيديوهات عبر مواقع التواصل الاجتماعي، والجلوس مع الأبناء فترات أطول ومحاورتهم وأخذ آرائهم، وإشراكهم في أعمال البيت ومسؤولياته، واصطحاب الأبناء إلى الحدائق العامة والبساتين والمعارض الفنية، كالرسم والأشغال اليدوية، والمعارض الثقافية والمتاحف، وزيارات الأقارب، والخروج في نزهات وإلى أماكن لعب للأطفال للتعويض عن الجلوس أمام تلك الأجهزة لساعات طويلة، وتشجيع ممارسة أنواع الرياضة وركوب الدراجات الهوائية وما شابهها، واللعب بالكرة مع الأبناء، وتشجيع ممارسة الهوايات، كالرسم والتطريز وفنون الرياضة، سرد القصص الهادفة وذات الاعتزاز بأبطالنا وعلمائنا وعظماء تاريخنا، استخدام أساليب تربوية كالحرمان في حال أثرت تلك الأجهزة على معدلات التحصيل المدرسي والصلاة والعادات الحميدة، تعويد الأبناء على المراقبة الذاتية وربط أفعالهم دوما بالله تعالى وأنه يرانا وهو الشاهد على أفعالنا.

تعمل على وقف الإنهيار الأسري:
مؤسسات الإرشاد الزواجي

منى السعيد الشريف
خبيرة تربوية - مصر

انهيار الأسرة كارثة مجتمعية خطيرة، وبعثرة لكيان تتشرذم أركانه، وانحدار نحو الهاوية.. فأولاد تضيع في نشأة أسرية غير طبيعية في رحاب الجد أو الجدة، أو مع زوج أب أو زوجة أم.. وزوجة تواجه المجتمع كمطلقة يراها ذئاب البشر فريسة سهلة، أو أنها تخوض غمار حياة أسرية جديدة مع زوج له غالبا ظروف خاصة (كبير السن أو مريض..)، وهي في كل الأحوال مشتتة القلب بين حياتها الجديدة وأولادها البعيدين عن كنفها وحضنها، أما الزوج فحياته لا تخلو من معاناة، فهو الرجل المطلق الذي ربما عزف عن الزواج لمرارة ما لاقى في تجربته السابقة، وحينها ينظر إليه المجتمع بنظرة حذر، فعن إبراهيم بن ميسرة أن طاوس بن كيسان قال له: لتنكحن أو لأقولن لك ما قال عمر لأبي الزوائد: «ما يمنعك عن النكاح إلا عجز أو فجور».

وقال عبد المؤمن المغربي: «ورجل بلا بعل كرجل بلا نعل، والعزوبة مفتاح الزنا، والنكاح ملواح الغنى، ومن نكح فقد صفد بعض شياطينه، ومن تزوج فقد حصن نصف دينه، ألا فاتقوا الله في النصف الثاني، فإن خراب الدين بشهوتين: شهوة البطن وهي الصغرى، وشهوة الفرج وهي الكبرى، فاعمر الركعتين وأحكم الحصنين».

وربما يتجه هذا الزوج المطلق إلى خوض غمار التجربة الأسرية من جديد بنفسية غير النفسية الأولى، وبعمر مضت منه بعض السنون، ومع زوجة جديدة لها ظروفها الخاصة أيضا، وعلى المجمل لا يخلو الأمر من معاناة وتضحيات، ليست بالهينة ولا البسيطة.

وكل هذا البركان الثائر والخضم الهائج ألمح إليه الحديث النبوي الشريف المعجز الذي رواه مسلم عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال فيدنيه منه ويقول: نِعْمَ أنت». قال الأعمش: أراه قال: فيلتزمه (أي: يضمه إلى نفسه ويعانقه).

ورغم أن الطلاق مباح، لكن هدم الأسرة هدم للمجتمع كله، قال المناوي: هذا تهويل عظيم في ذم التفريق، حيث كان أعظم مقاصد اللعين لما فيه من انقطاع النسل وانصرام بني آدم توقع وقوع الزنا الذي هو أعظم الكبائر فسادا وأكثرها معرة، كيف وقد استعظمه في التنزيل بقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة:١٠٢).

لذلك قرر الفقهاء أن الإفساد بين الزوجين من كبائر الذنوب، وهو فعل السحرة، وأعظم أعمال جنود إبليس. وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «ليس منا من خبب (أي أفسد) امرأة على زوجها، أو عبدا على سيده» (رواه أبوداود:٢١٧٥).

قال ابن القيم: وهذا من أكبر الكبائر، فإنه إذا كان الشارع نهى أن يخطب

على خطبة أخيه، فكيف بمن يفسد امرأته أو أمته أو عبده، ويسعى في التفريق بينه وبينها حتى يتصل بها، وفي ذلك من الإثم ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة إن لم يزد عليها، ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله، فحق العبد باق، فإن ظلم الزوج بإفساد حليلته والجناية على فراشه أعظم من ظلم أخذ ماله، بل لا يعدل عنده إلا سفك دمه.

إن انهيار الأسرة ما هو إلا مشروع توريد أطفال غير أسوياء إلى المجتمعات، حيث لا يوجد في أبجدياتهم معاني التلاحم والترابط والتعاطف، فما من شك أن الأولاد هم أعظم ضحية في هذا الانهيار، لقلة حيلتهم وضعف إمكاناتهم، وقلة خبرتهم في التعامل المبكر مع الظروف خارج نطاق الأسرة، ففقدان المأوى والتشتت في المعيشة، وغياب الأمان الاجتماعي أمور ليست بالهينة على الصغار، بل ربما يجد الولد أو الشاب متنفسا خارج نطاق الأسرة، ولو بالاعتماد على نفسه بالعمل، فما بالنا بالبنت التي تتوالى عليها الصدمات من كل جانب، ولا تستطيع الفكاك منها، هذا مع رقة مشاعر الأنثى ورهافة أحاسيسها، الأمر الذي يقودها حتما لاضطرابات نفسية خطيرة تدمر كيانها بالكلية.

والمحصلة أننا بدلا من بناء أجيال يحملون على عواتقهم رقي الأمة ننتج مشاريع أمراض اجتماعية وسلوكية، يستنزفون الطاقات في مكافحة جرائمهم وعبثيتهم واستهتارهم وسائر مشاكلهم النفسية والاجتماعية.

ولذلك نحن ابتداء في أمس الحاجة لاستشعار خطر «الانهيار الأسري» والتحرك على كافة الأصعدة والمستويات، للحيلولة دون تفاقم معدلاته، وبالطبع فالوقاية خير من العلاج، ومن هذا المنطلق يقع العبء الأكبر على «مؤسسات الإرشاد الزواجي» المعنية بترسيخ المفاهيم الصحيحة عن مشروع الأسرة، بداية من أسس اختيار الزوج والزوجة، ومرورا بأبجديات وفنون واستراتيجيات الحياة الزوجية وتربية الأولاد، وانتهاء بأساليب إدارة الخلافات والأزمات الزوجية.

إن «الأمية الأسرية» كارثة تهدد كيان الأسرة قبل نشأتها وخلال مسيرتها كذلك، تلك الأمية التي جعلت كثيرا من بيوتنا تؤسس على شفا جرف هار، ينخدع فيها الطرفان بالمظهر ويغفلون الجوهر، تحركهم خبرات حياتية سطحية في ظل غياب خبرة ومشورة الآباء والعقلاء والمختصين، حيث تقدم في اختياراتهم القيم الزائلة (الجمال، المال، المنصب، العشيرة..) على القيم الثابتة (الدين، الخلق، الكفاءة بين الزوجين..).

وما يقال عن أمية مرحلة ما قبل الزواج يقال أيضا عن أمية إدارة الحياة الزوجية وما تشمله من جهل بحقوق وواجبات متبادلة، وآداب وسجايا منشؤها المودة والرحمة، فضلا عن الجهل بطبيعة الرجل ومكنونات المرأة وما يتطلبه ذلك من لباقة وكياسة واحترافية في بعض الأحيان، لذلك من الخطأ الجسيم اعتبار مؤسسات الإرشاد الزواجي أشبه بغرف مغلقة معنية بحل المشاكل الزوجية فقط، بل إن دورها الوقائي والتعليمي أهم بكثير قبل نشوب الحريق، وتعاظم الخطب بين كيانين (زوج وزوجة) لا يعرفان كيف يتجانسان معا في كيان واحد اسمه «الأسرة».

ومؤسسات الإرشاد الزواجي لا يعْوزها ولا ينقصها البرامج، فديننا الحنيف قدم في هذا الشأن جملة من التوجيهات والآداب، قلما تجدها في مصدر آخر، أما الدراسات الاجتماعية والنفسية فما قصرت أبدا في عطاءاتها في هذا المضمار، المشكلة الرئيسة تكمن في فريق عمل مدرب ومشبع بهذه الثروة العلمية وكفؤ للعمل باحترافية، فضلا عن دعم حكومي ومجتمعي لهذه المؤسسات، كي تمارس دورا فعالا في محو الأمية الأسرية المتوغلة في مجتمعاتنا، وألا يقتصر تواجدها في شكل ديكوري أو رمزي لا يسمن ولا يغني من جوع.

لابد أن يكون الشغل الشاغل لهذه المؤسسات قضية «الاستقرار الأسري»، وهذا يتطلب استغلال كل القنوات الإعلامية (فضائيات، صحف، مجلات، نشرات ومطبوعات..) لنشر الوعي الجماهيري بأهمية ودور هذه المؤسسات في محاولة لتعديل المفاهيم بضرورتها في حياتنا، وحاجة الجميع للانخراط في فاعلياتها وأنشطتها، من أجل محو الأمية الأسرية والارتقاء بالوعي الأسري، والتعرف على فنونه وخفاياه وأسراره.

ولا يفوتنا أيضا أن نركز على مستوى الأداء في هذه المؤسسات، بمعنى إيصال رسالة لكافة أفراد المجتمع بضرورة التثقيف الأسري، وهذا يتطلب من هذه المؤسسات أن تكون على مستوى مهني راق ومتميز، لكي يجد كل وافد إليها حاجته وبغيته من فقيه يعرض الأحكام الشرعية والمفاهيم الإسلامية، ومتخصص نفسي وآخر اجتماعي للتعامل مع المواقف المتنوعة بما تقتضيه ضوابط العلم والعرف، هذا فضلا عن أحدث الوسائل التكنولوجية والإلكترونية التي تعين على أداء دور هذه المؤسسات، وتتيح التواصل مع روادها الذين لا يستطيعون الانخراط المباشر في أنشطتها.

إن «مؤسسات الإرشاد الزواجي» ثغرة للأسف منسية، أو على الأقل مهمش دورها تارة، ومختزل تارة أخرى في حل المشاكل الزوجية فقط.. ثغرة تحتاج لمرابطين أكفاء يحرسونها، وبالتالي يحرسون الأسرة والمجتمع والأمة بأسرها من الانهيار.. ثغرة تحتاج إلى دعم رسمي وشعبي، ودعم مادي ومعنوي، واستشعار الجميع بالحاجة إليها والاعتصام بكنفها من أجل إحباط كيد الشيطان وضمان، سلامة الجميع، والله المستعان وعليه التكلان.

صبحة بغورة
باحثة جزائرية

اللعب في حياة الطفل عبث.. أم استكشاف؟!

يستغرق اللعب في حياة الطفل في سن ما قبل دخوله المدرسة معظم ساعات يقظته، وهو أكثر أنشطته اليومية، حتى إنه قد يفضله على الأكل والنوم.. واللعب بالنسبة للطفل الصغير هو وظيفته الأولى وعمله الأساسي، وتمثل الفترات الأولى من حياة الطفل أهمية خاصة، إذ يعد اللعب وسيلة حقيقية للكشف عن صورة الطفل، فاللعب هو ضرورة حيوية لنمو شخصية الطفل وقدراته التعبيرية، ويؤثر بصورة مباشرة على سلوكه وتصرفاته الانفعالية، فهو يلعب ويتصرف بتلقائية تسمح بسهولة معرفة جوانب شخصيته، وإذا كان اللعب نشاطا طبيعيا وتلقائيا أولا، ثم مكتسبا لاحقا فإن غيابه في حياة الطفل يبدو غير عادي، لأنه مؤشر على عدم حيويته، فاللعب نشاط حركي ضروري، من خلاله يكتسب الطفل مهارات حركية تقوي جسمه، وتنمي عضلاته، فيزيد إقباله على الألعاب التي كانت تبدو أكبر من قدراته، ومنها يكتسب المطاطية العضلية والمرونة المفصلية، فيقبل على القيام بالمهام المختلفة برغبة وشجاعة ومقدرة، كما أن اللعب يزوده بالمفردات وبالمعلومات، وبمختلف ألوان المعرفة، فيكبر مخزونه اللغوي ونموه العقلي، وتتسع مداركه، فيصير متقد الذهن سريع البديهة، محبا للمبادرة وقوة الاقتراح، وإضافة إلى هذه الفوائد البدنية والعقلية تبرز فوائد أخرى أكثر أهمية، وهي المتعلقة بالجوانب التربوية، حيث أصبح لعب الأطفال في الفكر التربوي المعاصر أكثر الوسائل فعالية في تعليم الأطفال وتعلمهم. اللعب والمرح والبهجة سمتان بارزتان خلال السنوات المبكرة من عمر الطفل، وعن طريق اللعب يمكن أن تستثار حواسه، وتنمو عضلاته الدقيقة والكبيرة، وينمو بدنه نموا سليما تماما، كما تنمو لغته وعقله وذكاؤه وتفكيره، وسيدرك معها معنى روح الجماعة والتعاون مع أترابه في الألعاب الجماعية ذات الطبيعة التنافسية التي تمثل في حد ذاتها فرصة لترسيخ تقبله لحالة الخسارة بكل روح رياضية، تماما مثل فرحه بالفوز، ومن شأن الألعاب البدنية أن تعزز وتحسن مستوى النشأة الجسدية عند الطفل.

من منا لا يتذكر أول لعبة أمسكت بها يداه، أو تلك اللعبة الجماعية التي شارك فيها أحدنا مع الأصدقاء، وكيف أننا عشنا عالما من صنعنا، وقمنا ببطولات قصص من نسيج خيالنا، ربما تكون الإجابة عن إحساسنا تلك اللحظة أحد مفاتيح إعادة النظر في الدور الذي تقوم به اللعبة والألعاب في حياة الأطفال، فهي عالمهم الرحب المليء بالخيال الطفولي البريء الحافل بالقصص والحكايات والشخصيات التي لا يعرفها سواهم، فمن مخيلتهم فقط يصنعون الأساطير، ويعيشون في كل لعبة تفاصيل حكاية تربطهم بها ويتذكرونها، عادة يرتبط الطفل بالألعاب والدمى، حيث تشعره بالمتعة والتسلية، فاللعبة هي أهم ما يشد الطفل في سنواته الأولى، حيث يتلمس فيها أحاسيس الأمان والحماية، كتلك التي يجدها بجوار أمه، ويستمد منها الذاكرة المحملة بعبير المنزل والأشخاص المحببين إليه، ولذا فإن على الأم ألا تحرم طفلها من هذه الأحاسيس الرقيقة، وألا تسعى لفصلها عنه مهما بلغ عمره، بل تدعه يتمتع بصحبة رفيق الطفولة المخلص في سلام وأمان.

لاشك أن الوضع السكني في المدن

الكبرى قد يحد كثيرا من انطلاقة الطفل الذي يحتاج إلى الركض والقفز والتسلق، وهذا غير ممكن في المنازل الضيقة، بالإضافة إلى ميل الأسرة بعد يوم عمل مضن إلى الراحة والسكينة والهدوء، لذلك ترى الأبوين قليلي الصبر أمام مظاهر تصريف الطاقة الزائدة عند الطفل، كما يؤدي حرص الأبوين الشديد كي يجعلا طفلهما بعيدا عن أي أضرار تسبب له إصابات جسدية أن يصل بهما هذا الحرص مستوى مبالغا فيه، فيقبع طوال نهار يومه مقيد الحركة، عصبي المزاج، هزيل الجسم وضعيف اللياقة البدنية، فمن خلال اللعب يحقق الطفل التكامل بين وظائف الجسم الحركية والانفعالية والعقلية التي تتضمن التفكير والتدرب على تذوق الأشياء، فيتعرف على لونها وحجمها، وكيفية استخدامها. اللعب يساعد الطفل على أن يدرك عالمه الخارجي، وكلما تقدم الطفل في العمر استطاع أن ينمي كثيرا من المهارات أثناء ممارسته للعب ولمختلف الأنشطة الأخرى، والمشاهَد أن الألعاب التي يقوم فيها الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة بالملاحظة والاستكشاف والتجميع وغيرها تنمي قدراته العقلية، وتثريه بمعارف كثيرة عن العالم الذي يحيط به، ويضاف إلى هذا ما تقدمه القراءة من معارف جديدة. وللرحلات والاطلاع على المعالم الدينية والسياحية فوائد عظيمة في تذوق الفن وتهذيب الروح، وما في بعض البرامج التلفزيونية من قيم تربوية عميقة كذلك. إن اللعب يساعد على نمو الطفل من الناحية الاجتماعية، ففي الألعاب الجماعية يتعلم الطفل النظام، ويدرك قيمة العمل الجماعي، ويؤمن بالمصلحة العامة، وإذا لم يمارس الطفل اللعب مع الأطفال الآخرين، فإنه يصبح أنانيا، ويميل إلى العدوانية، ويكره الاندماج في الجماعة، لكنه بواسطة الألعاب مهما كانت بسيطة يستطيع أن يقيم علاقات جيدة ومتوازنة معهم، وأن يحل ما يعترضه من مشكلات ضمن الإطار الجماعي، وهو ما يسمى «اللعب التعاوني»، وأن يتحرر من نزعة التمركز حول الذات، ومن بعض السمات السلبية الأخرى، مثل الخجل وضعف الثقة بالنفس.

في بداية المرحلة الابتدائية هناك اللعب بالمشاركة، حيث يشارك مجموعة من الأطفال في لعبة معينة، لكن دون قائد، كالسير في طابور أو ترتيب الألعاب، وهذا ما يكشف عن إبداعات خفية في الحياة النفسية للطفل، فللعب قيمة تربوية عالية، إذ يساهم بتكوين النظام الأخلاقي المعنوي لشخصية الطفل، وخاصة الأطفال الانطوائيين، كونه حافزا على المشاركة الإيجابية، ومجرد قبول الطفل المشاركة يعطيه الإحساس بقيمته أنه جزء من المجموعة، ويشعره بالرضا، ومن مزايا الألعاب الجماعية كذلك المعرفة المتبادلة، وتعدد أساليب التعاون وتبادل القيم، والمفاهيم، مثل الصواب والخطأ، وهنا تبدو مسؤولية الوالدين في إتاحة الفرصة كاملة للنشاط التلقائي للطفل، فمن خلال اللعب يتعلم الطفل معايير السلوك الخلقي كالعدل والصدق والأمانة وضبط النفس والصبر. وإذا كان الطفل يتعلم من اللعب أن يميز بين الواقع والخيال، فإن الطفل من خلال اللعب أيضا، وفي سنوات الطفولة الأولى يظهر الإحساس بذاته كفرد مميز، فيبدأ في تكوين صورة عن هذه الذات وإدراكها على نحو مميز عن ذوات الآخرين، رغم اشتراكه معهم بعدة صفات، وثمة ما يسهم إلى حد كبير في تنمية مهارات الطفل كجمع المواد من أوراق وقطع بلاستيكية أو مكعبات الخشب... بحرص وترتيب، كي يجعل منها شيئا معبرا، يثير اهتمامه، ويحقق شغفه، وكذلك الرسم الحر للتعبير عما يختلج في نفسه من أفكار يعكسها في أشكال مرسومة بكل حرية وتلقائية، ومشاركته في النقاش وفسح المجال أمامه للإجابة على الأسئلة، وتدريبه على تكوين الجمل المفيدة، لاكتساب الشجاعة الأدبية، وتشجيعه على تكوين علاقات صداقة مع أترابه، ومن أفضل ما يمكن أن يفيد الطفل تمكينه من الكتابة بنظافة وإتقان، وتدريبه على تركيز انتباهه على الأعمال المطلوبة منه، بالاستفادة من مهاراته الحركية، وتعويده على الدقة في التنفيذ، واحترام المواعيد المحددة، وقد كشفت الدراسات في بعض الدول الأوروبية بعد تجارب مهمة أن الأطفال يجسدون الظواهر والأحداث والشخصيات في لعبهم، وهذا ما يسمى بـ «اللعب الإيهامي» فيمثل الأطفال مثلا شرطة ومجرمين، أو عروس وعروسة، أو يضع «طنجرة» على رأسه، ويعتبرها خوذة عسكري... فهذا في حد ذاته دليل إبداع، أو «اللعب الاستطلاعي» مثلما يحدث عند حصوله على لعبة جديدة كالسيارة مثلا يكسرها ليعرف ما تحتويه بداخلها. فاللعبة المعقدة تثير اهتمامه أكثر من اللعبة البسيطة.

فوائد اللعب والألعاب لا تعد ولا تحصى، تربويا وأخلاقيا وبدنيا، وفيها تتحقق المقولة الشهيرة: «العقل السليم في الجسم السليم». وسلامة؛ كليهما تمنح حياة الفرد في كبره الحيوية والنشاط، بل وتقيه شر الأمراض في شيخوخته.

معاقل العلم والعلماء.. مرو

د. محمدي النورستاني
باحث بوزارة الأوقاف الكويتية

مدينة من أمهات مدن خراسان، يطلق عليها «مرو الشاهجان»، تمييزا لها عن «مرو الروذ»، وكانت قاعدة خراسان أيام السلجوقيين وصدر الإسلام (١)، وكذلك كانت مركز خراسان أيام أن كان المأمون فيها، واستمرت كذلك إلى أن نقل الطاهريون مركز خراسان إلى «نيسابور»، وأطلق عليها البعض أنها «أم القرى» لخراسان (٢).
قال الحموي عنها: «مرو الشاهجان: هذه مرو العظمى، أشهر مدن خراسان وقصبتها.. أما لفظ مرو فقد ذكرنا أنه بالعربية الحجارة البيض التي يقتدح بها، إلا أن هذا عربي ومرو مازالت عجمية، ثم لم أر بها من هذه الحجارة شيئا ألبتة. وأما الشاهجان: فهي فارسية، معناها: نفس السلطان؛ لأن الجان هي النفس أو الروح، والشاه هو السلطان، سميت بذلك لجلالتها عندهم» (٣).

وقال عنها ابن حوقل النصيبي (ت بعد ٥٨٠هـ): «ومدينة مرو قديمة، تعرف بمرو الشاهجان، أزلية البناء، ويقال إن قهندزها من بناء طهمورث، والمدينة القديمة من بناء ذي القرنين، وهي في أرض مستوية بعيدة من الجبال، فلا يرى منها جبل بالقرب، وليس في شيء من حدودها جبل، وأرضها سبخة كثيرة الرمال، وأبنيتها من طين، فيها ثلاثة مساجد للجمعات، فأما أول مسجد أقيمت فيه الجمعة: فمسجد بني داخل المدينة في أول الإسلام، فلما كثر الإسلام بني المسجد المعروف بالمسجد العتيق على باب المدينة، ويصلي فيه أصحاب الحديث، وبني من بعد ذلك المسجد الذي على ماجان، ويقال إن ذلك المسجد والسوق ودار الإمارة من بناء أبي مسلم...» (٤).

وقال ابن حوقل أيضا في أهمية مدينة مرو: «وكانت مرو معسكر الإسلام في أول الإسلام، ومنها استقامت مملكة فارس للمسلمين؛ لأن يزدجرد ملك الفرس قتل بها في طاحونة الزرق، ومنها ظهرت دولة بني العباس...» (٥).

وكانت مرو أولى مدن خراسان قاطبة، كما أسلفنا، وازدهرت أكثر أيام تولي أبي مسلم الخراساني، الذي مكن للعباسيين من الوصول إلى الخلافة، وزاد ازدهارها أيام إقامة المأمون بها قبل انتقاله إلى بغداد بعد تولي الخلافة، كما سبق، وبعد نقل الطاهريين عاصمة خراسان من مرو إلى نيسابور لم تعد تتبوأ تلك المكانة القديمة (٦).

ويبدو أنه قد دب إليها بعض الخراب بعد ذلك، فقد مر عليها المقدسي (ت نحو٣٨٠هـ) فرأى ثلث ربضها مهدما، وقهندزها ليس بأحسن حال منها (٧).

وذكر أيضا أن ربض مرو فيه جامعان، أحدهما عند باب المدينة، والثاني في الصيارفة، وأن الغالب عليه أصحاب الإمام أبي حنيفة، وأنه وما حوله من بناء أبي مسلم الخراساني (٨).

كما أن ابن حوقل استعرض شيئا مما أصابها من الخراب قائلا: «وفي زماننا هذا - وهو سنة ثمانين وخمسمئة - ليس بمرو مسجد جامع عامر غير المسجد الذي بناه أبومسلم...» (٩).

أيام السلاجقة

على أن مرو قد استعادت شيئا من عافيتها وبهائها بعد ذلك، حيث اتسعت المدينة، وعظم شأنها أيام السلاجقة، حيث جعلوها أولى المدن مرة أخرى، قال الحموي: «وقد كان السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي مع سعة ملكه (١٠) قد اختارها على سائر بلاده، ومازال مقيما بها إلى أن مات، وقبره بها في قبة عظيمة، لها شباك إلى الجامع، وقبتها زرقاء، تظهر من مسيرة يوم (١١)، بلغني أن بعض خدمه بناها له بعد موته.. وتركتها أنا في سنة ٦١٦هـ على أحسن ما يكون...» (١٢).

وكان قصر سنجر في قرية «أندرابة»، على فرسخين من مرو، وكانت ترى بقايا قصره في المئة السابعة.

وكان السلطان ملكشاه السلجوقي (١٣) قد بنى سورا عظيما حول المدينة، واعتنى السلاجقة بمياه نهر مرغاب، وأقاموا فيه السدود والمسنيات ومقاسم الماء، ورتبوا أمر توزيعها على تلك الواحة.

فتح مدينة مرو

كان فتح مرو سنة ثلاثين من الهجرة، وتم على يدي حاتم بن النعمان الباهلي، وكان قد أرسله عبدالله بن عامر بن كريز من نيسابور، فصالح أهلها صلحا، وكان ذلك في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه (١٤).

تدمير التتار لمدينة مرو

لم يدم ما كان لمدينة مرو من البهاء والتوسع، حيث أصابها ما أصاب غيرها من المدن الإسلامية في تلك الأقطار مع قدوم جحافل المغول التتار، حيث دمرها التتار، وجعلوها أثرا بعد عين، وكان تدميرهم لها سنة ٦١٧هـ، وقد أضحت خزائن الكتب في مرو -

وسيأتي الحديث عنها - طعمة للنيران عقب نهبهم للمدينة. قال الحميري وهو يتحدث عما حدث لمدينة مرو: «وانجلت الحال عن سبعمئة ألف قتيل من المسلمين، وإنما عرف عددهم بأن وضعت عليهم قطع القصب، وكان القتلى بنيسابور وبلخ وهراة أكثر ممن كانوا بمرو، وهذه أمهات مدن خراسان التي كان المثل يضرب بعمارتها وعظمها، خربوها وقتلوا أهلها في بعض سنة، وفعلوا في مدارس هذه المدن وربضها ما تنبو عنه الأسماع، فسبحان من أرسلهم لطي الدنيا» (١٥).

وقام التتار المجرمون بحرق الجوامع والخزائن وغيرها، وكسروا السدود والمسنيات ومقاسم الماء في نهر مرغاب، فتحولت البلاد من واحة خضراء إلى سبخة مقفرة. وحين اجتاز ابن بطوطة بما وراء النهر إلى خراسان: أخبر بأن مدينتي: بلخ ومرو خربتان (١٦).

أيام تيمور وبعدها

ذكر المستوفي (ت٧٤٠هـ)، في سياق وصفه لمدينة مرو، أن الخراب مازال مستوليا على أكثرها، مما يدل على أن وضعها لم يتغير كثيرا في النصف الأول من القرن الثامن.

إلا أنها استعادت بعض بهائها في ختام ذلك القرن (الثامن)، وذلك لأن تيمور لنك كان كثيرا ما ينزل عندها حين يخفت دوي الحرب، وكان غالبا ما يقيم في موضع سماه بعضهم «ماخان»، ورجح لسترنج أنه «ماجان»، وهو الربض الغربي العظيم في مرو.

على أن مدينة مرو قد استعادت عظمتها الأولى في أيام شاه رخ، حفيد تيمور، حيث جدد قسما كبيرا من المدينة في سنة ٨١٢هـ، وقد صرح بعض مؤرخي تلك الحقبة بأنها قد عادت ثانية إلى ما كانت عليه من عمران وازدهار (١٧).

ياقوت الحموي ومدينة مرو

أقام ياقوت في «مرو» ثلاثة أعوام يجمع مادة كتابه «معجم البلدان»؛ لأن مرو كانت قبل ورود التتر إليها مشهورة بخزائن كتبها، وكان يتمنى البقاء فيها لولا ورود التتر إليها، ففارقها إلى خوارزم، فلبث فيها شهورا، ثم فارقها إلى إربل، ولم يطب له المقام فيها، فتركها إلى الموصل.

وقد وصفها قائلا: «وتركتها أنا في سنة ٦١٦هـ على أحسن ما يكون. وبمرو جامعان للحنفية والشافعية، يجمعهما السور» (١٨).

خزائن الكتب

قال الحموي مشيدا بخزائنها، ومخبرا عن حبه لمرو: «وأقمت بها ثلاثة أعوام... ولولا ما عرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها، لما فارقتها إلى الممات؛ لما في أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة، وكثرة كتب الأصول (١٩) المتقنة بها، فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف، لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة، منها خزانتان في الجامع، إحداهما يقال لها العزيزية، وقفها رجل يقال له عتيق الدين الزنجاني، أو عتيق بن أبي بكر... وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها، والأخرى يقال لها: الكمالية، لا أدري إلى من تنسب، وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته... وخزانة نظام الملك الحسن بن إسحاق في مدرسته، وخزانتان للسمعانيين، وخزانة أخرى في المدرسة العميدية، وخزانة لمجد الملك - أحد الوزراء المتأخرين بها - والخزائن الخاتونية.

وكانت سهلة التناول، لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن، تكون قيمتها مائتي دينار، فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبها كل بلد، وألهاني عن الأهل والولد.

وأكثر فوائد هذا الكتاب (٢٠) وغيره مما جمعته: فهو من تلك الخزائن.

وكثيرا ما كنت أترنم عند كوني بمرو بقول بعض الأعراب:

أقمرية الوادي التي خان إلفها
من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالي أطارحك البكاء فإننا
كلانا بمرو الشاهجان غـــريب

ثم أضفت إليها قول أبي الحسن مسعود ابن الحسن الدمشقي الحافظ، وكان قدم مرو فمات بها في سنة ٥٤٣هـ:

أخلاي إن أصبحتم في دياركم
فإني بمـرو الشاهجان غريب
أموت اشتياقا ثم أحيا تذكرا
وبين التراقي والضلوع لهيب
فما عجب موت الغريب صبابة
ولكن بقاه في الحياة عجيب

إلى أن خرجت عنها مفارقا، وإلى تلك المواطن ملتفتا وامقا، فجعلت أترنم بقول بعضهم:

ولما تزايلنا عن الشعب وانثنى
مشرق ركب مصعد عن مغرب
تيقنت أن لا دار من بعد عالج
تسر،وأن لا خلة بعد زينب»(٢١).

بداية فكرة تأليف ياقوت الحموي لكتابه «معجم البلدان» كانت في مرو

إن صلة الحموي بمدينة مرو، التي أحبها، عميقة جدا، حيث إن فكرة تأليف كتابه العظيم «معجم البلدان» راودته وهو فيها، فقد ذكر في مقدمة كتابه أنه لما كان في مجلس أبي المظفر

عبدالرحيم بن الحافظ أبي سعد عبدالكريم السمعاني بمرو الشاهجان سنة ٦١٥هـ أنكر عليه أحد الجلساء ضبطه لكلمة «حباشة»، ولم يجد في خزائن مرو العشر كتابا يذكرها، فراودته فكرة تأليف هذا الكتاب.

قال الحموي في ذلك: «وكان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب: أنني سئلت بمرو الشاهجان، في سنة خمس عشرة وستمئة، في مجلس شيخنا الإمام السعيد الشهيد فخر الدين أبي المظفر عبدالرحيم بن الإمام الحافظ تاج الإسلام أبي سعد عبدالكريم السمعاني، تغمدهما الله برحمته ورضوانه.. عن حباشة، اسم موضع جاء في الحديث النبوي، وهو سوق من أسواق العرب في الجاهلية، فقلت: أرى أنه «حُباشة» بضم الحاء... فانبرى لي رجل من المحدثين وقال: إنما هو «حَباشة» بالفتح. وصمم على ذلك وكابر، وجاهر بالعناد من غير حجة وناظر، فأردت قطع الاحتجاج بالنقل؛ إذ لا معول في مثل هذا على اشتقاق ولا عقل، فاستعصى كشفه في كتب غرائب الأحاديث، ودواوين اللغات، مع سعة الكتب التي كانت بمرو يومئذ، وكثرة وجودها في الوقوف، وسهولة تناولها.

فلم أظفر به إلا بعد انقضاء ذلك الشغب والمراء، ويأس من وجوده ببحث واقتراء، فكان موافقا - والحمد لله - لما قلته، ومكيلا بالصاع الذي كلته، فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطا، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ بالتقييد مخطوطا، ليكون في مثل هذه الظلمة هاديا، وإلى ضوء الصواب داعيا...» (٢٢).

وقد سبق أن أكثر فوائد هذا الكتاب من تلك الخزائن.

النسبة إلى «مرو»

والنسبة إلى «مرو»: «مروزي». قال السمعاني: «وكان إلحاق الزاي في هذه النسبة فيما أظن للفرق بين النسبة إلى «المروي»، وهي الثياب المشهورة بالعراق، منسوبة إلى قرية بالكوفة» (٢٣).

أما النسبة إلى «مرو الروذ»: فهي: «المروذي»، وتقع في شمال أفغانستان.

موقع «مرو» الآن

وتقع «مرو» الآن في «تركمانستان»، وهي من الجمهوريات التي استقلت عن الاتحاد السوفييتي، وتسمى الآن «ماري»، وتقع إلى الشمال الشرقي من «عشق آباد»، عاصمة تركمانستان (٢٤).

مؤلفات العلماء

من المعروف أن كثيرا من المدن الكبيرة التي كانت مراكز العلم ومعاقله، قد ألفت فيها كتب مستقلة، كمدن: بغداد، ودمشق، وجرجان، وواسط.. وغيرها. وقد ألف كثيرون كتبا في مرو، ولكنها كلها لم تطبع إلى الآن.

وممن ألف في تاريخ «مرو»:

١- محمد بن علي بن حمزة، أبوعلي الفراهيناني (ت٢٤٧ هـ).

٢- العباس بن مصعب بن بشر، أبوالفضل المروزي.

٣- أحمد بن سيار بن أيوب، أبوالحسن المروزي الحافظ (ت٢٦٨هـ).

٤- محمد بن حمدويه بن موسى بن طريف بن روح، أبورجاء الهورقاني السنجي (ت٣٠٦هـ).

٥- عبدالله بن محمود، أبوعبدالرحمن السعدي المروزي (ت٣١١هـ).

٦- أحمد بن سعيد بن أحمد بن محمد ابن معدان، أبوالعباس المعداني الأزدي (ت٣٧٥هـ).

٧- أبوزرعة السنجي، وكتابه من مصادر السمعاني في الأنساب.

٨- أحمد بن عبدالملك بن علي بن أحمد بن عبدالصمد، أبوصالح المؤذن النيسابوري (ت٤٧٠هـ).

٩- عبدالجبار بن عبدالجبار بن محمد، أبومحمد الثابتي الخرقي (ت٥٥٣هـ).

١٠- الإمام عبدالكريم بن محمد، أبوسعد السمعاني (ت٥٦٢هـ) صاحب الأنساب (٢٥).

«مرو» من أشهر معاقل العلم والعلماء

ينتسب إلى مدينة «مرو» عدد لا يحصى من العلماء، قال الحموي في ذلك: «وقد أخرجت مرو من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلهم، منهم: أحمد بن محمد بن حنبل الإمام، وسفيان بن سعيد الثوري (مات وليس له كفن واسمه حي إلى يوم القيامة)، وإسحاق بن راهويه، وعبدالله بن المبارك، وغيرهم» (٢٦).

وقال ابن الأثير الجزري: «وخرج منها جماعة كثيرة من العلماء لا حاجة إلى ذكرهم لشهرتهم» (٢٧).

الهوامش

(١) انظر: كتاب «صورة الأرض» لابن حوقل، ص٤٣٤، و«الجغرافيا» لابن سعيد المغربي، ٥٣/١.

(٢) انظر: «أحسن التقاسيم»، ١١٠/١، ١١٥.

(٣) «معجم البلدان»، ٥٤/٤.

(٤) كتاب «صورة الأرض» لأبي القاسم بن حوقل النصيبي، ص٤٣٤.

(٥) كتاب «صورة الأرض» له، ص٤٣٦.

(٦) انظر: «بلدان الخلافة الشرقية»، ص٤٤٤-٤٤٥.

(٧) انظر كلامه في «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، ص٣١١.

(٨) المصدر السابق.

(٩) كتاب «صورة الأرض» له، ص٤٣٥.

(١٠) كان سنجر آخر سلاطين السلجوقيين العظام، وامتد ملكه إلى أقصى بلاد الترك (كاشغر)، وأقصى بلاد اليمن، والحجاز، ومكران، وخراسان، وسجستان، وما وراء النهر، وطبرستان، وكرمان، وبلاد فارس، والعراقين، والموصل، والجزيرة، والشام، وغيرها من البلاد، انظر: «زبدة التاريخ»، للحسيني، ص١٨٠، و«دولة السلاجقة» للدكتور علي الصلابي، ص١٩٠.

(١١) تشييد القبور وتجصيصها، وبناء القبب عليها، وإسراجها، وغير ذلك من مظاهر تمييز بعض القبور: هي من وسائل الشرك التي نهى عنها الشارع في أحاديث كثيرة، ولكن هذه الظاهرة منتشرة في كثير من بلاد الإسلام، والله المستعان.

(١٢) «معجم البلدان»، ١٣٤/٥.

(١٣) هو السلطان الكبير جلال الدولة أبوالفتح ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان السلجوقي التركي، تملك بعد أبيه سنة ٤٦٥هـ، وتوفي سنة ٤٨٤هـ.

(١٤) انظر: «فتوح البلدان» للبلاذري ص٣٩٢، و«الأنساب» للسمعاني، ٢٦٥/٥.

(١٥) «الروض المعطار في خبر الأقطار» للحميري، ص٥٧٢.

(١٦) انظر: «رحلة ابن بطوطة»، ص٣٩٦، عند حديثه عن مدينة «هراة».

(١٧) انظر: «بلدان الخلافة الشرقية»، ص٤٤٥.

(١٨) «معجم البلدان»، ١٣٤/٥.

(١٩) يقصد النسخ الخطية للكتب.

(٢٠) يقصد كتابه الكبير «معجم البلدان».

(٢١) «معجم البلدان»، ١٣٤/٥-١٣٥.

(٢٢) «معجم البلدان»، ٢٥/١.

(٢٣) «الأنساب» للسمعاني، ٢٦٦/٥.

(٢٤) انظر: «بلدان الخلافة الشرقية»، ص٤٣٩ وما بعدها، «موسوعة المدن العربية والإسلامية» للدكتور يحيى الشامي، ص٤٢١-٤٢٢.

(٢٥) ملخص من كتاب «تاريخ المحدثين لمدن الشرق والشام» لأبي معاوية مازن البيروتي، ص١٦٤-١٨٥، وقد ذكر فوائد عن جل المؤلفات المذكورة، نقلها عن الكتب التي نقلت عن تلك الكتب.

(٢٦) «معجم البلدان»، ١٣٦/٥.

(٢٧) «اللباب في تهذيب الأنساب» لابن الأثير، ١٩٩/٣.

الشيخ هشام الحمصي.. فارس ترجل

د. محمد حسان الطيان
أستاذ مشارك في الجامعة العربية المفتوحة
وكلية الدراسات العليا في جامعة الكويت

جزعت وللحر أن يجزعا
وودعت صبري إذ ودعا
وجادت عيوني على بخلها
وحق لها اليوم أن تدمعا
وما دار في خلدي أنني
أرى العلم يرضى الثرى مضجعا
فقل للخطابة ذوبي أسى
ولا تطلبي بعده مصقعا

فقدت أعواد المنابر – في بلاد الشام خصوصا وفي العالم الإسلامي عموما – خطيبا من ألمع خطبائها، وفارسا للكلمة من أبرع فرسانها، وداعيا إلى الحنيفية السمحة من أخلص دعاتها، وعالما بفقه الموازنات والأولويات والمصالح الشرعية من أجل علمائها.

ذلكم هو العلامة الشيخ هشام عبدالرزاق الحمصي، خطيب الأدباء وأديب الخطباء.

عرفته منذ نحو أربعين عاما (١٩٧٣م) يعتلي منبر مسجد الفردوس القريب من سكني في حي السادات، فما سمعت خطيبا أفصح ولا أحكم ولا أجزل ولا أوفى منه (عدا شيخنا الشيخ كريم راجح – حفظه الله – فذاك نمط آخر). ثم تبعته مع الآلاف الذين تبعوه وتابعوه في تنقلاته بين مساجد بدر.. فسعد.. فالثناء، فما ازداد هو إلا ضياء كالبدر، وما ازددنا نحن إلا سعدا به وثناء عليه، ونسأل المولى أن يجمعنا به في الفردوس كما عرفناه أولا في جامع الفردوس.

كان أمة في الفصاحة والبيان، يتغنى بالعربية، ويرى تعلمها من الدين، ويحث الناس في خطبه على إتقانها وإحسانها، كيف لا وبها يفهم كلام الله، وبمعرفتها تدرك أسرار الإعجاز، وبملكتها يصح الاستنباط والتفسير والتأويل.

وكان مدرسة للتيسير والتبشير، وهو يصدر فيها عن دراية بمذاهب الفقهاء، واستيعاب لاختلاف الأئمة، وإدراك

ترجمة الفقيد

- ولد في دمشق عام ١٩٣٩م.
- حمل الشهادات الشرعية والعامة في الإعدادي والثانوي، وإجازة في الشريعة، ودبلوما في التربية من جامعة دمشق.
- حاضر في مادة التفسير والتجويد في جامعة دمشق – كلية الشريعة
- درس في دار المعلمين الأولى بضع سنوات قبل تقاعده، كما درس النحو في جامعة أم درمان الخاصة وكلية الشريعة والقانون بدمشق عدة سنوات، وفي المعاهد الشرعية.
- ألف ثلاثة كتب وهو طالب في الجامعة (أذيعت عبر إذاعة دمشق في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات).
- بعد بلوغه الخمسين من عمره ألف ثلاثة عشر كتابا جديدا.
- خطب على منابر دمشق في عدة مساجد مرموقة مدة ٥٣ سنة مرتجلا.
- ينظم الشيخ الشعر ويحفظ الكثير منه.
- دعي إلى الولايات المتحدة وكندا والكويت لإلقاء خطب ومحاضرات.

لمقاصد الشريعة الغراء والحنيفية السمحة.

وكان معلما من معالم الوسطية في الدين، يأبى الغلو والتكلف، ولا يرضى بالشطط والشطح والدجل.

وكان صادقا مخلصا – أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحدا – لا يجامل ولا يداهن، ولا يصانع ولا ينافق، ولا يتملق ولا يغالي في المديح.

وكان محبا للقرآن، تاليا له، مجودا لألفاظه، مترنما بتلاوته، متغنيا بقراءته، أوتي مزمارا من مزامير داود، فسعد به كل من سمعه. وكان متفننا في تعليمه، عالما بأسرار بلاغته وفصاحته، متوقفا عند الكثير منها بأجمل تعليل وأطرف تأويل.

وكان راوية للشعر العربي، ذواقا لروائعه، متخيرا لبدائعه، ينثره في خطبه ومجالسه ودروسه ومحاضراته، فيكون له أبلغ الأثر في نفوس سامعيه.

وقد أوتي في التعليم مواهب قلما اجتمعت لواحد، من جودة خط، ونداوة صوت، وحضور فقه، وحسن تأت، وبلاغة كلمة، وطرافة تعليل، وظرافة خاطرة، وكمال أسر لكل من حضر أو سمع.

ولهذا كله بكيته لما جاءني نعيه، وبكى معي أهلي، وبكى معي صحبي، وبكت معي كتبي... وحق لها أن تبكي.

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الإلف هيمان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
حتى المنابر تبكي وهي عيدان

رحمه الله، وأكرم نزله، ورفع في عليين مقامه، وجزاه عنا وعن الأمة خير ما جزى خطيبا عن قومه، وداعيا مصلحا عن أمته، ومعلما ناصحا مرشدا عن صحبه وتلامذته.

المسلمون في أوروبا.. اضطهاد متزايد

القاهرة - عبدالله شريف
دار الإعلام العربية

تتنامى ظاهرة «الإسلاموفوبيا» خاصة في أوروبا، ربما لمجرد العداء للإسلام، أو خوفا من التزايد السريع في أعداد المسلمين، أو ربما بسبب إلصاق بعض الممارسات السلبية بالأقليات الإسلامية، التي تتعرض بالتالي إلى حالات اضطهاد وتضييق، تتباين من دولة إلى أخرى، مثلما تتباين الأقليات الإسلامية في اندماجها مع المجتمعات الغربية التي تقيم فيها..

ولعل حادثة «شارلي إيبدو» تلخص حال الأقليات المسلمة، فقد تم اتهام مسلمين بارتكابها، وفي المقابل تم منح الجنسية الفرنسية لشاب مسلم من جمهورية مالي تكريما له على إنقاذ حياة ١٥ مواطنا من حادث عنف..

«الوعي الإسلامي» تلقي الضوء على الأقليات المسلمة في أوروبا وما تواجهه من سلبيات وإيجابيات.

نتوقف أولا مع تقرير لصحيفة «الإندبندنت» البريطانية، أكدت فيه أن نحو ٥٠ حادث اعتداء على مسلمين وقع في أعقاب حادث «شارلي إيبدو». وأوضح التقرير أن المسلمين في فرنسا وألمانيا وحتى في المملكة المتحدة البريطانية ينظر إليهم بعين الريبة. وبينت الصحيفة أنه يوجد في فرنسا أكبر جالية مسلمة في أوروبا، إذ يبلغ تعدادها نحو خمسة ملايين نسمة (حوالي ٧,٥ في المئة من مجموع السكان)، أما في ألمانيا فيبلغ عدد المسلمين ٤ ملايين (٥ في المئة) وفي بريطانيا يبلغ عددهم ٣ ملايين (٥ في المئة).

المسلمون في أوروبا

كما ذكر تقرير سابق لمؤسسة «عدالة للجميع ضد التمييز»، حول تعداد المسلمين في أوروبا، أوضح أن عددهم بلغ ٤٥ مليونا. وأكد أنه على الرغم من التضييق والاضطهاد فإن عدد المسلمين في تزايد مستمر، وأن دورهم وتأثيرهم في مجتمعاتهم يزدادان بشكل ملحوظ خلال الأعوام العشرة الأخيرة، حيث أصبح الإسلام الدين الثاني والمعترف به رسميا من السلطات في كثير من الدول الأوروبية.

وأكد أن أكبر كثافة سكانية للمسلمين في منطقة البلقان، حيث يشكل المسلمون في ثلاث دول أوروبية غالبية كبيرة، وهي: كوسوفو بغالبية تقارب ٩٠ في المئة، تليها جمهورية ألبانيا بنسبة ٨٠ في المئة، ومن ثم البوسنة والهرسك في الموقع الثالث بنسبة ٥٥ في المئة.

وتلي البوسنة والهرسك من حيث كثافة السكان المسلمين جمهورية مقدونيا بنسبة تصل إلى ٤٠ في المئة، تتبعها مونتنيغرو، التي تبلغ نسبة المسلمين فيها حوالي ٢٠ في المئة، وهم في هاتين الجمهوريتين اليوغوسلافيتين السابقتين (مقدونيا ومونتنيغرو) من أصول ألبانية وبوسنية.

وبلغ عدد المسلمين الأوروبيين الأصليين في منطقة البلقان أو ما يسمى جنوب شرق أوروبا حوالي ٩ ملايين نسمة، أما مجمل عدد المسلمين في الجزء الأوروبي من

روسيا فقد وصل إلى ١٧ مليون نسمة وبنسبة ١٢ في المئة من عدد السكان تقريبا. أما عدد المسلمين في هولندا فهو مليون مسلم بنسبة ٦ في المئة من مجمل السكان.

وبين التقرير ذاته أن تأثير المسلمين وحضورهم في أوروبا الغربية يزدادان يوما بعد يوم، بعكس أوروبا الشرقية، التي تظهر فيها تيارات التعصب والتشدد والعنصرية في مختلف مؤسسات المجتمع، كونها كانت خلال العهد الاشتراكي السابق مجتمعات مغلقة وتحولت إلى مجتمعات محافظة قوميا يغلب عليها التشدد.

وقال التقرير إن أكثر المجتمعات الأوروبية عداء للإسلام والمسلمين اليوم هي اليونان، تليها سلوفينيا، حيث إنها البلد الأوروبي الوحيد الذي لا توجد فيه مساجد رسمية للمسلمين.

احتواء الأزمات

إلى ذلك، أكد رئيس لجنة الدعوة بمجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشيخ عبدالعزيز النجار، أن الإسلام دين يجمع ولا يفرق، موضحا أن للبعثات الإسلامية دورا كبيرا في دعم الجاليات المسلمة، خصوصا في أوروبا وغيرها.

وأضاف أن الهدف من «مجمع البحوث» في قانون الأزهر تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وآثار التعصب السياسي والمذهبي، وبيان الرأي في ما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة. ويضم المجمع عدة لجان، من أهمها لجنة المعاهد الأزهرية التي تتواصل مع أغلب الأقليات الإسلامية في العالم.

وأشار إلى أن المجمع يرسل بعثات مستمرة لتصحيح المفاهيم المغلوطة عن الإسلام، موضحا أن الأقليات تختلف من دولة إلى أخرى، فبعضها مكرم والآخر مضطهد، مشيرا إلى أن قوانين الدول المختلفة واحترامها لحقوق الإنسان والأديان تؤثر أيضا على التعامل بين هذه الأقليات.

وأكد أن على جميع الهيئات الإسلامية التنسيق بشكل واسع لاحتواء أي أزمة لأي أقلية في العالم، فهم قادرون على ذلك، مشيرا إلى اختلاف العقليات من دولة إلى أخرى ومن أقلية إلى أخرى، فهناك من يلتزمون بالإسلام قولا وعملا، ويحترمون قوانين البلدان التي يقيمون فيها طالما لا تتعارض مع عقيدتهم، وهناك من يبتعدون عن صحيح الإسلام.

وأضاف أن نشر تعاليم الإسلام الحقيقي ليس صعبا، وهناك كثيرون في أوروبا لديهم الاستعداد لتقبل الرأي الآخر.

أفكار مغلوطة

أما د. أحمد طه ريان، العميد الأسبق لكلية الشريعة والقانون بالأزهر وعضو هيئة كبار العلماء، فأوضح أنه منذ سنوات طويلة تتجدد الإساءات عبر الصحف الغربية للنبي محمد ﷺ، وفي كل مرة نكتب وندين ونستمر على معاملاتنا ذاتها من دون تغيير، مشيرا إلى أنه لو تم التعامل مع الأمر على أنه من الأولويات لمنعت تلك الإساءات إلى الأبد.

وأضاف أن البعثات التي تطلقها الهيئات الإسلامية تحتاج إلى دعم كبير وخطط وأفكار جديدة.

وتساءل بحسرة: «لكن من يهتم بنشر الدين والدعوة وقد انشغلنا بالرفاهية والزينة وتقليد الأمم؟»، مشيرا إلى أن اضطهاد المسلمين والإساءة إلى النبي محمد ﷺ لن يتوقفا إذا استمررنا على الأساليب ذاتها.

ولفت إلى أن هناك مفاهيم غير صحيحة عن الإسلام لدى كثيرين ممن ينتسبون إليه، ما ساعد على ظهور الأفكار المغلوطة عن الإسلام، قائلا إن هناك أيضا من مواطني الغرب من ينصفون الإسلام ويحاربون حملات الإساءة إلى النبي على الرغم من أنهم غير مسلمين.

وقال: «الإساءة لا تنتقص من الرسول ﷺ»، إذ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر:٩٥)، موضحا أن كثيرا من أهل الغرب يعرفون أن الإسلام لم يأمر بقتل ولا بهدم، وأنه دين الرحمة والتواصل وإعمار الأرض، لكنهم يعاندون، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران:١١٨).

ولفت إلى أن بعض هذه الإساءات تكون محاولة لصد الإقبال المتزايد على الإسلام في أوروبا، حيث يزيد عدد المتجهين إلى الحق والإسلام بشهادة أجهزتهم البحثية.

تقصير الإعلام والمؤسسات الإسلامية

بينما أكد د. علاء نصير، أستاذ الإعلام بجامعة الأزهر، أن الهجوم على الأديان من أهم السمات الغالبة على معظم شعوب دول أوروبا، فهم أنفسهم فيما بينهم يرفضون أديانهم، مشيرا إلى أنهم لا يمتلكون ثقافة احترام الأديان والغيرة على الرسالات السماوية.

وأكد أن المسلمين يمتلكون هذه الغيرة على الدين بقوة، حتى الفاسد والعاصي منهم، لكن هذه الغيرة لا تعني ممارسة العنف ضد هذه المجتمعات.

وأشار إلى أن الهجمة الأخيرة على المسلمين في الغرب بعد حادثة «شارلي إيبدو» ليست جديدة، وتعتبر رسالة تحثنا على التحرك في الاتجاه السليم لتصحيح صورة الإسلام والمسلمين.

وطالب بتكثيف وتجديد القوافل الدعوية إلى أوروبا وعدم الاعتماد على النقل، مشيرا إلى ضرورة دراسة عقولهم وثقافاتهم للوصول إليهم.

وشدد أن على المسلمين في جميع أنحاء العالم، أفرادا ومؤسسات، الاهتمام بالأفعال وليس الأقوال، والسلوكيات والتصرفات تنقل الإسلام الحقيقي، بالإضافة إلى نشر أخلاق الإسلام من القرآن وسيرة رسول الله ﷺ.

وأضاف أن بعض المنتسبين إلى الإسلام يسيئون إليه بما يصدر عنهم من سلوكيات تشوه صورة الإسلام، وعلينا تحمل هذه التبعات وإصلاحها في أفكارنا وتعاملاتنا، بعضنا مع بعض، حتى نستطيع بعدها النقل إلى الخارج.

وأشار إلى أن هناك تقصيرا واضحا من وسائل الإعلام العربية في تصدير سلوك الإسلام الصحيح، وهناك دور كبير على ١٢٢ جامعة إسلامية حول العالم ينبغي أن تقوم به في هذا الشأن، وتكاتفها جميعا سيعطي نتيجة إيجابية في تصحيح الصورة.. ومن ثم القيام بدور محوري في الدفاع عن الأقليات المسلمة في الغرب وفي كل مكان، فطالما لم يصدر عن هذه الأقليات إساءة إلى البلدان التي يقيمون فيها، فبالتالي لا يمكن السكوت على إساءة يتعرضون إليها.

إفريقيا الوسطى نموذجا للاضطهاد

أكد اتحاد علماء أفريقيا أن مسلمي أفريقيا الوسطى يتعرضون إلى إبادة جماعية تعد عارا في جبين الإنسانية، مطالبا بملاحقة ومعاقبة المتورطين في جرائم قتل وتقطيع وحرق المسلمين أمام عدسات الكاميرات.

ويشكل المسلمون نحو ١٥ في المئة من سكان جمهورية أفريقيا الوسطى، مما يجعلها ثاني أكبر دين في البلاد بعد المسيحية (٥٠ في المئة).

شوكة المسلمين

بدوره، أكد د. عبدالمهدي عبدالقادر، عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، أن نصرة الإسلام تكون باتباع الشريعة، ويوم أن يتمسك المسلمون بدينهم لن يستطيع كذاب أو مفتر أن يتهجم على القرآن الكريم أو سنة النبي ﷺ، أو الجاليات المسلمة في مختلف البلدان.

وأضاف أن هناك دراسة غربية حددت ترتيب الدول حول الالتزام بتعاليم الإسلام، ولم يكن في العشر الأولى أي من الدول الإسلامية! وهذا مؤشر على حجم التشوه الذي يعاني منه العالم العربي والإسلامي.

وأشار إلى أن من الأسباب التي تقلل من مكانة المسلمين، سعيهم للتشبه بالأمم الأخرى: نساؤنا كنسائهم وشبابنا كشبابهم، حتى أصبحنا أضحوكة العالم وأصبحنا ذيولا لهم، مشيرا إلى أن على المسلمين، حكاما ومحكومين، علماء وطلاب علم، أن يتمسكوا بالإسلام، فإذا قويت شوكة المسلمين في أوطانهم لم يتجرأ أحد على النيل منهم في بلاد المهجر.

الدين المعاملة

وأخيرا، أكد د. رشدي شحاتة أبوزيد، أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعة حلوان، أن نشر صحيح الإسلام عن طريق المعاملة مع غير المسلمين له أثر قوي، مشيرا إلى أن هذه الطريقة كانت أهم الطرق في العصور الماضية.

وأضاف أن على وسائل الإعلام وجميع المؤسسات الدينية بذل المزيد من الجهد لنقل صورة الإسلام الحقيقية، بالإضافة إلى تفعيل لغة المواطنة داخل مجتمعاتنا الإسلامية حتى لا يفرق في الحقوق والواجبات بين مسلم وغيره، فبتحقيق العدل بين المسلم وغيره تتغير صورة الإسلام المغلوطة لدى مواطني الغرب.

وأضاف أنه توجد جهود لبعض البلدان العربية، مثل: المملكة العربية السعودية والكويت ومصر، تصب في دعم الأقليات المسلمة في بلدان الغرب، وتعزز المحافظة على هويتها الإسلامية، ونيل حقوق أبنائها السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال: إقامة المراكز الإسلامية، المساجد، الأكاديميات العلمية، الجامعات والمعاهد والمدارس، والكراسي، إضافة إلى الأعمال الإغاثية والإنسانية. وطالب بمضاعفة هذه الجهود وعدم اقتصارها على الدعم المادي، بل أيضا الدعم المعنوي والعلمي والسياسي، إن تطلب الأمر.

ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة، فقد رأت المجلة التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي:

ما يتعلق بالكاتب

- يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته.
- إرسال صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- ترسل المشاركات باسم رئيس التحرير.
- يذكر العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، و البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- يكتب المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- تذكر المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية عند الاقتباس أو الإستعانة بمصادر ومراجع.
- لا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، ويبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- تقرن الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال قد سبق نشره في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.
- في حال تأخر النشر، يفيدنا الكاتب برغبته في نشر مقالته بمكان آخر حتى يتم استبعادها من خطة النشر مستقبلا.

ملاحظة:

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

البريد الإلكتروني: info@alwaei.com

الوعي الإسلامي

إعداد : د. عمرو عبد الكريم

موضوع العدد

معركة الوعي: سؤال النهضة

على مدار أكثر من قرن من الزمان، والسؤال المركزي الذي يشغل عالم المسلمين هو: لماذا تأخر المسلمون، وتقدم غيرهم؟

والإجابة على هذا السؤال المركزي أو الوجودي، أو بالأحرى: سؤال النهضة، وعملية الاستئناف الحضاري تحتاج إلى رؤية فكرية عميقة، وإحاطة بأبعاد تاريخية واسعة، ومعرفة حضارية كبيرة، وخبرات فكرية وثقافية، حتى يتم تشخيص هذه المحنة التاريخية تشخيصا دقيقا ومستوعبا، ليتسنى تقديم محاولات جادة للإجابة عليه.

وعلى مدار أكثر من قرن من الزمان تعددت المدارس الفكرية التي حاولت الإجابة على هذا السؤال المركزي، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أنه (أي السؤال) مازال حاضرا ومعاشا في الوعي الجمعي العربي والإسلامي، وأنه مازال يثير مزيدا من الجدال على اختلاف طرق التناول وإشكاليات المنهجية، ويمكن القول بشيء من اليقين: إن كل النتاجات الفكرية على مدار تلك الحقبة الزمنية الطويلة نسبيا هي محاولات للإجابة على هذا التساؤل.

ذلك أن كل خطاب للنهضة يفرز سؤاله، ومازال خطاب النهضة في عالمنا العربي يستدعي مزيدا من الجدال.

ورغم ما قدم من إجابات أو محاولات اجتهادية للنهوض، ظل حال الأمة كما هو، ترزح تحت مطارق مظاهر التخلف في الداخل، وسندان الضغوط الكونية من الخارج، ولعل ذلك مرده إلى أن سؤال النهضة لا يستلزم فقط إجابات نظرية، بقدر ما يحتاج إلى حركة واعية على الأرض، وتراكم معرفي في أبنية المجتمع السياسية والاقتصادية.

حاول أمير البيان شكيب أرسلان (١٢٨٦-١٣٦٦هـ-١٨٦٩-١٩٤٦م) في كتابه: (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟) (صدر في ١٩٣٠م) أن يقدم إجابة قال عنها الشيخ رشيد رضا: «إنها آية من آيات بلاغته، وحجة من حجج حكمته، ولعلها أنفع ما تفجر من ينبوع غيرته، وانبجس من معين خبرته».

وانحسرت إجابة أمير البيان عن سبب تأخر المسلمين في عدة نقاط، منها:

١- بعدهم عن دينهم، وعدم رغبتهم في التضحية بأي مما يملكونه في سبيل رفعة هذا الدين.

٢- أكد أمير البيان أن أسباب تأخر المسلمين لا ترجع لكونهم مسلمين.

٣- ذكر أن من أسباب تأخر أو انحطاط المسلمين الجهل، العلم الناقص، فساد الأخلاق، الجبن، نسيان ماضيهم المجيد، وتخليهم عن ثقافتهم وديانتهم. وتركهم الجهاد، وشحهم، وبخلهم على المجاهدين الإسلاميين، وضياع الإسلام بين الجامدين وبين الجاحدين، وترك العلم والعمل به والتخوف من الفشل. وأكد أن العزيمة والإرادة كفيلتان بإحراز أي تقدم.

وفي نهاية تحليله أكد أمير البيان أن المسلمين لن ينهضوا إلا بالأشياء التي نهض بها غيرهم، ومنها: الجهاد بالمال والنفس، والعلم.

ولن يتم للمسلمين - ولا لأي أمة من الأمم - نجاح أو رقي إلا بالتضحية، فإن هذا الأمر قد أمر الله به - عزوجل - مرارا في كتابه العزيز.

ولننفض غبار اليأس، ولنتقدم إلى الأمام، ولنعلم أننا بالغون كل أمنية بالعمل والدأب والإقدام، وتحقيق شروط الإيمان.

وفي تجربة اجتهادية أخرى حاول الشيخ أبوالحسن علي الحسني الندوي (١٩١٤م -١٣٣٣هـ - ١٩٩٩م -١٤٢٠هـ) في كتابه: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) أن يقدم إجابة مختلفة لنفس السؤال، ولكن الذي ينظر إلى عنوان الكتاب يجده غريبا في تركيبه، والمفترض أن يكون العنوان هكذا: (ماذا خسر المسلمون بضعفهم)، لكن الندوي نظر إلى الواقع نظرة شمولية فجاء العنوان هكذا، لأن انحطاط المسلمين سيؤدي إلى ضعف العالم وخسارته، والعكس صحيح.

شخص الندوي الواقع الحالي بقوله: إن علة العالم الإسلامي اليوم هي الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها، والارتياح إلى

الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحياة. فلا يقلقه فساد، ولا يزعجه انحراف، ولا يهيجه منكر، ولا يهمه غير مسائل الطعام.

ثم استعرض أسباب هذا الانحطاط الروحية والمادية، ووصف ما حل بالمسلمين أنفسهم، عندما تخلوا عن مبادئ دينهم، ونكصوا عن تبعاتهم، وما نزل بالعالم كله من فقدانه لهذه القيادة الراشدة، ومن انتكاسه إلى الجاهلية الأولى، ويرسم هذا الخط عن طريق التأمل الفاحص.

ومن خلال هذا الاستعراض، يحس القارئ بمدى الحاجة البشرية الملحة إلى تغيير القيادة الإنسانية، وردها إلى الهدى الذي انبثق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى المعرفة، وبمدى الخسارة التي حلت بالبشر جميعا، لا بالمسلمين وحدهم في الماضي، وفي الحاضر، وفي المستقبل القريب والبعيد.

إلى جانب ذلك فإن الخصيصة البارزة في هذه المحاولة للإجابة على سؤال النهضة: هي الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في محيطها الشامل، وهو لهذا لا يعد نموذجا للبحث الديني والاجتماعي فحسب، بل نموذجا كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية، فهو ينظر إلى الأمور كلها، وللعوامل جميعها، وللقيم على اختلافها. فحين يتحدث المؤلف عن رد القيادة العالمية إلى الإسلام، فهو يتحدث عن مؤهلات القيادة، فلا ينسى بجوار «الاستعداد الروحي» أن يلح في «الاستعداد الصناعي والحربي»، و«التنظيم العلمي الجديد»، وأن يتحدث عن «الاستقلال التجاري والمالي»، إنه الإحساس المتناسق بكل مقومات الحياة البشرية. وبهذا الإحساس المتناسق قدم الندوي في استعراضه التاريخي، وفي توجيهه للأمة الإسلامية سواء إجابته أو تصوره للإجابة.

حاول المفكر الجزائري مالك بن نبي (١٣٢٣-١٣٩٢هـ/ ١٩٠٥-١٩٧٣م) في كتابه (شروط النهضة) أن يقدم إجابته مختلفة على هذا التساؤل المركزي: فشخص واقع الأمة بأن عوامل تراجعها تكمن في قابليتها للاستعمار، وشيوع ثقافة الاستهانة والتهوين، وطغيان تقديم الأشياء والأشخاص على الأفكار، والتركيز على التفاصيل والانشغال بها دون الكليات.

وأكد ابن نبي على أن أمراض هذه الأمة هي: الاستعمار والأمية، والفقر والظلم والجهل.

وقدم تصوره ثلاثي الأبعاد للإجابة على سؤال النهضة بأن مشكلة الإنسان وتغييره يبدأ من النفس، وذلك بمعرفتها وتعريفها للآخرين، وبمعرفة الآخر وعدم التعالي عليه.

ومشكلة التراب من حيث قيمته الاجتماعية وحلها موجود في إعادة الاعتبار لقيمة «الشجرة» التي تكسر حدة التصحر الذي يعاني منه الإنسان.

والبعد الثالث يتعلق بالزمن الذي هو المكون الأساس لأي حضارة.

ولاشك أن هناك محاولات أخرى، بعضها أسبق من محاولة أمير البيان، وخاصة للجيل الأول من رواد النهضة، أمثال الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، والكواكبي، وخير الدين التونسي، وبعضها كان على أرضية تغريبية أو استلهاما من الحضارة الغربية، وبعضها كان رفضا للواقع، واختزال الإجابة في شعار العودة إلى الإسلام، دون تقديم أي آليات أو مناهج وأساليب عمل.

وخلاصة القول: إن أي محاولة للإجابة مستوعبة لابد أن تكون أكثر واقعية في التشخيص لواقع الأمة المأزوم والمهزوم، فتركز على معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (آل عمران:١٦٥)، فتؤكد على نقد الذات واكتشاف مواطن الخلل في البنية الثقافية والاجتماعية، ولعل ذلك ما حاولته بعض اجتهادات الجيل الأول من الباحثين عن إجابة لسؤال النهضة، مثل: رفاعة الطهطاوي في كتابه «تخليص الإبريز»، وخير الدين التونسي في كتابه «أقوم المسالك في معرفة الممالك»، وعبدالرحمن الكواكبي في كتابيه «أم القرى»، و«طبائع الاستبداد»، ومحمد عبده في مساجلاته مع «رينان»، و«هانوتو»، و«فرح أنطوان»، ومحمد رشيد رضا من خلال مجلته «المنار».

منذ أكثر من قرن ومازال السؤال صالحا للطرح، إذ إن الواقع المعيش لم يقدم عليه إجابة بعد، وأحسب أن أي إجابة لابد أن تتجاوز الرؤية التقليدية لتشخيص واقع لم يزل قائما منذ قرنين، إلى محاولات تقديم إجابات أشد تفصيلية عن كيفية تجاوز واقع التخلف ذاته، للانخراط في دورة الحضارة من جديد، دون انفصال منهجي عن الثوابت الفكرية التي تشكل عصب أي حضارة ناهضة، أو تريد النهوض..

في المفاهيم والمصطلحات الحضارية

في مفهوم الحضارة

يقول ويل ديورانت:
الحضارة «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإن الحضارة تتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق».

ويقول مالك بن نبي:
الحضارة: «توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده، وفي كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدات الضرورية له في هذا الطور».

مقولات في الوعي الحضاري

«الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على أن يرتفع على ذاته أو يهوي دونها، على عكس الملائكة والحيوانات، فالملائكة لا تملك إلا أن تكون ملائكة، والحيوانات هي الأخرى لا تملك إلا أن تكون حيوانات، أما الإنسان فقادر على أن يرتفع إلى النجوم أو أن يغوص في الوحل».

د. عبدالوهاب المسيري

«إن إقامة العدل أصعب بكثير من هدم الظلم، فالهدم فعل سلبي، والبناء فعل إيجابي».

نيلسون مانديلا

«نهوض أي أمة أمر ليس بالمستحيل، شريطة أن تمتلك هذه الأمة إرادة التغيير».

د. جاسم سلطان

عرض كتاب

الوعي الحضاري.. مقاربات مقاصدية لفقه العمران الإسلامي

د. مسفر بن علي القحطاني
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص ١٦٠، ٢٠١٢م.
على مدار أربعة فصول هي:
الفصل الأول: مقاربات حول مفهوم الوعي الحضاري.
الفصل الثاني: لبنات في صناعة التحضر.
الفصل الثالث: مقامات الرعاية الشرعية للتحضر الرشيد.
الفصل الرابع: منطلقات في بناء الوعي الحضاري.

ناقش المؤلف عناصر موضوعه، وألقى الضوء على معالم فقه العمران، وحاول – رغم سعة الموضوع وامتداداته – الإحاطة به من جميع جوانبه.

وبالرغم من أن العمران من شروط الاستخلاف في الأرض، فإننا – كما يؤكد المؤلف – لا نجد دراسات فقهية معاصرة تسبر غوره المادي، وتؤصله بالفقه الشرعي، وتحاول ربط المادة بمصدرها الرباني.

ومصطلح الوعي مصطلح شائك ومربك، وعصي على الإحاطة المنطقية كما يثبت المؤلف، وإن اشترك المعنيان اللغوي والشرعي في إمكانية الإحاطة بالأمر المراد بفهم وإدراك، بعيدا عن العنف والإكراه، وبعيدا عن الانقياد بلا حجة أو دليل.

وتظل عملية تجديد الوعي عبئا تنوء بحمله الجبال، فهو صمام الأمان من التحولات الحادة أو التقلبات السريعة.

ويؤكد المؤلف أنه يمكن تقديم ملامح مقاربة اجتهادية لتجديد الوعي الديني من خلال القضايا الأربع الآتية:

«الفهم البياني» الصحيح لدلالات النصوص على معانيها.

و«التأصيل الاستدلالي» المعرف بأحكام النوازل الجديدة، وفق قواعد التنزيل المحكم.

و«الشهود الاستخلافي» القائم بواجب عمارة الدنيا، ونهضة معاش الناس، وفق مشاريع تحضر واقعية.

و«التلازم المقاصدي» بجمع النصوص والفهوم، لتتوافق مع حقائق المقاصد الكلية للشريعة والمعطيات العلمية والمستجدات المصلحية.

قضايا كثيرة جديرة بالاعتبار والقراءة، أثارها الكتاب، لعل أهمها:

أثر الأسئلة في صناعة الأفكار.

جدلية الواقع المتغير، وثبوت النص المقدس.

خطورة اغتيال الوعي، والانكسار الطوعي للتخلف.

إن العمران من مقاصد الشريعة، فالله يقول: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١).

وكما يقول علال الفاسي: «المقصد العام للشريعة هو عمارة الأرض»، مشيرا إلى أن هذا الكون مسخر لأجل الإنسان وعمارة الأرض، وأن هذا التسخير الكوني يبصر الإنسان بمهمته الكبرى في تحويل هذه المسخرات، لتكون عونا في العمران.

ويؤكد المؤلف في خاتمة بحثه على أهمية استلهام فقه العمران في مواجهة الكثير من التحديات المعاصرة التي يواجهها الفرد والمجتمع.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

دولة الكويت
مكتبة مجلة الوعي الإسلامي
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

مجلة شهرية تعنى بالبحوث الدينية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف الرباط

دعوة الحق

محافظون ومجددون

للأستاذ الرصاني الفاسي

لقد ظهرت دعوة الحق للعيان ، وبرزت للوجود زاهية بالبيان ، وخلقت فى النفوس حنينا ، وتركت فى الاذان طنينا ، وتلقاها الشهم الكبير بصدره الرحيب ، وقلبه السليم ، فنعيذها بالله العظيم من وقوع الموانع وحدوث القواطع ، ونتمنى ان تبقى حرة صريحة مخلصة للحق ناصرة للدين، تعبر عنه وتهتز له وتخاصم عنه وتحتج له ، ونحن فى حاجة ماسة وضرورة ملحة الى من يدعو الى مذهب الحق ويجهر به ، والى من يستمع الى قول الحق ويعمل به ، والى مراعاة ما تمليه الظروف الجارية ، وتوجبه الاحوال القائمة **من دون تقدم جامح ولا تاخر فاضح .**

نحن احوج الى اثارة هذه الدعوة المستنيرة ، والى العمل على اثبات الحق فى موطنه واقرار سلطته وتنفيذ خطته بقوة المنطق ونفوذ الحجة مع اعتبار البيئات والنظريات ورد الشبهات والمغالطات ، اخلاصا للحق وجهادا فى سبيله ، ودفاعا عن اهله وعشيرته ، واقتداء بالداعية الاكبر والمرشد الابر جلالة محمد الخامس .

اننا نعيش فى عصر سطا فيه شيطان المادة على سلطان الروح ، فكان من الغالبين ، وانهدت فيه الدعائم الروحية وانحطت القيم المعنوية الى اسفل سافلين ، وتكاثر فيه المدعون والداعون ، وقل الحافظون لحدود الله والراشدون .

وهنا يجب ان يدوي صوت الحق ويظهر اهله فى الميدان للتعريف بمذهبهم ، ونشره بين اهاليهم وعرضه على اخوانهم ، وقد يجدون انصارا ولا يعدمون احرارا يقفون بجانبهم ويعملون لصالح بلادهم ويبتغون رضاء خالقهم .

هكذا كانت طبيعة الشرائع والملل من قبل كلما تطاول الزمن وستر الباطل الحق وجد جديد فى الحياة بعث الله رسلا مبشرين ومنذرين اقامة للحق واصلاحا للارض واهلها ببيان الشرائع واقتفاء آثارها فلا صلاح للارض ولا لاهلها الا بان يكون الله وحده هو المعبود ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسله لا لسواهم وغير الله من الخلق انما يجب طاعته اذا امر بطاعة الله وطاعة رسله عليهم الصلاة والسلام ، فقد اصلح الله الارض واهلها برسله وبدينه ، والامر بتوحيده ، ونهى عن افسادها بالشرك وعصيان رسله ومخالفة امره (**ومن يشرك بالله فكانما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح فى مكان سحيق ـ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا**) ومن تامل احوال العالم وجد كل صلاح فى الارض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعته رسله ، وكل شر فى العالم وفتنة وبلاء وتسليط عدو وسلب نعمة فعلته مخالفة اوامره ومخاصمة احكامه ومعاداة رسله ، ومن تدبر العالم منذ قام الى الان والى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين وجد هذا الامر كذلك فى خاصة نفسه وفى حق غيره عموما وخصوصا .

والملامة فى هذه الدنيا على حملة الاقلام وعدول الشريعة ، الذين يسكتون ولا يتكلمون ، والمذمة على قادة الامم ورؤساء الشعوب الذين يشبون وثبة جريئة لا تحمد عاقبتها ، فيهيئون بذلك هوة سحيقة ونفرة دائمة بين انصار القديم وانصار الجديد كما يقولون . ولعل السبب فى تنافر الفريقين ، وتراشق الجانبين عدم وجود الثقافة اللازمة والمرونة الكافية فى الافكار ، وقلة الفهم الصحيح والادراك السليم لتعاليم الاسلام من جهة ، ولاصول الحياة الجديدة من جهة اخرى مما ادى الى قلة الوثوق وكثرة التخوف ، فوقف كل فى جهة مخالفا للاخر ، ظانا به السوء ، وكل منهما يلقب غيره بلقب لا يزيدهما الا جحودا وعنادا ونفورا وابتعادا، ولو سلك الجميع مسلكا وسطا ، وصح قصدهم وطابت نفسهم ، واكتمل عقلهم ، لامكنهم التقلب على المشاكل كلها بواسطة الاجتماع والدراسة لعناصرها وتحليل اجزائها ومعرفة مبدئها وغايتها ، وبعرض الاحكام على الخارج كما هو شان العلوم العقلية والسياسية والشرعية ، فلا نصادم اصلا من اصول الشريعة الواضحة ، ولا نخل بركن من اركانها الثابتة ، وكل مشكلة فلها حل وكل داء فله دواء ، والشرائع السماوية والقوانين الوضعية وان كان للاولى فضل ومزية ، انما

انظر البقية على الصفحة 23

9

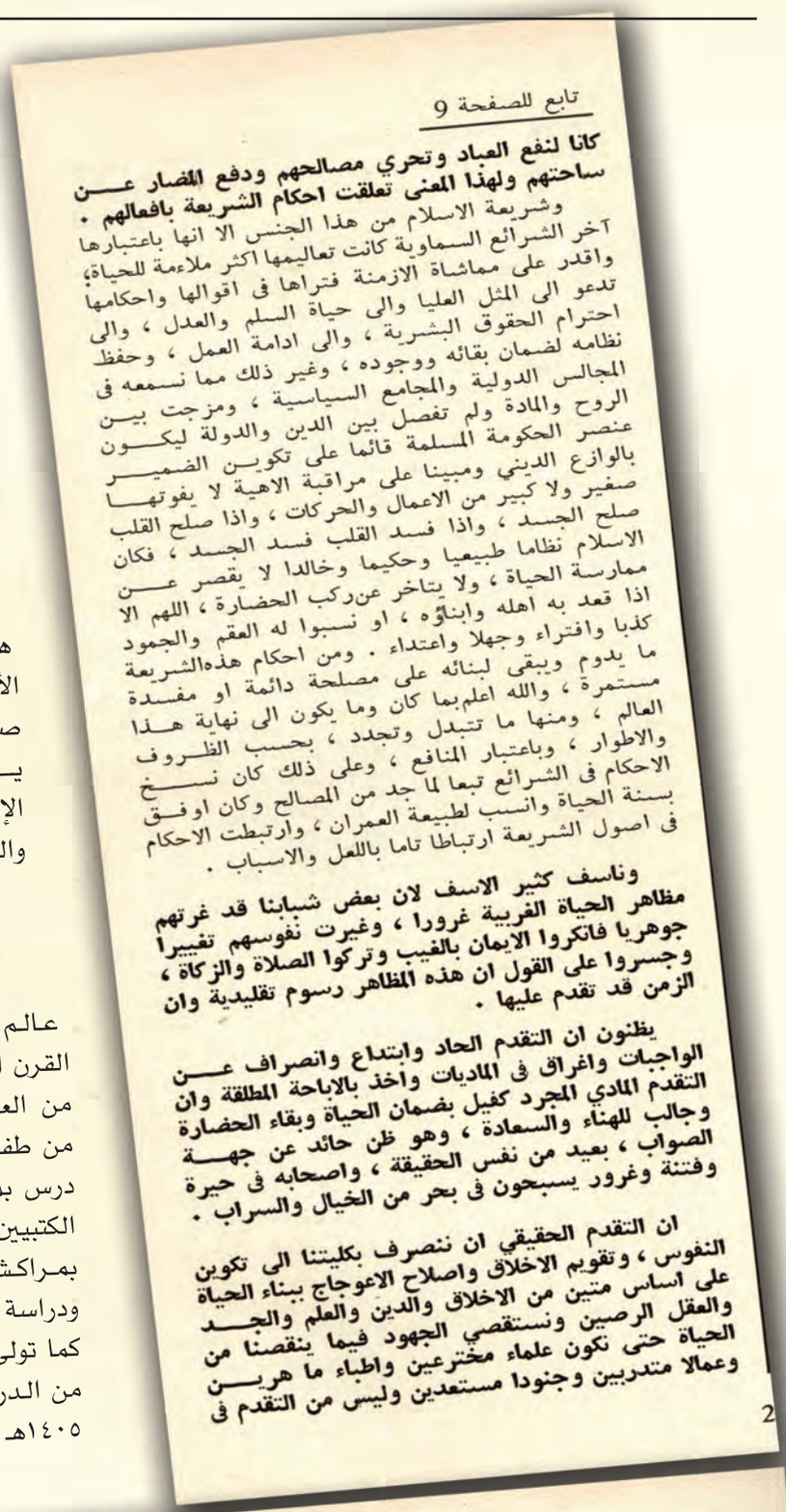

تابع للصفحة 9

كانا لنفع العباد وتحري مصالحهم ودفع المضار عن ساحتهم ولهذا المعنى تعلقت احكام الشريعة بافعالهم .

وشريعة الاسلام من هذا الجنس الا انها باعتبارها آخر الشرائع السماوية كانت تعاليمها اكثر ملاءمة للحياة، واقدر على مماشاة الازمنة فتراها في اقوالها واحكامها تدعو الى المثل العليا والى حياة السلم والعدل ، والى احترام الحقوق البشرية ، والى ادامة العمل ، وحفظ نظامه لضمان بقائه ووجوده ، وغير ذلك مما نسمعه في المجالس الدولية والمجامع السياسية ، ومزجت بين الروح والمادة ولم تفصل بين الدين والدولة ليكون عنصر الحكومة المسلمة قائما على تكوين الضمير بالوازع الديني ومبينا على مراقبة الاهية لا يفوتها صغير ولا كبير من الاعمال والحركات ، واذا صلح القلب صلح الجسد ، واذا فسد القلب فسد الجسد ، فكان الاسلام نظاما طبيعيا وحكيما وخالدا لا يقصر عن ممارسة الحياة ، ولا يتاخر عن ركب الحضارة ، اللهم الا اذا قعد به اهله وابناؤه ، او نسبوا له العقم والجمود كذبا وافتراء وجهلا واعتداء . ومن احكام هذه الشريعة ما يدوم ويبقى لبنائه على مصلحة دائمة او مفسدة مستمرة ، والله اعلم بما كان وما يكون الى نهاية هذا العالم ، ومنها ما تتبدل وتجدد ، بحسب الظروف والاطوار ، وباعتبار المنافع ، وعلى ذلك كان نسخ الاحكام في الشرائع تبعا لما جد من المصالح وكان اوفق بسنة الحياة وانسب لطبيعة العمران ، وارتبطت الاحكام في اصول الشريعة ارتباطا تاما باللعل والاسباب .

وناسف كثير الاسف لان بعض شبابنا قد غرتهم مظاهر الحياة الغربية غرورا ، وغيرت نفوسهم تغييرا جوهريا فانكروا الايمان بالغيب وتركوا الصلاة والزكاة ، وجسروا على القول ان هذه المظاهر رسوم تقليدية وان الزمن قد تقدم عليها .

يظنون ان التقدم الحاد وابتداع وانصراف عن الواجبات واغراق في الماديات واخذ بالاباحة المطلقة وان التقدم المادي المجرد كفيل بضمان الحياة وبقاء الحضارة وجالب للهناء والسعادة ، وهو ظن حائد عن جهة الصواب ، بعيد من نفس الحقيقة ، واصحابه في حيرة وفتنة وغرور يسبحون في بحر من الخيال والسراب .

ان التقدم الحقيقي ان ننصرف بكليتنا الى تكوين النفوس ، وتقويم الاخلاق واصلاح الاعوجاج ببناء الحياة على اساس متين من الاخلاق والدين والعلم والجد والعقل الرصين ونستقصي الجهود فيما ينقصنا من الحياة حتى نكون علماء مخترعين واطباء ما هرين وعملا متدربين وجنودا مستعدين وليس من التقدم في

شيء ان ننتصل من الاداب الشريفة والاخلاق الكريمة ونخرج عن اوضاع الاسلام ونتلاعب بشرائعه ونتنكر لعقائده .

ان دعوة الحق هي دعوة الاسلام التي اخرجت الناس من الظلمات الى النور ، ومن الجهالات الى العلم، ومن الباطل الى الحق ، ومن الفوضى الى النظام ، وهي التي هاجر محمد صلوات الله عليه وسلامه من اجلها وجعل المدينة مركزا لنشرها ، وهي التي تبنى على اليقين والعمل عقائدها ، وتمتاز بالبساطة حقائقها ، وبموافقة الفطرة اوضاعها ، وبرفع الحرج والمشقة تكاليفها ومن دان بها تمسك بالسبب الاقوى واخذ بالعروة الوثقى وتقدم حسا ومعنى ، والكتاب الناطق بالحق والسنة المبينة للحق هما معتمد هذه الدعوة ، ومستندها الصحيح، وباعتمادهما تطيب الحياة وتسعد الشعوب وترتقي الى المقام اللائق وتسير الى الذروة والسنام ، وهذان الاصلان هما قوام الدنيا والدين واصل حياة المسلمين ، ففيهما النجاء من كل مشكلة ، والملجأ من كل معضل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

دعوة الحق

هي مجلة مغربية تصدرها شهريا وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، صدر عددها الأول في عام ١٣٧٦هـ/ يوليو١٩٥٧م، وتهتم بالدراسات الإسلامية والتاريخ وبشؤون الثقافة والفكر.

الرّحّالي الفاروقي

عالم من علماء المغرب، ولد في بدايات القرن العشرين، وكان من المتبحرين في كثير من العلوم الشرعية واللغوية، حفظ القرآن من طفولته وأتقنه ورسمَه بالقراءات السبع، درس بمراكش والقرويين، وخطب في جامع الكتبيين، وتولى رئاسة الجامعة اليوسفية بمراكش، وأسندت إليه عمادة كلية اللغة ودراسة مادة الحديث بدار الحديث الحسنية، كما تولى رئاسة المجلس العلمي، وألقى عددا من الدروس الحسنية الرمضانية، توفي عام ١٤٠٥هـ الموافق ١١ مارس ١٩٨٥م.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
عضو هيئة تدريس جامعة
أم القرى - مكة

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

نوازل الأحوال الشخصية: الخطبة والنكاح

- عنوان النازلة: الخطبة والنكاح عن طريق وسائل الاتصال الحديثة

- الخلاصة الحكمية:

١- دلت القرارات الواردة في هذا العدد على أنه لا يصح إجراء عقد النكاح عن طريق البرق والفاكس والحاسب الآلي والهاتف اللاسلكي؛ وذلك لاشتراط الإشهاد فيه، ونظرا إلى ما كثر في هذه الأيام من التغرير والخداع، إلا إذا استخدمت هذه الوسائل لتوكيل شخص للنكاح، فإنه يصح.

٢- إلا أنه يمكن أن يقال الآن: إنه بتطور آلات الاتصال التي تنقل بها الصورة مع الصوت، قد يحصل التأكد من شخصية الطرفين مع الشاهدين، وكلامهما بالإيجاب والقبول، وتجري هذه الرؤية عن بعد مجرى الحضور في المجلس الواحد الذي اشترطه الفقهاء. وهنا يكون العقد صحيحا.

● القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع والفتاوى الخاصة، والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:

● أولا: صدر قرار مجمع الفقه الإسلامي بجدة؛ رقم ٥٢ (٦/٣)، بشأن حكم إجراء العقود بآلات الاتصال الحديثة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين:

إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنعقد في دورة مؤتمره السادس بجدة في المملكة العربية السعودية من ١٧-٢٣ شعبان ١٤١٠هـ الموافق ١٤-٢٠ مارس ١٩٩٠م، بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع إجراء العقود بآلات الاتصال الحديثة.

ونظرا إلى التطور الكبير الذي حصل في وسائل الاتصال وجريان العمل بها في إبرام العقود لسرعة إنجاز المعاملات المالية والتصرفات.

وباستحضار ما تعرض له الفقهاء بشأن إبرام العقود بالخطاب وبالكتابة وبالإشارة وبالرسول، وما تقرر من أن التعاقد بين الحاضرين يشترط له اتحاد المجلس - عدا الوصية والإيصاء والوكالة - وتطابق الإيجاب والقبول، وعدم صدور ما يدل على إعراض أحد العاقدين عن التعاقد، والموالاة بين الإيجاب والقبول بحسب العرف.

قرر ما يلي:

أولا: إذا تم التعاقد بين غائبين لا يجمعهما مكان واحد، ولا يرى أحدهما الآخر معاينة، ولا يسمع كلامه، وكانت وسيلة الاتصال بينهما الكتابة أو الرسالة أو السفارة (الرسول)، وينطبق ذلك على البرق والتلكس والفاكس وشاشات الحاسب الآلي (الحاسوب)، ففي هذه الحالة ينعقد العقد عند وصول الإيجاب إلى الموجه إليه وقبوله.

ثانيا: إذا تم التعاقد بين طرفين في وقت واحد وهما في مكانين متباعدين، وينطبق هذا على الهاتف واللاسلكي، فإن التعاقد بينهما يعتبر تعاقدا بين حاضرين، وتطبق على هذه الحالة الأحكام الأصلية المقررة لدى الفقهاء المشار إليها في الديباجة.

ثالثا: إذا أصدر العارض، بهذه الوسائل، إيجابا محدد المدة يكون ملزما بالبقاء على إيجابه خلال تلك المدة، وليس له الرجوع عنه.

رابعا: إن القواعد السابقة لا تشمل النكاح لاشتراط الإشهاد فيه، ولا الصرف لاشتراط التقابض، ولا السلم لاشتراط تعجيل رأس المال.

خامسا: ما يتعلق باحتمال التزييف أو التزوير أو الغلط يرجع فيه إلى القواعد العامة للإثبات.

انتهى القرار.

وبمثل هذا القرار صدرت فتوى رئيس لجنة الإفتاء في الجامعة الإسلامية بغزة؛ حيث ورد إليه سؤال:

■ السؤال: ما حكم عقود البيع التي تجرى بواسطة شاشة الحاسب الآلي (الكمبيوتر) والتي تعرف بـ«التجارة الإلكترونية»؟

● الإجابة:.... وإبرام العقود عبر شاشات الحاسب الآلي (الكمبيوتر) لا يشمل عقد النكاح لاشتراط الإشهاد فيه، ولا عقد الصرف لاشتراط التقابض، ولا عقد السلم لاشتراط تعجيل رأس المال في المجلس.

أما ما يتعلق من احتمال التزييف أو التزوير أو الغلط أثناء التعاقد عبر «الكمبيوتر» فهذا يرجع فيه إلى القواعد العامة للإثبات (البينة على من ادعى واليمين على من أنكر).

رئيس لجنة الإفتاء: د. أحمد ذياب شويدح.

● التعليق:

لما كان لابد لصحة عقد الزواج من وجود الشاهدين مع الزوجين في مجلس العقد، وذلك للتأكد من شخصية الزوجين وسماع الصيغة، وكان الكلام في التليفون أو ما يشبهه من الوسائل المذكورة مما يعسر فيه التحقق من صوت الزوج؛ لإمكان التقليد والمحاكاة للأصوات، وكذلك إذا سمعته الزوجة

فالشاهدان ربما لا يسمعانه؛ كان لابد من اشتراط ذلك والتأكيد عليه، واستثناؤه من القرار السابق.

إلا أنه يمكن أن يقال الآن: إنه بتطور آلات الاتصال التي تنقل بها الصورة مع الصوت قد يحصل التأكد من شخصية الطرفين مع الشاهدين، وكلامهما بالإيجاب والقبول، وتجري هذه الرؤية عن بعد مجرى الحضور في المجلس الواحد الذي اشترطه الفقهاء. وهنا يكون العقد صحيحا.

راجع كتاب: «أحكام الأسرة في الإسلام» للدكتور محمد مصطفى شلبي.

وأما اشتراط العدالة في الشهود:

فذهب الأحناف إلى أن العدالة لا تشترط، وأن الزواج ينعقد بشهادة الفاسقين.

والشافعية قالوا: لابد من أن يكون الشهود عدولا لحديث: «لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل». فإذا عقد الزواج بشهادة مجهولي الحال، ففيه وجهان. والمذهب: أنه يصح.

● ثانيا: ثم صدرت فتوى اللجنة الدائمة حول عقد النكاح عن طريق الهاتف؛ حيث جاء في السؤال الثاني من الفتوى رقم ١٢١٦ ما يلي:

■ **السؤال: إذا توافرت أركان النكاح وشروطه إلا أن كلا من الولي والزوج في بلد، فهل يجوز العقد تليفونيا أم لا؟**

● الجواب: نظرا إلى ما كثر في هذه الأيام من التغرير والخداع، والمهارة في تقليد بعض الناس بعضا في الكلام وإحكام محاكاة غيرهم في الأصوات، حتى إن أحدهم يقوى على أن يمثل جماعة من الذكور والإناث، صغارا وكبارا، ويحاكيهم في أصواتهم وفي لغاتهم المختلفة محاكاة تلقي في نفس السامع أن المتكلمين أشخاص، وما هم إلا شخص واحد، ونظرا إلى عناية الشريعة الإسلامية بحفظ الفروج والأعراض، والاحتياط لذلك أكثر من الاحتياط لغيرها من عقود المعاملات، رأت اللجنة أنه ينبغي ألا يعتمد في عقود النكاح في الإيجاب والقبول والتوكيل على المحادثات التليفونية؛ تحقيقا لمقاصد الشريعة، ومزيد عناية في حفظ الفروج والأعراض حتى لا يعبث أهل الأهواء ومن تحدثهم أنفسهم بالغش والخداع.

وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت الفتوى.

● التعليق:

الذي يظهر والله أعلم في هذه المسألة: أنه يجوز عقد النكاح عن طريق الهاتف والإنترنت إذا أمن التلاعب، وتحقق من شخص الزوج والولي، وسمع الشاهدان الإيجاب والقبول. وهذا ما أفتى به الشيخ ابن باز رحمه الله، حيث سأله المشرف على موقع الإسلام سؤال وجواب في سؤال حمل رقم ٢٢٠١، وهو مقتضى فتوى اللجنة الدائمة التي منعت النكاح هنا لأجل الاحتياط وخوف الخداع.

وبهذا يعلم أن الإشكال هنا ليس في مسألة اتحاد المجلس، فإن الاتصال الهاتفي أو «الإنترنتي» من الطرفين في الوقت نفسه يأخذ حكم المجلس الواحد.

والشهادة على هذا العقد ممكنة، بسماع صوت المتكلم عبر الهاتف أو الإنترنت، بل في ظل التقدم العلمي اليوم يمكن مشاهدة الولي وسماع صوته أثناء الإيجاب، كما يمكن مشاهدة الزوج أيضا.

● ثالثا: ثم صدر قرار ندوة مجمع الفقه الإسلامي بالهند في دورته الثالثة عشرة عام (٢٠٠١/٤م) بشأن إجراء التعاقد بالآلات الحديثة:

أولا: المراد من المجلس الحال التي يشتغل فيها العاقدان بإجراء التعاقد. والقصد من اتحاد المجلس أن يتصل الإيجاب بالقبول في وقت واحد، ومن اختلاف المجلس ألا يتصل الإيجاب بالقبول في وقت واحد.

ثانيا:

(أ) يصح الإيجاب والقبول في البيع عن طريق الهاتف ومؤتمر الفيديو، وإذا كان العاقدان على الإنترنت في وقت واحد ويظهر الطرف الآخر قبوله بعد الإيجاب بالفور انعقد البيع، ويعتبر مجلس العاقدين في هذه الصورة متحدا.

(ب) إذا أجاب أحد في البيع على الإنترنت ولم يكن الطرف الآخر متواجدا على الإنترنت وقت الإيجاب، وبعد وقت تسلم الإيجاب، فهذه إحدى صور البيع بالكتابة، وعندما يقرأ الإيجاب يلزمه إظهار القبول في حينه.

ثالثا: إذا أراد المشتري والبائع إخفاء تعاقدهما واستخدما لذلك الأرقام السرية، لم يجز لشخص آخر الاطلاع على هذا التعاقد، أما إذا كان لشخص ما حق الشفعة أو حق شرعي آخر متعلق بذلك العقد أو البيع جاز له الاطلاع عليه.

رابعا: إن عقد النكاح يحمل خطورة أكثر من عقد البيع، وفيه جانب تعبدي، ويشترط فيه الشاهدان، لذلك لا يعتبر مباشرة الإيجاب والقبول للنكاح على الإنترنت ومؤتمر الفيديو والهاتف، أما إذا استخدمت هذه الوسائل لتوكيل شخص للنكاح، ويقوم الوكيل من جانب موكله بالإيجاب والقبول أمام الشاهدين صح النكاح، ويلزم في هذه الصورة أن يكون الشاهدان يعرفان الموكل أو يذكر الموكل اسمه واسم أبيه عند الإيجاب والقبول.

انتهى القرار.

● التعليق:

نص القرار كسابقه على أن عقد النكاح لا يصح انعقاده عن طريق الوسائل الإلكترونية الحديثة، إلا أنه زاد عليه صحة ذلك إذا استخدمت هذه الوسائل لتوكيل شخص للنكاح.

قال ابن قدامة: «ويجوز التوكيل في عقد النكاح في الإيجاب والقبول، ولأن النبي ﷺ وكل عمرو بن أمية وأبا رافع في قبول النكاح له، ولأن الحاجة تدعو إليه؛ فإنه ربما احتاج إلى التزويج من مكان بعيد لا يمكنه السفر إليه؛ فإن النبي ﷺ تزوج أم حبيبة وهي يومئذ بأرض الحبشة» (المغني ٥/٢٠٣).

إعداد: التحرير

الحذر من الغفلة

عن زهير بن أبي نعيم رحمه الله، أنه قال له رجل: يا أبا عبدالرحمن أتوصي بشيء؟ قال: نعم، احذر أن يأخذك الله، وأنت على غفلة.

(صفة الصفوة، ١٩/٤)

قد يعثر الجواد

قال الكسائي رحمه الله:

صليت بهارون الرشيد، فأعجبتني قراءتي، فغلطت في آية ما أخطأ فيها صبي قط، أردت أن أقول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فقلت: لعلهم يرجعين.

قال: فوالله ما اجترأ هارون أن يقول لي: أخطأت، ولكنه لما سلمت، قال لي: يا كسائي، أي لغة هذه؟ قلت: يا أمير المؤمنين، قد يعثر الجواد، فقال: أما هذا فنعم.

■ قال الذهبي رحمه الله:

من وعى عقله هذا الكلام، علم أن العالم مهما علا كعبه، وبرز في العلم، إلا أنه لا يسلم من أخطاء وزلات، لا تقدح في علمه، ولا تحط من قدره، ولا تنقص منزلته.

ومن حمل أخطاء أهل العلم والفضل على السبيل؛ حمدت طريقته، وشكر مسلكه، ووفق للصواب.

(تاريخ بغداد، ٣٤٥/١٣)

عشر خصال

ينبغي للإنسان أن يكون فيه عشر خصال من خصال الصالحين من أخلاق الطير والبهائم:

سخاء الديك، وأمانة الحمامة، وصمت البازي، وحذر الغراب، وحزن الطاووس، وبصيرة الهدهد، وأنفة الفهد، وصدق الفرس، وصبر الجمل، وود الكلب.

(كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار)

قبلنا منك يا معلم الخير

قال عبدالله بن أحمد رحمهما الله، سمعت أبي يقول ليحيى بن معين:

يا أبا زكريا، بلغني أنك تقول: حدثنا إسماعيل ابن علية!

فقال يحيى: نعم أقول هكذا.

قال أحمد: فلا تقله، قل: إسماعيل بن إبراهيم، فإنه بلغني أنه يكره أن ينسب إلى أمه.

قال يحيى لأبي: قد قبلنا منك يا معلم الخير.

(المناقب لابن الجوزي، ص٣٣٦)

أسلوب التعليم عند العرب

قال العلامة القاضي الخليل بن أحمد السيجري الحنفي:

اخدم العلم خدمة المستفيد
وأدم درسه بفعل حميد
وإذا ما حفظت شيئا أعده
ثم أكِّده غاية التأكيد
ثم علقه كي تعود إليه
وإلى درسه على التأبيد
وإذا ما أمنت منه فواتا
فانتدب بعده لشيء جديد
مع تكرار ما تقدم منه
واقتناء لشأن هذا المزيد
ذاكر الناس بالعلوم لتحيا
لا تكن من أولي النهى ببعيد
إن كتمت العلوم أنسيت حتى
لا ترى غير جاهل وبليد

(مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ٣٩/١)

إياك وطول المجالسة

قال ابن شبرمة لابنه: يا بني، إياك وطول المجالسة، فإن الأسد إنما يجترئ عليها من أدام النظر إليها.
وقال أردشير لابنه: يا بني لا تمكن الناس من نفسك، فإن أجرأ الناس على السباع، أكثرهم لها معاينة.
وقال ابن المعتز:

رأيت حياة المرء تـــرخص قـدره ... فإن مات أغلته المنايا الطوائح
كما يخلق الثوب الجديد ابتذاله ... كذا تخلق المرء العيون اللوامح

(بهجة المجالس وأنس المجالس، ٤٩/١)

العلوم أربعة

علم نافع (الطب).
علم رافع (الفقه).
علم واضع (النجوم).
علم ساطع (الأدب).
وزاد بعضهم خامسا: علم بارع (التفسير).

درر

قال الأحنف بن قيس:
الكلام بالخير أفضل من السكوت، والسكوت خير من الكلام باللغو والباطل.
والجليس الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من جليس السوء.

(التمهيد، ٢٩/١٠)

سوء المجالسة

من سوء أدب المجالسة: أن تقطع على جليسك حديثه، أو تبدره إلى تمام ما ابتدأ به منه، خبرا كان أو شعرا، تتم له البيت الذي بدأ به، تريه أنك أحفظ له منه. فهذا غاية في سوء المجالسة، بل يجب أن تصغي إليه كأنك لم تسمعه قط إلا منه.
وقيل لداود الطائي: لم تركت مجالسة الناس؟ قال: ما بقي إلا كبير يتحفظ عليك، أو صغير لا يوقرك.

(بهجة المجالس وأنس المجالس، ٥٠/١)

من أسماء القمر

من أسماء القمر عند العرب: الساهور، السنمار، الوباص، الوضح، الزبرقان، الأبرص، الأزهر، الباحور، الطوس، الجبهة، الزمهرير، الغاسق، الجيلم، البدر.

(لطائف اللغة لأحمد بن مصطفى اللبابيدي، ص٧)

كناش وسفينة

كان لأدباء العرب كلف بجمع ما يستحسنونه عند مطالعاتهم، على اختلاف المواضيع والأذواق والعصور، فسموا مثل هذه المواضيع «كنانيش» جمع «كناش»، وهي كلمة سريانية بمعنى: مجموع فوائد. وسفن جمع سفينة، وهذه تكون غالبا مستطيلة الحجم، تفتح من جهة طولها، لا من جهة عرضها مثل بقية الكتب، وكثيرا ما تختص بمجاميع شعرية، ولعلها سميت سفينة من أبحر الشعر، إلى أسماء أخرى لا محل لاستقرائها.

(مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ٢٧٥/٦)

أخلاق نساء السلف

قالت امرأة سعيد بن المسيب:
«ما كنا نكلم أزواجنا إلا كما تكلمون أمراءكم: أصلحك الله، عافاك الله...».
(حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٩٨/٥).

دور السلطان «تيبو» في الهند

يتحسر المسلمون إلى اليوم على ضياع الأندلس، في حين أن كثيرين لا يعرفون تاريخ الهند الإسلامية التي حكمها الإسلام والمسلمون أكثر من ألف سنة، ثم سقطت في يد الإنجليز. لقد كانت لها حضارة عظيمة، لكن للأسف أضاعها المسلمون، كما أضاعوا من قبل الأندلس بفعل العديد من العوامل الداخلية والخارجية. لقد حكم السلطان تيبو ولاية ميسور الهندية الجنوبية خلال الفترة الممتدة بين ١٧٨٢ – ١٧٩٩م. وكرس كل حياته للجهاد ضد الاحتلال الإنجليزي، ولم يلتفت إلى مغريات الحياة، بل كان همه الكبير أن يقاتل الإنجليز حتى يطردهم من أرض الهند الجنوبية ويؤسس فيها حكومة إسلامية على دعائم قوية.

إن السلطان نمر تيبو يعتبر أحد أساطير التاريخ الإسلامي في الهند الإسلامية، حيث بذل كل حياته في سبيل الله، وتحول إلى أسطورة الجهاد ضد الإنجليز، وهو يعد من الشخصيات الكبيرة التي رسخت الإسلام في الهند. ولقد كانت له من صفات القيادة ومن الخصال الدينية والإنسانية ما استحق بها أن يكون في عداد القادة المسلمين العظام من أمثال طارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي. ولقد نجح في تدعيم أسس حكومته في منطقة ميسور والهند الجنوبية. وفي عهده شيدت المساجد والمدارس في كل قرية ومدينة، وعين المؤذن والقاضي العادل، كما حرص السلطان على نشر التعليم بين أبناء المسلمين، فعين المدرسين في المساجد لتعليم أطفال المسلمين. وكان السلطان يصل ليله بنهاره في العبادة وفي تلاوة كلام الله، وكان يكره الذين يخالفون تعاليم الإسلام ويقترفون الذنوب، فحق للرجل أن نقرأ عنه.

● حسن بن محمد

المرابطون في التاريخ الإسلامي

دولة المرابطين قامت منذ البداية على أساس ديني إسلامي صرف، يهدف إلى: نشر الإسلام السني الصحيح، وإعادة إحياء فريضة الجهاد، ومحاولة بعث القوى الإسلامية واستنهاض همتها من جديد، بعدما دب الضعف والانقسام في البلاد الإسلامية ولم يعد للعباسيين قدرة للسيطرة عليها، وكثرت بها الانحرافات والابتعاد عن تعاليم الدين، ومن ثم العمل بكل جهد على العودة بالمجتمع إلى عهد السلف الصالح.

وقد اعتمدت في التمكين لنفسها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعلنت حربا على البدع والخرافات، فحطمت دنان الخمر، وكسرت آلات الطرب، وطالبت الناس بالقيام بفروض دينهم. ولذلك، لقيت دعوة المرابطين الترحيب أينما حلت، واستنجد بها الفقهاء والعلماء لتخليص البلاد الإسلامية من المفاسد والمظالم، وفتحت المدائن والبلدان أبوابها لهؤلاء الملثمين المجاهدين الذين لا يبغون من الحياة الدنيا سوى الإصلاح.

ويندر في كتب الحوليات الإسلامية أن نجد دولة خدمت الإسلام كما خدمها المرابطون، ثم لقيت الجزاء السيئ على ما قدمت من المسلمين أنفسهم، فقد تخلى الأندلسيون عن المرابطين وتركوهم يواصلون المعارك وحدهم ضد النصارى، بل حملوا عليهم وهاجموهم وأهانوهم وأنكروا فضلهم، وبلغ قصر نظرهم أن ثاروا عليهم فسهلوا للعدو بذلك مهمة القضاء على أمتهم ودينهم وحضارتهم، كما خذلهم الموحدون في المغرب ولم يمنحوهم الفرصة في إتمام جهادهم في الأندلس ضد النصارى المتحالفين ضدهم، وراحوا يضربونهم من الخلف، مشتتين بذلك من قواهم التي توزعت بين جبهة الأندلس وجبهة المغرب، مما عجل بسقوط دولتهم.

صديق الوعي الإسلامي

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

الهوية الإسلامية

هويتنا الإسلامية خط أحمر، ولا يجوز لأحد العبث بها، فالهوية قضية أساسية في الحياة الإنسانية، فالأمم بلا هوية كالجسد بلا روح، وكالحياة بلا ماء وهواء، فالهوية: هي حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره، فهي ماهيته، وما يوصف به من صفات. وكما أن للفرد هوية، فللمجتمعات والأمم هوية أيضا، ولها آثارها المترتبة عليها، فبالنسبة إلى الفرد هي التي تقوم سلوكه، وهي البوصلة التي توجه اختياره عند تعدد البدائل، وترسم سماته الشخصية، وبالنسبة إلى المجتمع هي الحصن الذي يتحصن به أفراده بداخله.

والهوية الإسلامية لا تتعارض مع الشعور الفطري بحب الوطن، فحب الوطن من الدين ومن هدي سيد المرسلين ﷺ. من هنا، بذل العلمانيون والمسبحون بحمد العولمة الغربية، أقصى جهدهم لذوبان الهوية الإسلامية ومزجها بهويات أخرى عن طريق تدمير البنية التحتية لمعتقداتنا الإسلامية، وتشويه رموزنا الدينية والثقافية حتى أصبحنا نرى في بلادنا من شباب المسلمين من يعلق في عنقه علم دولة أجنبية، ومن يلصقه على سيارته بلا حرج، ومن يتسابق على تقليد الغربيين في المظهر والعادات التي لا تتناسب مع هويتنا الإسلامية، بحجة المدنية والحداثة.

● الشيخ رسمي عجلان

الفتح الإسلامي لمدينة كابول

قرأت بحثا علميا يحمل عنوانا طويلا نسبيا «علاقة كابول بدولة الخلافة من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الطاهرية: تاريخ سياسي وحضاري»، سطرته الأستاذة الدكتورة إصلاح عبدالحميد ريحان، وحصلت به على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي (تخصص المشرق الإسلامي) من كلية الآداب في جامعة عين شمس، وقد نشرته فيما بعد بعنوان «الفتح الإسلامي لمدينة كابول: من سنة ٣١/٢٠٥ هجرية»، ضمن سلسلة تاريخ المصريين التي تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر. وقد استهلت المؤلفة كتابها ببيان الصعوبات التي صادفتها أثناء إعداد البحث، ومن أبرزها ندرة الكتب والمؤلفات الخاصة بفترة البحث. لكن الباحثة لم تيأس واستطاعت الحصول على مادتها التاريخية عن طريق الاستعانة بالسفارة الأفغانية في القاهرة، حيث أمدها السفير أجمل خيبري (سفير أفغانستان في مصر خلال إعداد البحث) بأمهات المصادر العربية والفارسية والإنجليزية إلى جانب كتب الرحالة والجغرافيين العرب وكتب الأدب القديم والحديث، التي مكنتها من إنجاز رسالتها على الوجه الأكمل الذي يشجع كل قارئ على المتابعة.

● محمد فؤاد علي

فهرسة الشيخ محمد الورزازي

طالعت للباحث أحمد السعيدي، عن منشورات جمعية تطاون أسمير في تطوان، كتابا جديدا بعنوان «فهرسة الشيخ محمد بن علي الورزازي نزيل تطوان» (١٢١٤هـ / ١٧٩٩م)، تقديم وتحقيق.

والمؤلف الورزازي أحد علماء المغرب خلال القرن ١٢هـ، وهو سليل الأسرة العلمية الورزازية في المغرب، انتقل من بلده ورزازات في درعة إلى سجلماسة وفاس وأيت عياش.. بغرض أخذ العلوم وملاقاة الشيوخ والعلماء والحصول على الإجازة منهم، قبل أن يستقر بتطوان ويصبح إماما بجامع لوقش ومدرسا للعلم به ومتصوفا على الطريقة الناصرية ومؤلفا، وكان من شيوخ العلامة أحمد بن عجيبة. وتجمع فهرسة الورزازي بين عرض المرويات والتعريف بالشيوخ وإيراد إجازاتهم له، يقول: «هذه فهرسة أذكر فيها، إن شاء الله، المشاهير من أشياخي، ممن قرأت عليهم، وأخذت عنهم، وأجازني ومن لم، تذكرة لي وتبصرة لغيري». كما يقول عنها في إجازته لتلميذه ابن عجيبة: «وأحلته على فهرستي التي وضعتها في مشايخي، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم، متضمنة لأسانيدهم». وهذا يبين أنه جرى فيها مجرى من سبقه من المسندين المغاربة في كتابة فهارس شيوخهم وأسانيدهم وروايتهم للكتب ودرايتها. وتتجلى قيمة الفهرسة في تقديم معطيات مهمة عن الحياة العلمية والفكرية في المغرب خاصة والغرب الإسلامي عامة خلال القرن ١٢هـ، وكذا إبراز الصلات والعلاقات بين المغرب والمشرق عبر الأسانيد والمصنفات والإجازات والرحلات، فضلا عن تعريف القارئ بالشيخ الورزازي خلال سيرته وتعلمه وشخصيته العلمية عموما.

● **أحمد بن محمد شاعري**

باسم الله

حين تؤوب
الشمس
لقلبك
يشرق يومك
تهتف روحك
باسم الله

● ● ●

حين
يروق الصبح
لعينك
يلمس قلبك
قبس النور
يفيض النبض
بذكر الله

● ● ●

حين
تعانق
درب السعي
تدق
بكفك
باب الرزق
تعود الكف
بنعم الله

● ● ●

حين
تعود لبيتك
طيرا
راح خماصا
عاد بطانا
يحمل
دفء الأمن
لأهله
فاذكر دوما
كرم الله

حين
تدير النظرة
حولك
دارك
أهلك
كسرة خبز
تملأ عينك
فاذكر أنك
قد أمسيت
بكنف الله

● ● ●

حين تراك
نقي القلب
تسبح ربك
حين رقادك
فاعلم أنك
فوق الحقد
وفوق الغل
ونلت الآن
أمان الله

● ● ●

حين تعود
من الأحلام
تعانق فجرا
في محراب النور
يصلي
فاسجد
شكرا
للرحمن
وهب نشيطا
وابدأ يومك
باسم الله

● **محمد عباس علي**

كلمة في الإحسان

استعملت كلمة «الإحسان» في معان كثيرة، فاستعملت بمعنى «الإتقان» مثل قوله عزوجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ (فصلت:٣٣)، وقوله ﷺ: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة». وتستعمل بمعنى «الفضل والزيادة» عن أداء الواجب، فأداء الواجب «عدل» والزيادة عليه «إحسان»، وعلى هذا المعنى قوله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل:٩٠). كما تستعمل بمعنى التصدق على الفقير. والإحسان قديم وواجب ما دام في المجتمع غني وفقير ومحتاج وغير محتاج، وربما كان الباعث عليه أول الأمر سد رب الأسرة (رجلا أم امرأة) حاجة أفرادها من الأطفال والعاجزين عن الكسب، والإشفاق على ذوي القربى وصلتهم.

ثم اتسع حتى شمل المجتمع بأسره، ثم اتسع حتى شمل الإنسانية كلها، حتى شمل الحيوان والنبات. وقد تبنى الإحسان الدين، وجعله إحدى وسائله، وربطه بالجزاء الأخروي والثواب بعد الموت.

● **محمد الحسيني السحرتي**

الأزمة المالية في إطار الأخلاق الإسلامية

على الرغم من أن بعض الاقتصاديين نبه إلى خطورة فصل الاقتصاد عن الأخلاق، فإن واقع الاقتصاد الرأسمالي المعاصر يعلن بصريح العبارة أنه لا دور للأخلاق في الاقتصاد، وهذا الأمر من الوضوح في الواقع الاقتصادي المعاصر بحيث لا يحتاج إلى التدليل عليه. هنا تجيء واحدة من أكبر المساهمات الإسلامية في الاقتصاد.

الاقتصاد في الإسلام مربوط ربطا محكما بالأخلاق في جميع جوانبه، وقطاع الإنتاج - على سبيل المثال - يحكمه الإسلام بضوابط أخلاقية محددة، بل حتى مجال الاستهلاك محكوم بضوابط أخلاقية محددة.

ولذلك، نقول إن الإسلام يعالج الاقتصاد بروابط أخلاقية تؤمنه من انتكاسات تنشأ بسبب غياب الأخلاق. ويقوم النظام المالي والاقتصادي الإسلامي على مبدأ التيسير على المقترض الذي لا يستطيع سداد الدين لأسباب قهرية، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ (البقرة:٢٨٠).

كما يقوم على منع التكتلات المؤدية إلى إلحاق الضرر والظلم بالناس، وتأمين الحرية والإفصاح اللازمين لرواد السوق من بائعين ومشترين، ومنع غبن المسترسل، ومحاربة الاكتناز والاحتكار، حيث إن النبي ﷺ نهى عن الاحتكار وقال: «من احتكر فهو خاطئ» (رواه مسلم)، وهو حبس السلع بانتظار ارتفاع أسعارها مما يؤدي إلى الإضرار بالناس.

● **فيصل شياد**

في إحياء المراجعات الفقهية

لعله من نافلة القول التأكيد على أهمية الفتوى، بما هي «إخبار عن الله تعالى في إلزام أو إباحة»، محاط بسور من القواعد والآداب مما يتصل بالمفتي أو المستفتي، وشروط القول المفتى به؛ لخطورة ما يتعلق به من عبادات المكلفين وحقوقهم، وواجباتهم، وأعراضهم.. واصطلح العلماء على وصف ذلك كله «ضوابط الفتوى».

وإذا كان تبليغ العلم فريضة إسلامية، فإن الإفتاء إخبار عن الله وتوقيع عن شرعه، ومن ثم وجب على كل مستفتى أن يتريث حتى تحصل له الأهلية المطلوبة. ولربما يكون هذا سبب الإشكال الملحوظ؛ فالبعض يغلب فريضة تبليغ العلم على حساب وجوب تحصيل أهلية الإفتاء، فيلتبس عليهم الأمر.

وكانت نتيجة هذا أن كثر المتصدرون للفتوى، وتواردت أعداد هائلة من الفتاوى؛ منها الواقعي والخيالي، والشرعي وغير الشرعي.

ويقف المسلم موقف الحيرة، فهو حين يقدم على الاستفتاء، أو قراءة الفتوى؛ إنما يهم بذلك لحاجته إلى حل ديني لمعضلة تلبس بها، أو أمر ينوي القيام به.. فإذا تساقطت الفتاوى أمامه كأوراق الخريف ازدادت حيرته، ونمت دهشته؛ فبأيها يأخذ؟! لتظهر بهذا أهمية تمحيص الفتاوى، وتنقيح الآراء الدينية من قبل مراكز مختصة وهيئات رسمية.

إن الناظر في واقع الفتاوى في العالم الإسلامي، وما تتناقله منها وسائل الإعلام، يقف على فوضى حقيقية، قد لا يتخيل معها موقف العامي المسكين الذي يرجو من العلماء بيان الأصوب ليقوم به.

وهذا الواقع يحتم على جسم الأمة بمراكزها الدينية ومؤسساتها العلمية توجيه نظر العناية إلى هذا الجانب المهم من ممارسة المسلمين الدينية. وذلكم بإحياء دور المراجعات بإنشاء مراكز لتمحيص الفتاوى والرد على ما ينبغي الرد عليه، أو بزيادة اختصاص المراجعة لدور الإفتاء والمجامع الفقهية.

ومن شأن إحياء المراجعات إسكات المتطفلين على شأن الإفتاء، ببيان عدم إتقانهم أساسيات الإفتاء وانعدام التريث المطلوب، وموازنة المسألة بفقه الواقع، واعتبار الأعراف.

إلا إن هذا الفقه (فقه المراجعات) لا يزال أكبر غائب عند الأمة إلى جانب فقه الموازنات والأولويات، فمراجعة الخطاب الديني لابد أن تستند إلى فقه، ومراجعة السياسات الوطنية لا محيد لها عن فقه، وقل مثل ذلك في التخطيطات الاقتصادية والعمرانية.

فإلى متى يظل هذا الأمر يخبط فيه الناس خبط عشواء، ولا ينظر إليه نظرة تكامل مع الواقع العالمي المعيش؛ بصعوباته ومتناقضاته؟! وإلى متى يترك لكل مترصد لهفوات المتحدثين في الشأن الديني مجال يخدم أطاريحه، ومتسع ينفذ منه إلى الطعن في الدين الإسلامي، ثم يقال لنا فيما بعد إن هذا الرأي اجتهاد شخص واحد لا يمثل رأي الإسلام في القضية؟! فهل يظن أن هذا حل المعضلة؟!

ولا يخفى ما لهذا من أثر سيئ على الدعوة الإسلامية وترغيب الناس في هذا الدين الحنيف، وما كل مرة تسلم الجرة، وقديما قال الشاعر:

أبني أمية أحكموا سفهاءكم

إني أخاف عليكم أن أغضبا

نص العلماء على شروط المفتي وفصلوا الكلام في ذلك لخطورة خطة الفتوى. وحسب الباحث النظر في أنواع المجتهدين عند علماء أصول الفقه ليقف على مجتهد المذهب، ومجتهد الفتوى، والمجتهد المطلق وما يشترط في كل منهم. ومعلوم أن المقصود من ذلك قطع الطريق على الآراء الشاذة والغريبة، سواء كان مصدرها عدم تفقه المفتي أو أخذه بأقوال مرجوحة في الفقه.

الحنفي المراد
باحث دراسات إسلامية